# موسوعة الاغتيالات
# ومحاولات الاغتيال في العالم

الجزء الرابع

د. سليم الياس





# موسوعة
# الاغتيالات ومحاولات الاغتيال
# في العالم

سليم الياس

# موسوعة

# الاغتيالات ومحاولات الاغتيال

# في العالم

## الجزء الرابع

مركز الشرق الأوسط الثقافي

الطبعة الأولى

1427 هـ 2006 م

مركز الشرق الأوسط الثقافي
للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع

*The Middle East Cultural Center*
*For Printing, Publishing, Translation & Distribution*

الإدارة العامة:
بيروت - الحدث، هاتف: ٤٦١٨٨٨ - ٥ - ٩٦١
فاكس: ٤٦١٧٧٧-٥-٩٦١- خليوي: ٦٤٠٤٩٠-٣-٩٦١
Web site: www.lccpublishers.tk

**General Management:**
**Beirut - Hadath, Tel: 961 -5 -461888**
**Fax: 961 - 5 - 461777, Mobile: 961 - 3 - 640490**
**E-mail: lcc_pub@Yahoo.com**

# مقدمة

نحن نشاهد الاغتيالات على شاشات التلفزة ونقرأ عنها في الجرائد ونسمع أخبارها في الإذاعات.

تغطي الاغتيالات كل كرتنا الأرضية، وهي تمس حياة الناس العاديين والكوادر والزعماء، كما تتقاذف رياح الكراهية وموجات الأحقاد وممارسات العنف اليومي بين الجماهير والمجموعات المختلفة حسب طوائفها وأعراقها وانتماءاتها السياسية والدينية. كما لا تخلو ساحة السلطات وأجهزتها القمعية العلنية والسرية من تهمة ارتكاب فعل الاغتيال السياسي بفنون ووسائل متعددة.

فلقد شهد تاريخ البشرية سلسلة لا نهاية لها من عمليات الاغتيال السياسي، أشهرها تلك التي أشعلت شرارة الحرب الكونية الأولى عندما اغتال شاب صربي ولي عهد النمسا. ألمانيا وروسيا وفرنسا وإيطاليا دول شهد تاريخ كل منها أسوأ الاغتيالات خاصة في عهدي هتلر وستالين.

بلادنا كان لها رصيد حافل بالضحايا تخلله اغتيال ملوك وحكام، وعلماء وفلاسفة، وناشطين سياسيين، عسكريين ومدنيين، رجالاً

ونساءً، وعلى الرغم من اختلاف مكانة وأهمية الضحايا في الدولة والمجتمع.

إلا أن الاغتيال السياسي يبقى هو الجامع بينهم وإن اختلفت طرقه. وبالعودة لقراءة تاريخ سلسلة الاغتيالات السياسية يجد المتتبع أن هذه الأنواع من الاغتيالات غالباً ما كانت تأتي مغطاة بأساليب تبعد أي شبهة لنظرية المؤامرة، ومنها على سبيل المثال عملية دس السم للضحية بواسطة المأكل أو المشرب أو الحقنة، أو زجه من على مرتفع شاهق، أو هدم حائط عليه أثناء نومه، أو إغراقه في نهر، أو خنقه في حمام وإلى ما ذلك.

ومع تطور الزمان تطورت عمليات الاغتيال لتصل إلى الدهس بالسيارات أو إسقاط طائرة لتظهر الحادث وكأنه قضاء وقدر، وإلى ما ذلك من طرق الاغتيالات التي تبعد الشك عن من له مصلحة في عملية إزاحة الضحية دون إثارة الشكوك وجلب السخط على الفاعلين.

ومع تنامي الفكر وازدياد الوعي عند الشعوب فقد أصبحت مثل هذه الطرق بدائية ومكشوفة، ولم تعد تنطلي على الناس. لذا فقد أخذ القتلة يبحثون عن وسائل جديدة للتخلص من ضحاياهم محاولين عدم ترك أي أثر يدل على الجاني. ولهذا طورت العقلية المخابراتية من أسلوب عملها، فأصبح كاتم الصوت، وتفخيخ السيارات أو المكاتب، أو تلغيم الظروف البريدية، كلها من ضمن الوسائل المبتكرة للتخلص من الخصوم.

# مصطفى حافظ
## (1920 ـ 1956)

في صباح يوم 13 تموز/يوليو عام 1956 نشرت صحيفة الأهرام خبراً عابراً يقول: قتل العقيد مصطفى حافظ نتيجة ارتطام سيارته بلغم في قطاع غزة، وقد نقل جثمانه إلى العريش ومن هناك نقل جواً إلى القاهرة على الفور، ولم ينس الخبر أن يذكر أنه كان من أبطال حرب فلسطين وقاتل من أجل تحريرها.. لكنه تجاهل تماماً أنه كان أول رجل يزرع الرعب في قلب إسرائيل.

ومصطفى حافظ رجل مصري من مدينة الإسكندرية التي تحمل أحد شوارعها اسمه الآن، كما أن له نصباً تذكارياً في غزة تبارى الإسرائيليون في تحطيمه عندما احتلوها بعد هزيمة حزيران/يونيو عام 1967.

كان مصطفى حافظ مسؤولاً عن تدريب الفدائيين وإرسالهم إلى داخل إسرائيل، كما كان مسؤولاً عن تجنيد العملاء لمعرفة ما يجري بين صفوف العدو ووراء خطوطه، فقد كان باعتراف الإسرائيليين من أفضل العقول المصرية، وهو ما جعله يحظى بثقة الرئيس جمال عبد الناصر فمنحه أكثر من رتبة استثنائية حتى أصبح عميداً وعمره

لا يزيد على 34 سنة، كما أنه أصبح الرجل القوي في غزة التي كانت تابعة للإدارة المصرية بعد تقسيم فلسطين في العام 1947.

وبرغم السنوات الطويلة التي قضاها مصطفى حافظ في محاربة الإسرائيليين إلا أنه لم يستطع رجل واحد في كافة أجهزة المخابرات الإسرائيلية أن يلتقط له صورة من قريب أو من بعيد، لكن برغم ذلك سجل الإسرائيليون في تحقيقاتهم مع الفدائيين الذين قبضوا عليهم أنه رجل لطيف يثير الاهتمام والاحترام ومخيف في مظهره وشخصيته.

وكانت هناك روايات أسطورية عن هروبه الجريء من معتقل أسرى إسرائيلي أثناء حرب عام 1948، وقد عين في منصبه في العام 1949 وكانت مهمته إدارة كافة عمليات التجسس داخل إسرائيل والاستخبارات المضادة داخل قطاع غزة والإشراف على السكان الفلسطينيين، وفي العام 1955 أصبح مسؤولاً عن كتيبة الفدائيين في مواجهة الوحدة رقم 101 التي شكلها في تلك الأيام أريل شارون للإغارة على القرى الفلسطينية والانتقام من عمليات الفدائيين ورفع معنويات السكان والجنود الإسرائيليين، وقد فشل شارون فشلاً ذريعاً في النيل منه ومن رجاله وهو ما جعل مسؤولية التخلص منه تنتقل إلى المخابرات الإسرائيلية بكافة فروعها وتخصصاتها السرية والعسكرية.

كان هناك خمسة أشخاص هم من أفضل رجال المخابرات الإسرائيلية في ذلك الوقت عليهم التخلص من مصطفى حافظ على رأسهم ـ (R) وهو لقبه المخابراتي ـ الذي كون شبكة التجسس في

مصر المعروفة بشبكة «لافون» والتي قبض عليها في العام 1954 وكانت السبب المباشر وراء الإسراع بتكوين جهاز المخابرات العامة في مصر.

وإلى جانب العميل (R) كان هناك ضابط مخابرات إسرائيلي ثاني يسمى «أبو نيسان» وأضيف لهما «أبو سليم» و«أساف» و«أهارون»، وهم رغم هذه الأسماء الحركية من أكثر ضباط الموساد خبرة بالعرب وبطباعهم وعاداتهم وردود أفعالهم السياسية والنفسية.

ويعترف هؤلاء الضباط الخمسة بأنهم كانوا يعانون من توبيخ رئيس الوزراء في ذلك الوقت ديفيد بن جوريون أول رئيس حكومة في إسرائيل والرجل القوي في تاريخها، وكانت قيادة الأركان التي وضعت تحت سيطرة موشي دايان أشهر وزراء الدفاع في إسرائيل فيما بعد ـ في حالة من التوتر الشديد.

وكان من السهل على حد قول ضباط المخابرات الخمسة التحدث إلى يهوه (الله باللغة العبرية) في السماء عن التحدث مع موشي دايان خاصة عندما يكون الحديث عن براعة مصطفى حافظ في تنفيذ عملياته داخل إسرائيل ورجوع رجاله سالمين إلى غزة، وقد خلفوا وراءهم فزعاً ورعباً ورغبة متزايدة في الهجرة منها.

وكان الحل الوحيد أمام الأجهزة الإسرائيلية هو التخلص من مصطفى حافظ مهما كان الثمن.

وضعت الفكرة موضع التنفيذ ورصد للعملية مليون دولار، وهو مبلغ كبير بمقاييس ذلك الزمن، فشبكة «لافون» مثلاً لم تكلف أكثر من 10 آلاف دولار، وعملية اغتيال المبعوث الدولي إلى فلسطين

اللورد برنادوت في شوارع القدس لم تكلف أكثر من 300 دولار.

كانت خطة الاغتيال هي تصفية مصطفى حافظ بعبوة ناسفة تصل إليه بصورة أو بأخرى، لقد استبعدوا طريقة إطلاق الرصاص عليه، واستبعدوا عملية كوماندوس تقليدية، فقد فشلت مثل هذه الطرق في حالات أخرى من قبل، وأصبح السؤال هو: كيف يمكن إرسال ذلك الشيء الذي سيقتله إليه؟.

في البداية فكروا في إرسال طرد بريدي من غزة لكن هذه الفكرة أسقطت إذ لم يكن من المعقول أن يرسل طرد بريدي من غزة إلى غزة، كما استبعدت أيضاً فكرة إرسال سلة فواكه كهدية إذ ربما ذاقها شخص آخر قبل مصطفى حافظ.

وأخيراً وبعد استبعاد عدة أفكار أخرى بقيت فكرة واحدة واضحة هي: يجب أن يكون الشيء المرسل مثيراً جداً للفضول ومهماً جداً لمصطفى حافظ في نفس الوقت كي يجعله يتعامل معه شخصياً، شيء يدخل ويصل إليه مخترقاً طوق الحماية الصارمة الذي ينسجه حول نفسه.

وبدأت الخطة تتبلور نحو التنفيذ، إرسال ذلك الشيء عن طريق عميل مزدوج وهو عميل موجود بالفعل ويعمل مع الطرفين، إنه رجل بدوي في الخامسة والعشرين من عمره يصفه العميل أبو نيسان بأنه نموذج للخداع والمكر، كان هذا الرجل يدعى طلالقة. لم يكن يعرف على حد قول ضابط الموساد أن مستخدميه من الإسرائيليين.

وبعد أن استقر الأمر على إرسال الشيء الذي سيقتل مصطفى حافظ بواسطة طلالقة بدأ التفكير في مضمون هذا الشيء، واستقر

الرأي على أن يكون طرداً بريدياً يبدو وكأنه يحتوي على شيء مهم وهو في الحقيقة يحتوي على عبوة ناسفة.

ولم يرسل الطرد باسم مصطفى حافظ وإنما أرسل باسم شخصية سياسية معروفة في غزة وهو بالقطع ما سيثير طلالقة فيأخذه على الفور إلى مصطفى حافظ الذي لن يتردد فضوله في كشف ما فيه لمعرفة علاقة هذه الشخصية بالإسرائيليين، وفي هذه اللحظة يحدث ما يخطط له الإسرائيليون وينفجر الطرد في الهدف المحدد.

وتم اختيار قائد شرطة غزة لطفي العكاوي ليكون الشخصية المثيرة للفضول التي سيرسل الطرد باسمها، وحتى تحبك الخطة أكثر كان على الإسرائيليين أن يسربوا إلى طلالقة إن لطفي العكاوي يعمل معهم بواسطة جهاز اتصال يعمل بالشيفرة، ولأسباب أمنية ستتغير الشيفرة، أما الشيفرة الجديدة فهي موجودة في الكتاب الموجود في الطرد المرسل إليه والذي سيحمله طلالقة بنفسه.

وأشرف على تجهيز الطرد (G) عضو «الكيبوتس» في المنطقة الوسطى، وقد اكتسب شهرة كبيرة في إعداد الطرود المفخخة وكان ينتمي إلى منظمة إرهابية تسمى «أستيل» كانت هي ومنظمة إرهابية أخرى اسمها «ليحي» تتخصصان في إرسال الطرود المفخخة إلى ضباط الجيش البريطاني أثناء إحتلاله فلسطين لطردهم بعيداً عنها.

وأصبح الطرد جاهزاً وقرار العملية مصدق عليه ولم يبق سوى التنفيذ، وتم نقل الطرد إلى القاعدة الجنوبية في بئر سبع وأصبح مسؤولية رئيس القاعدة أبو نيسان الذي يقول: «طيلة اليوم عندما كنا جالسين مع طلالقة حاولنا إقناعه بأننا محتارون في أمره، قلنا أن

لدنيا مهمة بالغة الأهمية لكننا غير واثقين ومتأكدين من قدرته على القيام بها، وهكذا شعرنا بأن الرجل مستفز تماماً، عندئذ قلنا له: حسناً. رغم كل شيء قررنا تكليفك بهذه المهمة. إسمع، يوجد رجل مهم جداً في قطاع غزة هو عميل لنا، ها هو الكارت الشخصي الخاص به وها هو نصف جنيه مصري علامة الاطمئنان إلينا وإلى كل من نرسله إليه والنصف الآخر معه، أما العبارة التي نتعامل بها معه فهي عبارة: «أخوك يسلم عليك»!.

ويتابع ضابط المخابرات الإسرائيلي: «كنا نواجه مشكلة نفسية كيف نمنع طلالقة من فتح الطرد قبل أن يصل إلى الهدف؟ وللتغلب على هذه المشكلة أرسلنا أحد الضباط إلى بئر سبع لشراء كتاب مشابه أعطاه لـ طلالقة قائلاً: «هذا هو كتاب الشيفرة يحق لك تفقده ومشاهدته وبعد أن شاهده أخذه منه وخرج من الغرفة وعاد وبيده الكتاب الملغوم وسلمه له لكن طلالقة لعب اللعبة» بكل برودة على الرغم من بريق عينيه عندما تساءل: ولكن كيف ستعرفون أن الكتاب وصل؟ وكانت الإجابة: ستأتينا الرياح بالنبأ.

وفهم طلالقة من ذلك أنه عندما يبدأ لطفي العكاوي بالإرسال حسب الشيفرة الجديدة سيعرف الإسرائيليون أنه نفذ المهمة وعندما حل الظلام خرج أحد رجال المخابرات الإسرائيلية المسؤولين عن العملية ومعه طلالقة وركب سيارة جيب ليوصله إلى أقرب نقطة على الحدود وهناك ودّعه واختفى طلالقة في الظلام، لكن كان هناك من يتبعه ويعرف أنه يأخذ طريقه إلى غزة.

وفي رحلة عودته إلى غزة كان الشك يملأ صدر طلالقة..

وراح يسأل نفسه: كيف يكون العكاوي وهو أقرب المساعدين إلى مصطفى حافظ عميلاً إسرائيلياً؟، وفكر في أن يذهب أولاً إلى العكاوي لتسليمه ما يحمل وبالفعل ذهب إلى منزله فوجده قد تركه إلى منزل جديد لا يعرف عنوانه واحتار ماذا يفعل؟ ثم حزم أمره وتوجه إلى منطقة الرمال في غزة حيث مقر مصطفى حافظ.

وحسب ما جاء في تقرير لجنة التحقيق المصرية التي تقصت وفاة مصطفى حافظ بأمر مباشر من الرئيس جمال عبد الناصر فإنه في 11 تموز/يوليو عام 1956 في ساعات المساء الأخيرة جلس مصطفى حافظ على كرسي في حديقة قيادته في غزة وكان قد عاد قبل يومين فقط من القاهرة، كان يتحدث مع أحد رجاله وإلى جانبه الرائد فتحي محمود وعمر الهريدي وفي نفس الوقت وصل إليهم طلالقة الذي سبق أن نفذ ست مهام مطلوبة منه في إسرائيل.

وقابله مصطفى حافظ وراح يروي له ما عرف عن العكاوي، وهو ما أزعج مصطفى حافظ الذي كان يدافع كثيراً عن العكاوي الذي اتهم أكثر من مرة بالاتجار في الحشيش، لكن هذه المرة يملك الدليل على إدانته بما هو أصعب من الحشيش، التخابر مع إسرائيل.

وقرر مصطفى حافظ أن يفتح الطرد ثم يغلقه من جديد ويرسله إلى العكاوي، أزال الغلاف دفعة واحدة عندئذ سقطت على الأرض قصاصة ورق انحنى لالتقاطها وفي هذه الثانية وقع الانفجار ودخل الرائد فتحي محمود مع جنود الحراسة ليجدوا ثلاثة أشخاص مصابين بجروح بالغة ونقلوا فوراً إلى مستشفى تل الزهرة في غزة.

وفي تمام الساعة الخامسة صباح اليوم التالي استشهد مصطفى حافظ متأثراً بجراحه، وبقي الرائد عمر الهريدي معاقاً بقية حياته، بينما فقد طلالقة بصره، واعتقل العكاوي لكن لم يعثروا في بيته على ما يدينه.

وبرغم مرور هذه السنين ما زال يصر الإسرائيليون على أنهم لم ينفذوا مثل هذه العملية أبداً، وبقيت أسرارها مكتومة هنا وهناك إلى أن كشفها الكاتب الإسرائيلي يوسف أرجمان مؤخراً في كتاب يحمل اسم «ثلاثون قضية استخبارية وأمنية في إسرائيل»، والذي لا نعرف هل ما ذكره حقيقة أم خيال.

بقي أن نعرف إن الإسرائيليين عندما احتلوا غزة بعد حرب حزيران/يونيو وجدوا صورة مصطفى حافظ معلقة في البيوت والمقاهي والمحلات التجارية وأنهم كان يخلعونها من أماكنها ويرمونها على الأرض ويدوسون عليها بالأقدام، وكان الفلسطينيون يجمعونها ويلفونها في أكياس كأنها كفن ويدفنونها تحت الأرض وهم يقرأون على روح صاحبها الفاتحة فهم لا يدفنون صورة وإنما يدفنون كائناً حياً.

# العربي بن مهيدي
# (1923 ـ 1957)

## ـ المولد والنشأة:

ولد العربي بن مهيدي في العام 1923 بدوار الكواهي في منطقة عين مليلة وهو الابن الثاني في ترتيب الأسرة التي تتكون من ثلاث بنات وولدين، دخل المدرسة الإبتدائية الفرنسية في مسقط رأسه، وبعد سنة دراسية واحدة انتقل إلى باتنة لمواصلة التعليم الإبتدائي. ولما حصل على الشهادة الإبتدائية عاد لأسرته التي انتقلت هي الأخرى إلى مدينة بسكرة وفيها تابع محمد العربي دراسته وقُبل في قسم الإعداد للالتحاق بمدرسة «قسنطينة».

في العام 1939 انضم إلى صفوف «الكشافة الإسلامية» فوج الرجاء في سكرة، وبعد بضعة أشهر أصبح قائد فريق الفتيان.

## ـ النشاط السياسي:

في العام 1942 انضم إلى صفوف «حزب الشعب» في مكان إقامته، حيث كان كثير الاهتمام بالشؤون السياسية والوطنية. وفي 8 أيار/ مايو 1945 كان بن مهيدي من بين المعتقلين ثم أفرج عنه

بعد ثلاثة أسابيع قضاها في الاستنطاق والتعذيب في مركز الشرطة.

في العام 1947 كان من بين الشباب الأوائل الذين التحقوا بصفوف «المنظمة الخاصة» حيث ما لبث أن أصبح من أبرز عناصر هذا التنظيم. وفي العام 1949 أصبح مسؤول الجناح العسكري في سطيف، وفي نفس الوقت نائباً لرئيس أركان التنظيم السري على مستوى الشرق الجزائري الذي كان يتولاه يومذاك محمد بوضياف، وفي العام 1950 ترقى إلى منصب مسؤول التنظيم بعد أن تم نقل محمد بوضياف إلى العاصمة.

بعد حادث آذار/مارس عام 1950 اختفى عن الأنظار. وبعد حل المنظمة عيّن كمسؤول الدائرة الحزبية في وهران إلى العام 1953. وعند تكوين اللجنة الثورية للوحدة والعمل في آذار/مارس عام 1954 أصبح من بين عناصرها البارزين، ثم عضواً فعالاً في جماعة الـ 22 التاريخية.

## ـ نشاطه أثناء الثورة:

لعب بن مهيدي دوراً كبيراً في التحضير للثورة المسلحة، وسعى إلى إقناع الجميع بالمشاركة فيها، وقال مقولته الشهيرة «إلقوا بالثورة إلى الشارع سيحتضنها الشعب»، وأصبح أول قائد للمنطقة الخامسة (وهران).

كان بن مهيدي من بين الذين عملوا بجد لانعقاد مؤتمر «الصومام» التاريخي في 20 تموز/يوليو عام 1956، وعُين بعدها عضواً بلجنة التنسيق والتنفيذ للثورة الجزائرية (القيادة العليا للثورة)،

قاد معركة الجزائر بداية سنة 1956 ونهاية 1957، إلى أن اعتقل نهاية شهر شباط/فبراير عام 1957، ومات تحت التعذيب ليلة الثالث إلى الرابع من آذار/مارس عام 1957، بعد أن أعطى درساً في البطولة والصبر لجلاديه.

# عبان رمضان
## (1920 ـ 1957)

تميزت حرب التحرير الجزائرية (1954 ـ 1962) برفضها الكلي لمبدأ القائد أو الزعيم. كان شعارها المقدس لا يوجد إلا زعيم واحد هو الشعب. ودفع كل من حاول الخروج عن هذا الإجماع الثوري ثمناً باهظاً وصل إلى حد القتل في بعض الأحيان أو العزل في أحيان أخرى. أول ضحية لهذا الإجماع كان مصالي الحاج أبو الحركة الوطنية الجزائرية الحديثة الذي لم يقبل أن تتجاوزه الأحداث وأن يخرج عليه شباب مجهولون ليؤسسوا «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» ثم «لجنة 22» لتنتهي إلى تأسيس تنظيم جديد صغير، متواضع العدد اسمه «جبهة التحرير الوطني». حاربه بعنف ولكنه خسر المعركة بشكل لم يكن متوقعاً وسقط كثير من الضحايا في سبيل الدفاع عن فكرة الزعيم أو رفضها. لنقل أنه منذ الأمير عبد القادر الجزائري لم تعرف الجزائر زعيماً أوحد، لقد شهدت إما زعماء محليين صغاراً أو لا شيء، أي تكتلات تكون فيها القيادة متموجة، مرنة ومتنقلة.

## ـ محاولات الزعامة الأولى:

تعتبر الكاتبة الأميركية جوان جليبي أن عدم وجود زعيم أعلى واحد، قد تفسره محاولات مصالي الحاج للسيطرة على الحركة الوطنية الجزائرية. وهي محاولات استاء منها بمرارة وقاومها الزعماء الجزائريون الآخرون، خشية أن زعيماً منفرداً قد يتخذ بدافع أسباب شخصية قرارات تسفر عن كارثة، كما تفسره ضرورة الاستمرار التي يصعب على رجل واحد أن يضمنها وسط أخطار حرب العصابات. وليس معنى هذا القول بأن أحد الزعماء السياسيين والعسكريين على الأقل لم تساوره نفسه بأن يصبح الزعيم الوحيد المعترف به. ومن المؤكد أن عدداً من العسكريين كان يريد سلطة مطلقة على مستوى صغير، وقد حصل بعضهم عليها لبعض الوقت، ولكن معارضة الزعماء الآخرين، والإخلاص لقضية وطنية وضع حداً لكل المحاولات الجدية لاغتصاب السلطة.

## ـ عبان رمضان في سطور:

من مواليد 20 حزيران/ يونيو عام 1920في تيزي وزو، وسط عائلة ميسورة الحال. واصل دراسته الثانوية بمدينة البليدة وحصل على البكالوريا عام 1941.

شغل وظيفة كاتب عام ببلدية شلغوم العيد، وأثناء الحرب العالمية الثانية جنّد في الجيش الفرنسي برتبة ضابط صف. انخرط في صفوف «حزب الشعب»، وشارك في مظاهرات 8 أيار/ مايو عام 1945، وأصبح عضواً في المنظمة الخاصة.

ألقي عليه القبض وحكم عليه بالسجن لمدة 6 سنوات، وسجن

بفرنسا ثم أطلق سراحه من سجن الحراش في حزيران/ يونيو عام 1955. التحق مباشرة بالثورة بعد اتصاله مع العقيد آعمر أو عمران وكلف بتنظيم شبكة المناضلين في العاصمة.

لعب دوراً أساسياً في إعداد وثائق مؤتمر «الصومام» وكان صاحب فكرة أولوية الداخل على الخارج وأولوية السياسي على العسكري.

أشرف على إصدار الأعداد الأولى من جريدة «المجاهد» في العاصمة، وصار عضوا في لجنة التنسيق والتنفيذ. التحق بتونس وأظهر معارضة لبعض العسكريين أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ واغتيل يوم 26 كانون الأول/ ديسمبر عام 1957 في المغرب ولا زالت ظروف اغتياله غامضة.

## ـ مسيرته النضالية وظروف اغتياله:

منذ تشرين الأول/ أكتوبر سنة 1956 حتى موته كان يهيمن عبان رمضان على أجهزة الثورة بقبضة من حديد وذلك نظراً لطاقته وحزمه الذي لا يعرف التردد. وهو بطبيعته ثوري على النسق اللينيني. ويؤمن بنظرية العمل الإرهابي في المدينة الكبيرة. وكان يقول إن دق ناقوس الإنذار في مدينة الجزائر يساوي مائتي قتيل في الجبال.

كان رجلاً شديد الذكاء، له موهبة رفيعة في التنظيم. وقد تنقل في كل مكان في الجزائر، رابطاً بين رجال العصابات، وعاملاً على تحسين الأساليب. اغتيل عبان رمضان خنقاً في شهر كانون الأول/

ديسمبر عام 1957 في مراكش على يد مخابرات عبد الحفيظ بوصوف وبتواطؤ واضح من الشركاء الباقين في القيادة الجماعية للجنة التنسيق والعمل: كريم بلقاسم ولخضر بن طوبال.

بعد الاغتيال قال بوصوف: لقد أنقذت الثورة الجزائرية من عدو شرس! التهمة الحقيقية كانت التفرد بالقيادة وتنصيب عبان نفسه قائداً ميدانياً وانفراده بالقرار!! بقية القادة لم يتمكن أيٌّ منهم من كسر هذه القاعدة/ العرف.

## ـ ظروف اغتيال عبان رمضان بلسان أحمد بن بيلا:

عاصفة من الجدل التاريخي والصراع السياسي هبت على الجزائر أخيراً، حرَّكتها شهادة للرئيس الأسبق أحمد بن بيلا تناول فيها تاريخ ثورة التحرير. وفرض اسم عبان رمضان نفسه من جديد على الرأي العام الذي راح يتابع تجديد اتهامه بالخيانة ودفاع الكثيرين من رموز وقادة الثورة عنه وعن تاريخه. وكانت القضية والموقف نفسه قد تفجرا قبل أكثر من عامين بصدور كتاب تضم دفتاه مذكرات الرئيس الأسبق علي كافي، لتثور أسئلة كثيرة حول مغزى تجديد الاتهامات لشخص عبان رمضان كواحد من رموز وقادة الثورة الذين لم يسعفهم القدر لكي يروا شمس الإستقلال. ولتفرض مسألة كتابة التاريخ نفسها على المؤرخين الذين يطالبهم الساسة بالانتباه إلى خطورة الخلط بين الرؤى الشخصية والمعلومات والوقائع المجردة. بما جعل الحديث عن تاريخ إستقلال بلد المليون ونصف المليون شهيد أكثر أهمية من أزمات ومشكلات الواقع في مطلع القرن الواحد والعشرين!!

كل الأطراف تكلمت، كل فريق تمسك بموقفه واتهاماته وشكوكه تجاه الفريق الآخر. وبقي اسم عبان رمضان عنواناً لخلاف حاد، يزعم أحد طرفيه أنه مهندس ثورة التحرير وقائدها المحنك، ويتهمه الثاني بالخيانة والعمل لحساب الاستعمار الفرنسي!! وهي الجريمة التي وصمه بها الرئيس الأسبق أحمد بن بيلا، لترتد إلى صدره باتهامات بالخيانة للثورة وسرقة أضوائها من جانب خصومه!! وكأنه أصبح مكتوباً على الجزائر أن تخرج من دوامة إلى أخرى منذ هبت كالعاصفة بحثاً عن الإستقلال.

أصل الحكاية يرجع إلى تراشق وقذف لا يتوقفان بين القادة والرموز الأحياء لثورة التحرير. لكن بعض المواقع تعرف اشتعالاً بين الحين والآخر وتخطف الأضواء من أهم أحداث الساعة، وآخرها كانت موقعة أحمد بن بيلا وعبان رمضان التي مازالت تفور بشهادات وشهادات مضادة بين فريقين يتمسك كل منهما بموقفه ورأيه ومعلوماته عن الآخر إلى الحد الذي جعل صوت من يطالبون بالرحمة للأجيال الجديدة من تشويه تاريخ بلادهم خافتاً باهتاً!!

**ـ الاتهام:**

عندما تحدث الرئيس الأسبق أحمد بن بيلا عن موقع بلاده على خريطة الزمن في القرن العشرين، توقف عند مؤتمر الصومام الشهير الذي شهد توحيد جميع فصائل المقاومة وحركات التحرير الجزائرية يوم 20 آب/ أغسطس من العام 1956 واستدعت ذاكرته اسم عبان رمضان ليرميه بأقصى وأبشع الاتهامات. كان مكلفاً من جانب الاستعمار الفرنسي بتكسير الثورة من الداخل ثم أضاف متهماً من

أشرفوا على المؤتمر بأنهم كسروا روح ثورة أول تشرين الثاني/ نوفمبر التي اندلعت عام 1954. ووجد بن بيلا إلى جانبه أحمد محساس الذي يؤيد رأيه ويدعمه بأسئلة ومعلومات حول وجود عبان رمضان في السجن وقت اندلاع الثورة ثم إفراج سلطات الإحتلال الفرنسي عنه في العام 1955، بل ذهب إلى اتهامه بأنه أرسل فريقاً لاغتياله في تونس لمجرد أنه طلب منه الاحتفاظ بسرية قرارات ووثائق مؤتمر «الصومام» حتى يتم عرضها على قادة ورموز الثورة الذين حاولوا إبعادهم بشعار أولوية الداخل على الخارج مع شعار أولوية السياسي على العسكري وكلاهما كان هدفه تفريغ الثورة من وقودها وقادتها على إعتبار أن معظم قادة ثورة أول تشرين الثاني/ نوفمبر 1954 كانوا في الخارج ويرفضون التفاوض مع استعمار تحصد آلة موته العشرات والمئات يومياً. وذهب في بعض الأحيان إلى قتل45 ألف شهيد في ليلة 8 أيار/مايو من العام 1945!

**ـ الضجة:**

كان الرئيس الأسبق علي كافي هو أول من فجر مفاجأة الاتهامات الحادة لعدد من رفاقه إبان ثورة التحرير. يوم أن أصدر كتابه الشهير «مذكرات الرئيس علي كافي» واقتصرت صفحاته على سرد أحداث الفترة من العام 1946 حتى العام 1962 كشاهد حي عليها. ولأن كتابة المذكرات تعتبر أمراً جديداً على الساحة السياسية فقد حفلت بضجة ونقاش واسعين، سرعان ما انقلبا إلى جدل وقضايا نظرت فيها المحاكم عندما لجأت أسرة عبان رمضان للقضاء رداً على اتهام كاتب المذكرات له بالخيانة. وأفردت الصحف

الجزائرية مساحات واسعة للقضية وطرفيها فضلاً عن الشهود المعاصرين لتاريخ المدعي والمتهم. وانتهت القضية إلى الحكم بحذف الجزء الذي تناول سيرة المجاهد الراحل عبان رمضان واتهامه بالخيانة!!

عندما ركّز الرئيس علي كافي على الرجل المثير للجدل ضمن قادة ثورة التحرير الجزائرية عبان رمضان قال عنه في مذكراته: «لم يكن ذا توجه يساري وليست لديه هواجس فكرية، كان هاجسه الأساسي هو بسط سلطته على الثورة وافتكاك زمامها من المقيمين في الخارج. وهذا بلورته قرارات مؤتمر «الصومام» الذي نزع أيضاً السلطة من القيادات وسلمها للساسة باعتباره كان يصنف نفسه بينهم». ويستطرد علي كافي قائلاً: لا أظن أن هناك من كان يشكك في عبان رمضان فيكفي أنه كان قيادياً في «حزب الشعب»، وكانت له حساباته. وبعد مؤتمر الصومام سمعنا من قادة الثورة وبينهم عميروش وكريم بلقاسم ولخضر بن طوبال تأكيدات عن علاقات بين عبان وفرنسا، واتهموه بفتح قنوات مع العدو دون علمهم وحسم صاحب المذكرات المسألة في سطور واضحة جاء فيها: «كانت هناك اتصالات سرية يقوم بها عبان مع العدو، ولم يصارح بها زملاءه في القيادة وعندما اكتشفوها بمجهوداتهم ووسائلهم الخاصة استدرجوه للذهاب معهم إلى المغرب بحجة مقابلة الملك محمد الخامس وهناك تمت محاكمته ونفذ فيه حكم الإعدام».

**ـ الانقسام:**

ورغم أن المذكرات كانت قد صدرت قبل ثلاثة أعوام، كما أن

الاتهامات كانت قد أوشكت أن تتحول إلى رماد، إلا أن الرئيس الأسبق أحمد بن بيلا عاد لكي ينفخ فيها ويجددها. وانقسمت الساحة السياسية بين قلة تؤيد بن بيلا وأكثرية تدافع عن تاريخ عبان رمضان. وبينهما وقف تيار عاقل يشدد على ضرورة التروي عند كتابة التاريخ والرحمة بالأجيال الجديدة حتى لا يتم تشويه الصورة العظيمة للثورة النبيلة لقادتها سواء رحلوا أو مازالوا على قيد الحياة. لكن الجديد في الإثارة حول القضية نفسها أن عدداً كبيراً من الرموز التاريخية تحدثوا ودافعوا عن عبان وكان واضحاً أنهم من الذين يخالفون الرئيس بن بيلا الرأي والموقف، بما يشير إلى أن الشهادات تتلون بلون الموقف من أصحابها أو رواة الأحداث.

قال الرئيس الأسبق أحمد بن بيلا في شهادته التاريخية التي فتحت ملفات كثيرة من التاريخ وأثارت ضجة غير مسبوقة في الجزائر: «لقد كان عبان يسعى إلى تكسير الثورة من الداخل وعمل على وضع حد لها من خلال اتصالات سرية مع العدو الفرنسي».

واعتبر بن بيلا مؤتمر «الصومام» الذي تولى عبان رمضان الإعداد له بأنه كان انحرافاً صريحاً عن مسار ثورة أول تشرين الثاني/نوفمبر التي توجت بتحرير الجزائر حصولها على إستقلالها. وأشار إلى أن الاغتيالات بين المجاهدين انتشرت عقب هذا المؤتمر!! وذهب إلى القول بأن الاستعمار الفرنسي أفرج عنه وأخرجه من السجن عام 1955 لينفذ هذه المهمة.

كان ضرورياً أن يتكلم شاهد حي على عملية تصفية عبان رمضان لذلك لفتت شهادة لخضر بن طوبال أحد المعروفين ضمن

مجموعة الباءات الثلاثة في تاريخ الثورة الجزائرية، والمجموعة كانت تضم إلى جانبه كريم بلقاسم وعبد الحفيظ بوصوف وهي التي تولت تنفيذ عملية إعدام الرجل المثير للجدل رغم مرور ما يقارب الخمسين عاماً على رحيله.

ماذا قال لخضر بن طوبال رداً علىٰ الرئيس الأسبق أحمد بن بيلا. الرجل لم ينف تصفية عبان رمضان بل ذهب إلى حد الدفاع عنها عندما قال: «عبان رمضان يستحق أكثر من القتل لأنه ديكتاتور ولم يكن يأخذ برأي أحد في القضايا التي لا يمكن لأحد أن يتصرف فيها منفرداً. كما أنه كان يحتقر الآخرين بأسلوب جارح». لكن لخضر بن طوبال نفى عن الرجل المثير للجدل تهمة الخيانة قائلاً: «لقد كان عبان رجلاً شجاعاً بمعنى الكلمة. لكن تصلبه برأيه واحتقاره للآخرين وسعيه لإبعاد القيادات التاريخية للثورة وإحلال جماعته مكانها، هي سبب الاتجاه نحو تصفيته». وبعد ذلك شرح صاحب الكلمة الفصل في القضية تفاصيل العملية فأكد: «أوهمنا عبان رمضان بأنه سيسافر إلى المغرب لمقابلة الملك الراحل محمد الخامس لمناقشة ملف المشكلات مع السلطات المغربية، وذهب برفقة كريم بلقاسم ومحمود الشريف من تونس إلى إيطاليا ثم إسبانيا التي كانت بوابة دخولهم إلى المغرب. وفي مدينة تطوان تم تنفيذ قرار إعدامه في أحد أيام شهر كانون الأول/ ديسمبر من العام 1957».

ثم يمضي ليبرئ نفسه من الضلوع في تنفيذ أو التفكير في التصفية فيقول: استهجنت الإعدام وقلت للذين نفذوه: لم نتفق

على هذا، بل اتفقنا على سجنه عند وصولكم إلى المغرب تمهيداً لمحاكمته أولاً، ثم قلت لهم هذه مصيبة وعلينا إعلان استشهاده. وهذا ما حدث بالفعل.

**ـ الاشتباك:**

ثم اشتبك لخضر بن طوبال في شهادته مع الرئيس الأسبق أحمد بن بيلا الذي وصفه بأنه حصل على حجم أكبر مما يستحقه في تاريخ ثورة تحرير الجزائر. وكشف عن أن بن بيلا تلقي دعوة لحضور مؤتمر «الصومام» ليكذِّب إدعاءه بأنه لم يعرف عنه شيئاً سوى بعد انعقاده. وقال أنه لم يحضر المؤتمر بحجة أن الطريق غير آمن!!

ثم أضاف: الهالة التي اكتسبها بن بيلا ترجع إلى القاهرة التي كان أول من أبلغ قيادتها بموعد اندلاع ثورة التحرير وعندما انفجرت اكتسب مصداقية جعلت إذاعة صوت العرب تتولى عملية تلميعه وتقديمه على أنه زعيم!! وأكد بن طوبال رؤيته ورأيه بموقف كشف النقاب عنه عندما قال: ذهبت لزيارة الثوار الخمسة في سجن فرنسا فوجدت محمد بوضياف يشكل كتلة من نفسه حسين آيت أحمد يشكل كتلة ثانية. بينما أحمد بن بيلا مع محمد خيضر ورابح بيطاط يشكلون كتلة ثالثة. وفاتحت كل كتلة في أمر محادثات «إيفيان» التي انتهت إلى إعلان الإستقلال. فما كان من بن بيلا إلا أن سألني عما إذا كنا قد شاورنا الرئيس جمال عبد الناصر في الأمر. وعندما أجبت بالنفي وقولي أنني أكبر سناً وتجربة من عبد الناصر.. جاءني موقفه بأنه غير مستعد لأن يكون معنا.

استمر الملف مفتوحاً. ومازال ساخناً تتدفق على صفحاته شهادات أخرى تلهث الصحافة وراءها وانشغل الرأي العام بتفاصيلها، حتى أصبحت هذه القضية التاريخية وبحثها هي قضية الساعة على الساحة. فتحدث أحمد محساس كواحد من رموز الثورة الأحياء ليقول: عبان رمضان لم ينضم إلى ثورة التحرير عن قناعة لكنه وافق على الأمر الواقع التي فرضته. ثم أضاف بأنه رصد الدور الذي لعبه الرجل في تصفية عدد من قادة الثورة ليؤيد اتهام الرئيسين الأسبقين علي كافي وأحمد بن بيلا فيما ذهبا إليه.

**ـ الدفاع:**

على الجانب الآخر تحدث حسين آيت أحمد أحد زعماء الثورة التاريخيين لينفي تهمة الخيانة عن عبان رمضان ويصفه بأنه: «ساهم في إرساء البعد السياسي للثورة وأنه قام بدور مهم وخطير لسد فراغ كان قائماً وقت إشرافه على تنظيم مؤتمر «الصومام». كما دافع بلعيد عبد السلام رئيس الحكومة الأسبق عن الرجل المثير للجدل واصفاً إياه بأنه: وطني غيور على بلاده تعرض للسجن منذ العام 1950 إلى العام 1955، وأشعل سجون الجزائر من داخلها بثورة قادها بنفسه وهو مسجوناً. وتم إطلاق سراحه بانتهاء مدة سجنه. لكن أزمته مع الرئيس بن بيلا أنه رفض تلقي الأوامر من المخابرات المصرية آنذاك. كما انضم ياسف سعدي إلى قائمة المدافعين عن الراحل منتقداً الرئيس الأسبق أحمد بن بيلا فوصفه بأنه كان غامضاً متقلب المزاج بينما وصف عبان رمضان بأنه رجل لم يتخذ الاحتياطات اللازمة لحماية نفسه. ووقف في خندق الدفاع عن عبان رمضان من قيادات

الثورة محند أعمر بلحاج مؤكداً على أن ظلماً فادحاً يتعرض له رجل لا يملك دفاعاً عن نفسه بعد رحيله. وعبّر عن تفهمه لدوافع هجوم الرئيس الأسبق على عبان رمضان الذي قال أنه فرض شعار أولوية الداخل على الخارج. أي أنه أعطى الحقوق للمجاهدين في الداخل على حساب المقيمين في عواصم خارجية كما كان يفعل بن بيلا الذي اختار الإقامة في القاهرة. كما أنه لم يطلق رصاصة ضد جندي فرنسي!! وخرجت السيدة فوزية بن يحيى كمجاهدة وأرملة محمد الصديق بن يحيى وزير الخارجية الأسبق عن صمتها لتوجه انتقادات لاذعة إلى الرئيس بن بيلا وتتهمه بأنه خائن للثورة وعميل للاستعمار الفرنسي!! ووصفت عبان رمضان بأنه كان رجل دولة من الطراز الرفيع لكنه دفع حياته ثمناً للصراع على السلطة قبل أن تفوز الجزائر بإستقلالها. وذكرت في بيان وزعته على الصحف أن زوجها كان يرى في عبان رمضان أنه رجل قومي يحب وطنه وأوضحت أن إحباطاً شديداً أصابها عندما سمعت ما قاله الرئيس الأسبق أحمد بن بيلا عن تاريخ ثورة التحرير.

**ـ الموضوعية:**

وقف الدكتور يوسف الخطيب كواحد من قيادات ثورة التحرير على خط الموضوعية مؤكداً ضرورة كتابة التاريخ دون صراخ أو صراع. وشدد على ضرورة التزام الحياد في سرد الأحداث واحترام ذكر الشهداء. ولأن القضية ساخنة ومهمة فقد دخلت على خطها السيدة خليدة تومي وزيرة الاتصال والثقافة باعتبارها متحدثاً رسمياً باسم الحكومة فقالت: إن الحكومة على يقين بأن ثورتنا

مقدسة وتمثل أسمنت الأمة. وأفضل وسيلة للدفاع عن ذاكرة الشهداء هي المشاركة في الجدل حول أدوار من فجروها. وتبذل أقصى ما بوسعها لنقل صورة طيبة عن الجزائر وأبنائها ثم أضافت: التاريخ المكتوب يصوغه المتخصصون ولا يجوز الطعن في مصداقيته وأن الجدل المثار مؤخراً لن يؤثر بأي شكل من الأشكال على مسار ثورة صنعت الرجال. لأن الرئيس الأسبق أحمد بن بيلا تحدث في أمور كثيرة مثيرة للجدل عندما اتجه إلى سرد ما يذكره عن ثورة التحرير. فقد استحقت الانتباه لها ومتابعتها بتركيز. لكن أسئلة كثيرة وحائرة تفرض نفسها في هامش شديد الأهمية للموضوع.

أولها وأهمها يتعلق بالتوقيت، ثم يأتي بعد ذلك لغز التشكيك المتبادل بين رموز الثورة الأحياء في وطنية بعضهم البعض. ولا يجوز أن نتجاهل خطورة الاستغراق في ماض انتهى إلى نتائج ناصعة البياض بغض النظر عن ضحاياه وصرف النظر عن واقع شديد الخطورة، باعتبار أن الجزائر تواجه لسنوات طويلة مرض الإرهاب الخبيث والذي يجب أن يتصدر أولوية التصدي له حتى اجتثاثه قائمة اهتمامات الساسة عن التقليب في صفحات يعتبر تأجيلها مسألة ضرورية. ومن هذه الاستفهامات دخل عدد كبير من المثقفين إلى ميدان البحث عن سر اختيار الجزائر وشخص الرئيس أحمد بن بيلا في هذه المرحلة لتقديم شهادة للتاريخ عبر القنوات الفضائية التي تبني شهرتها ومجدها بحاصل جمع القنابل والأزمات التي تفجرها داخل الوطن العربي وفق متوالية يبدو أنها محسوبة بدقة وعناية أصحاب المصلحة في زرع الفتنة والاضطراب فوق خريطة المنطقة العربية!!

# نسيب المتني
# (... ـ 1958)

بلغ الانقسام الداخلي في السنتين الأخيرتين من عهد الرئيس كميل شمعون ذروته، خصوصاً أنه منذ العام 1954، أخذت السياسة الخارجية اللبنانية تواجه تحديات على الصعيدين الدولي والإقليمي، خصوصاً في ظل حرص الغرب بعد فرض انسحاب القوات البريطانية من قناة السويس على إنشاء أحلاف عسكرية أبرزها حلف بغداد، فانضمت إليه تركيا والعراق وكانت واشنطن فيه كدولة مراقبة، ولم يأخذ شمعون موقفاً واضحاً منه.

بعد ذلك كان إعلان الرئيس الأميركي أيزنهاور عن مشروع يقضي بتولي الولايات المتحدة الأميركية تنسيق وسائل الدفاع الغربية في الشرق الأوسط والتعاون مع الدول العربية للدفاع عن المنطقة ضد الخط الأحمر فسارع عهد الرئيس شمعون للموافقة على مشروع أيزنهاور مما تسبب بانقسام لبناني حاد كما أنه كان يعني التخلي عن أهم مبادئ الميثاق الوطني الذي يشدد على أن لبنان لن يكون ممراً أو مقراً للاستعمار، فانتصبت المعارضة في وجه عهد الرئيس كميل شمعون، كما أن الموافقة الشمعونية على مشروع أيزنهاور كانت

تعني أن لبنان بلغ نقطة اللاعودة في القطيعة مع العرب وبالأخص مع مصر.

تسارعت وتيرة الأحداث إقليمياً، فاتهمت سوريا الحكومة اللبنانية بالتآمر عليها من خلال حلف بغداد، وحشدت تركيا قوات على حدود سوريا، وأرسلت مصر قوة عسكرية لمساندة دمشق، وكانت النتيجة إتحاد مصر وسوريا في الجمهورية العربية المتحدة التي أُعلن عن قيامها في شباط/فبراير من عام 1958، تباينت ردود الفعل اللبنانية إزاء الوحدة، فقد اتخذت المعارضة موقفاً مؤيداً لها بينما رأى فيها الرئيس شمعون ومؤيدوه خطراً قد يجرف لبنان معه في الإطار الوحدوي، وأعلن البطريرك الماروني بطرس المعوشي الذي كان معارضاً لشمعون ويطلق عليه بعض مؤيدي الرئيس اسم (محمد المعوشي) أعلن أنه تلقى رسالة من الرئيس عبد الناصر يؤكد له فيها أن إستقلال لبنان لن يُمس.

وصلت العلاقات بين الحكومة والمعارضة إلى طريق مسدود، وكانت صحف المعارضة المنبر الذي استخدمه خصوم شمعون لمهاجمته، وكان من أبرز الصحفيين المعارضين نسيب المتني وهو مسيحي ماروني كان يرأس تحرير صحيفة «التلغراف».

انفجر غضب المعارضة صباح الثامن من أيار/مايو عام 1958 عندما أطلق مجهول النار على المتني فأرداه، وكان آخر مقال كتبه يتضمن دعوة صريحة لشمعون للاستقالة، وأياً كانت الجهة التي دبرت عملية الاغتيال فقد نجحت في تفجير وضع كان ملتهباً لتدخل البلاد حالة حرب استمرت عدة أشهر.

# الملك فيصل الثاني
# (1935 ـ 1958)

## ـ فيصل الثاني في سطور:

فيصل الثاني بن غازي بن فيصل الأول بن حسين ملك الحجاز بن الشريف محمد بن عبد المعين بن عون بن محسن بن عبد الله بن الحسين بن عبد الله «أمير مكة». وفيصل نسبه الحسن المثنى بن الإمام الحسن المجتبى بن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولد فيصل الثاني في بغداد سنة 1935، ونشأ فيها ودرس العلوم على يد أساتذة خصوصيين، وأصبح ملكاً على العراق يوم 6 نيسان/ أبريل عام 1939 بعد وفاة أبيه الملك غازي الأول «تحت وصاية خاله عبد الإله».

وفي العام 1947 سافر إلى إنكلترا للدراسة حيث التحق بمدرسة «ساندويس» ثم التحق بكلية «هارو» في 7 آذار/ مارس 1949 والتي تخرج منها بتاريخ 23 / 10 / 1952. عاد بعدها إلى العراق، حيث تولى سلطاته الدستورية يوم 2 آذار/ مارس 1953، وبقي ملكاً على العراق حتى صباح يوم 14 تموز/ يوليو 1958 حيث انتهى العهد

الملكي وقامت الجمهورية. له مؤلف هو أساليب الدفاع عن النفس.

## ـ الأميرة فاضلة، خطيبة الملك فيصل الثاني:

في صباح 14 تموز/يوليو 1958، كانت الاستعدادات قائمة في مطار يشيل كوي في اسطنبول لاستقبال الملك فيصل الثاني. وكان رئيس الوزراء عدنان مندريس على رأس الوفد الذي كان ينتظر وصول الملك العراقي، إلا أن الجميع فوجئ بوقوع الانقلاب في العراق.

لم تعرف عائلة الأميرة فاضلة خطيبة الملك فيصل تفاصيل الأحداث المروعة للانقلاب إلا بعد أيام. حيث علموا بمصير الأمير عبد الإله ورئيس الوزراء نوري السعيد والملك فيصل الذي كان يبلغ الثالثة والعشرين من عمره، والذي أصيب بجروح بليغة، منع الانقلابيون الأطباء من إسعافه وتركوه ينزف حتى الموت. ثم بدأ المهرجان الدموي بسحل جثث عبد الإله ونوري السعيد في شوارع بغداد.

كانت علاقات العراق مع تركيا في أوج ازدهارها، وكانت قصة خطوبة الملك فيصل الثاني للأميرة فاضلة حفيدة آخر السلاطين العثمانيين وحيد الدين قد بدأت في صيف 1957.

تنتمي فاضلة التي ولدت في باريس عام 1940، إلى عائلة عريقة من جهة أمها الأميرة زهرة خانزاده، فهي كريمة عمر فاروق أفندي نجل السلطان العثماني عبد المجيد الثاني، وابنة الأميرة صبيحة،

كريمة آخر السلاطين العثمانيين وحيد الدين. وقد تزوجت الأميرة خانزاده من زوجها الأمير محمد علي إبراهيم في القاهرة عام 1940. وتوفيت في باريس عام 1977. وبذلك فإن الأميرة فاضلة، عثمانية من جهة أمها، ومصرية من جهة الأب.

اضطرت فاضلة إلى مغادرة تركيا مع عائلتها، وهي ابنة أربعة أشهر، عقب صدور قرار من الحكومة التركية، بنفي كل من ينتمي بصلة القرابة إلى عائلة السلطان العثماني. حيث عاشت متنقلة مع عائلتها في مدن عديدة مثل: نيس والقاهرة والإسكندرية قبل أن تعود مع عائلتها إلى تركيا عام 1954.

كانت فاضلة ذات جمال فاتن وأخاذ. وقد تعرفت على الملك فيصل في حزيران/يونيو عام 1954 في حفل أقيم في بغداد أثناء زيارة عائلتها للعاصمة العراقية. بعد سنة من هذا التعارف كان اللقاء الثاني بينهما في فرنسا، حيث قررا الزواج.

زار الملك فيصل اسطنبول في 1957 والتقى مع فاضلة في جولة بحرية على متن يخت الأميرة خانزاده. وتكررت اللقاءات وتوثقت عرى العلاقات العاطفية بينهما، فكان أن تم إعلان الخطوبة في 13 أيلول/سبتمبر عام 1957 بعد أن تقدم الملك رسمياً للزواج منها.

بعد يومين من عودة الملك إلى بغداد، أعلن رئيس ديوان التشريفات علي جودت نبأ الخطوبة. توجهت فاضلة بعد إعلان الخطوبة رسمياً إلى فرنسا ومنها إلى لندن لتلقي دروس في مدرسة «فينشينك سكول» استعداداً للزواج.

كان الملك يقوم أحياناً أثناء زيارته لإسطنبول، بزيارة خطيبته

فاضلة، ومنها كانا يقومان بزيارة بعض الدول الأوربية، وكانت الصحف والمجلات تنشر صوراً مختلفة للخطيبين السعيدين.

كما قامت الأميرة مع والديها بزيارة بغداد قبل الانقلاب بعدة أسابيع وعادت منها إلى مدرستها في لندن.

وقع خبر مقتل الملك على خطيبته فاضلة كالصاعقة، بعد استماعها إلى نشرة أخبار «الإذاعة البريطانية»، من جهاز الراديو الموضوع في صالة المدرسة. انهمرت الدموع من عينيها الخضراوين، وهرعت زميلاتها يواسينها تخفيفاً للحادث المرعب، التي ظلت تعاني منه فترة طويلة، عاشت خلاله ذهولاً تاماً.

## ـ الأميرة صبيحة تروي يومياتها في بغداد قبل اغتيال الملك:

الأميرة صبيحة ابنة السلطان وحيد الدين آخر السلاطين العثمانيين، وهي جدة الأميرة فاضلة من ناحية أمها. وقد سافرت إلى بغداد لإكمال استعدادات الزواج. زارت الأميرة صبيحة بغداد في نيسان/ ابريل 1958 مع ابنتها الأميرة خانزاده وصهرها الأمير محمد علي إبراهيم والأميرة فاضلة. سجلت خلال الزيارة التي استمرت أسبوعين انطباعاتها الشخصية عن الزيارة، واستمرت في كتابة يومياتها حتى بعد اغتيال أفراد العائلة المالكة.

في 20 نيسان/ أبريل انطلقت بنا الطائرة في منتصف الليل إلى بغداد، التي وصلناها في الرابعة والنصف صباحاً، حيث انطلقنا مع كل أفراد العائلة المالكة إلى قصر الزهور.

صعدنا بعد الوصول إلى الطابق العلوي في القصر للاستراحة. بعد الغداء قمت مع فاضلة وصهري بزيارة المدينة. توجهنا بعدها إلى قصر الملك، تناولنا طعام العشاء معاً، وقضينا خلاله وقتاً ممتعاً. تحدثت طويلاً مع عبد الإله وتحسين باشا، وعبّرت لهما بأن الزواج سوف يكون إيجابياً للملك من ناحية تنظيم حياته الشخصية والرسمية.

خلال الزيارة كان الملك منشغلاً في الحديث مع فاضلة، عدنا إلى الجناح المخصص لنا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

في 22 نيسان/ أبريل خرج الملك مع فاضلة للنزهة. تحدثت إلى تحسين باشا وقد أعددنا قائمة بأسماء السيدات اللواتي ستتم دعوتهن إلى حفلة الشاي التي ستقام في 30 نيسان/ أبريل.

في 14 تموز/ يوليو 1958 أبلغتني الأميرة وجدان في العاشرة صباحاً وهي في حالة متوترة جداً أن ثمة قلاقل واضطرابات قد حدثت في العراق مما سيؤدي إلى تأخر وصول الملك إلى اسطنبول. قمت بالاتصال فوراً بالسفير العراقي في أنقرة فأبلغني بالكارثة التي حدثت في بغداد. وبدأت الصحف تنشر أخباراً متناقضة عما يحدث في العراق. أرسلت برقيات إلى معارف خانزاده للسؤال عنها فعلمت أنها تركت مدينة كان.

كما بعثت ببرقية إلى ابنتي درشهور ـ ابنة السلطان عبد المجيد التي كانت تعيش في لندن ـ لمعرفة وضع فاضلة البائسة. فكان الجواب لا نعرف حتى الآن عن الأوضاع غير ما تردده الإذاعات وما تنشره الصحف.

في 15 تموز/يوليو 1958 وصلتني برقية من فاضلة تذكر فيها أنها في وضع جيد. أشارك آلام هذه المسكينة من كل قلبي. ذهبت لزيارة زوجة السفير لعلني ألتقط منها أنباءً جديدة، فظهر أنها لا تعرف أكثر مما أعرفه أنا.

في 16 تموز/يوليو 1958 استلمت برقية من خانزاده ـ والدة فاضلة ـ تبلغني فيها أنهم وصلوا لندن، وتطلب فيها اتصالي بالسفير لمعرفة المزيد من الأخبار. خابرت السفير فأبلغني أنه سيتحدث إلى خانزاده.

في 17 تموز/يوليو 1958 لم تتحدث خانزاده أمس إلى السفير من لندن. ستصل هذا المساء إلى اسطنبول وتتحدث إليه من هنا.

في 18 تموز/يوليو 1958 التقت خانزاده بالسفير وقد بعثت لها برسالة يوم أمس، طلبت فيها أن لا تفرط في التفاؤل. فلاشيء يدعو إلى التفاؤل حتى الآن حول مصير الملك. شخصياً بدأت أتقبل الواقع المرير المؤلم. قلبي يحترق حقاً من أجل الملك الشاب البريء الذي كان يتقد شباباً وفطنة. حينما أتذكر طيش عبد الإله أقول: يا إلهي، لماذا كان غافلاً عما كان يحاك لهم من تآمر إلى هذا الحد؟ أُصاب بالعجز والإحباط حقاً ولا أجد مبرراً واحداً للكارثة التي حدثت.

في هذه الليلة تحدث الملك حسين ملك الأردن في مؤتمر صحفي حول التطورات الدامية، التي حدثت في العراق. آه يا لحظ فاضلة التعس! لقد أصبحت مثل حمل وديع ضحية لهذه الحوادث

المفجعة. سحقاً لكل لهذه الغفلة التي أحدثت هذه المأساة. لا أجد في العائلة من هو أكثر تعاسة منك يا فاضلة!.

**ـ فاضلة بعد اغتيال الملك:**

بعد سنوات من اغتيال خطيبها الملك فيصل الثاني، تزوجت الأميرة فاضلة من الدكتور خيري أوركوبلو نجل رئيس وزراء تركيا الأسبق سعاد أوركوبلو، ورزقت منه بولدين: علي وسليم.

رغم ذلك تم طلاقهما في 10 /12/ 1965. حيث بدأت بالعمل عام 1980 في هيئة اليونسكو.

# عبد الإله بن علي
# (1913 ـ 1958)

هو الأمير عبد الإله بن الملك علي بن الملك حسين، ولد في الطائف من الديار الحجازية عام 1913 وتلقى علومه في كلية فيكتوريا في الإسكندرية بمصر، عاد بعدها إلى بغداد ملحقاً بالبلاط الملكي ووزارة الخارجية.

في نيسان/أبريل عام 1939 بعد مقتل الملك غازي والمناداة بولي عهده الأمير فيصل ملكاً على العراق، اختير الأمير عبد الإله وصياً على العرش.

وفي أثناء تأزم الوضع في منتصف العام 1940 وأوائل سنة 1941 ظهر تأييد للسياسة الانكليزية، فغادر الأمير عبد الإله بغداد سراً إلى الحبانية ومنها إلى البصرة، فحدثت أزمة خطيرة، مما اضطر حكومة الدفاع الوطني التي قامت في البلاد في ذلك اليوم، إلى دعوة مجلس الأمة إلى الإجتماع في العاشر من نيسان/أبريل 1941، وتعيين الشريف شرف وصياً على العرش.

عندئذ، قررت الحكومة البريطانية إعادة عبد الإله إلى منصب الوصاية مهما كلفها الأمر، فاصطدم الجيشان العراقي والبريطاني في

معارك دامية بدأت في الثاني من أيار/مايو عام 1941 وانتهت في الثلاثين منه، حيث أعيد الوصي المعزول واعتقل وفصل الكثير من الضباط والموظفين وغيرهم، كما أوقفت صدور الصحف، وبقي مسيطراً على شؤون الدولة حتى بعد تولي الملك فيصل الثاني سلطاته الدستورية وانتهاء مدة وصايته عام 1953.

وكان قد أصبح ولياً للعهد إضافة إلى منصب الوصاية في قرار مجلس الوزراء بتاريخ 11 / 11 / 1943م.

وفي أثناء مدة حكمه قام بزيارة بلدان كثيرة منها زيارته إلى الولايات المتحدة الأميركية في صيف العام 1945.

وفي أثناء عودته زار بريطانيا حيث مهّد إلى تعديل المعاهدة العراقية ـ البريطانية إلى معاهدة «بورت سموث» في كانون الثاني/ يناير. وبعد زيارته لإنكلترا زار فرنسا ومن ثم تركيا، ووصل بغداد يوم 20/ 9/ 1945. وفي 15 تموز/ يوليو 1947 سافر إلى لندن حيث بحث مع المسؤولين البريطانيين في تعديل المعاهدة العراقية ـ البريطانية والتي أدت إلى وثبة كانون الثاني/ يناير 1948 وبالتالي إلى إلغائها، وقد أخذ عبد الإله يمعن في التدخل في شؤون البلاد، حتى سعى إلى عقد حلف بغداد وتكوين الإتحاد العربي مع الأردن، فظهرت الاحتجاجات والانتقادات من الجهات الوطنية والأحزاب، ضد السياسة المتبعة في العراق، قصد بها أصحابها إنقاذ البلاد من خطر التدهور والاضمحلال، وتوزيع المسؤوليات بحسب الاختصاصات ومراعاة حرمة الدستور والقوانين المنبثقة منه، فأبت الأمور إلا أن تسير سيراً معاكساً وأن تفعل الأنانية فعلها في

ذلك حتى قضي عليها في 14 تموز/يوليو 1958 وقتل عبد الإله والملك فيصل بصورة وحشية جداً، وتم ربطهما بسيارة وجرهما في ساحات بغداد حتى قضيا، وألغيت بذلك الملكية في العراق، وأعلن نظام الحكم الجمهوري[1].

**ـ كتابات عن الأمير عبد الإله:**

مهما اختلف الناس في الحكم على بعض الأوضاع، ومهما تجنت الأغلبية أم الأقلية على زعيم أو زعماء مرحلة، ومهما غالى الساسة والمؤرخون في تقييم أي تاريخ، ومهما كثر القيل والقال في الضد، فإن الحقائق هي التي تفرض نفسها في نهاية المطاف، ذلك أن الإنسان قد يخطئ وقد يصيب.. لقد كانت الصفحة التاريخية للأمير عبد الإله الوصي على عرش العراق 1939 ـ 1952 ولما تزل متشحة بالسواد الداكن والكراهية عند الغالبية العظمى من الناس. ومن عادات أولئك الناس أنهم إن سمعوا شيئاً صدقوه وإن تربوا على أمر أشاعوه، وإن ظنوا سوءاً فيا ضياع الحقيقة وبئس الظنون.

نعم، بقيت صورة عبد الإله في المخيلة العراقية والعربية، صورة في غاية البشاعة ولا تفترق في حياتها عن مماتها.. وكانت النهاية التي انتظرت عبد الإله في شوارع بغداد مأساوية وتراجيدية ومؤلمة بكل المقاييس والاعتبارات. وها قد مضت عقود من السنين عليها، كي نسمع أصوات الذاكرة التاريخية من هنا أو هناك تنصف هذا الرجل الأمير الذي كان يمتلك حدساً واضحاً في قراءة نهايته

---

(1) «تاريخ الوزارات العراقية»، عبد الرزاق الحسني، ج 5 ص 246 ـ 270 وج 6 ص 10 من نفس المصدر.

البشعة، إذ كان قد صرح لأكثر من مرة: «نحن نقتل.. لا أريد ذرية.. نحن نقتل.. ولكن الهاشميون سيبقون»..

يقول الأستاذ عطا عبد الوهاب عن الأمير عبد الإله، والأستاذ عطا يتمتع بالاستقامة والنزاهة وصدق القول وأفق التفكير المتمدن الواسع، وكان قريباً جداً من الأمير عبد الإله بحكم وظيفته في الديوان الملكي.. قرأت كتيبه الصغير الذي عنونه بـ «الأمير عبد الإله صورة قلمية» فأعجبني فيه ما عرضه من حقائق عن رجل حكم العراق لسنوات طوال وقد أظهر باختصار ما له وما عليه، ولعمري إنها مهمة شاقة في كتابة المذكرات السياسية، علماً بأن الرجالات العراقيين من كبار الساسة والمثقفين قد تميزوا بالحجم الوفير من كتابة تلك المذكرات التي تعكس من دون شك ثقل الأحداث التاريخية وقوة أولئك الرجال المحدثين الذين أنجبهم العراق في القرن العشرين بشكل كبير مقارنة بغيرهم من الرجالات.

لقد كتب العدد الكبير من الساسة والمثقفين العراقيين في مذكراتهم وكتبهم عن الأمير عبد الإله، واختلفوا في شأنه وتقييمه اختلافاً كبيراً، وإذا كان رجال العهد الملكي القديم من اليمينيين قد كتبوا عنه من منطلقات عاطفية إلى حد كبير، وإذا كان معارضوه من الجمهوريين الراديكاليين والليبراليين والإشتراكيين قد سودوا صفحاته، إذ كانت ولم تزل صورته قائمة في الأذهان.. فإن بعضاً من المثقفين والمختصين العراقيين بدأ ينصفه ويعلن بكل شجاعة عن معلومات وأفكار وانطباعات كانت غائبة أو محتجبة عن الملأ.. لقد تذكرت وأنا أقرأ الصورة القلمية ما كتبه عن عبد الإله

العديد من الساسة والكتاب بدءاً بخليل كنه وعلي جودت وتوفيق السويدي وغيرهم وصولاً إلى فالح حنظل وعبد الهادي الخماسي وعطا عبد الوهاب.. لكن أول من جعلني أفكر بإعادة قراءة تاريخ عبد الإله هو شاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري عندما وجدته ينصفه في مذكراته «للتاريخ والحقيقة».

يتساءل المرء وخصوصاً أبناء الجيل الجديد الذين يتعطشون اليوم لقراءة تاريخهم القريب: هل كان عبد الإله يستحق فعلاً تلك النهاية المأساوية في صباح الرابع عشر من تموز/يوليو 1958 عندما سحلت جثته في شوارع بغداد ومثل بها وشنع بأوصالها وعلقت في أكثر من مكان بعد أن نالتها السكاكين وقطعتها إرباً إربا؟ وهل يستحق ذلك الإنسان أن تقطع أعضاؤه وترسل إبهامه لتعرض على الرئيس جمال عبد الناصر فيشمئز الرجل من منظرها؟ إن «الصورة القلمية» ومن قبلها «مذكرات واستشهادات أخرى» تكشف عن هوية زعيم من نوع خاص، كما وإنها تكشف أيضاً عن طبيعة إنسان لم يكن أبداً بالحجم الذي صور من البشاعة والإسفاف!

كان عبد الإله إنساناً كئيباً منذ نعومة أظافره وكان يحب العزلة والانفراد والانطواء.. وبدا أنه يحب ابن أخته الملك الطفل حباً جماً وتولى تربيته كأب حنون ليؤهله للملك.. معنى ذلك: أنه لم يكن طامعاً البتة في العرش وكان زاهداً في حكم العراق، إذ كان يفتخر بفيصل الثاني كابن له يسعى لتزويجه بعد أن ينتقل إلى قصره الجديد، ويأتيه ولي للعهد بعد ثلاث سنوات على الأكثر وهي خطة رسمها عبد الإله كي يغادر بعدها السلطة.

ويقول الأستاذ عبد الوهاب بعد أن راقب تصرفاته من بعيد، وأحصى عليه حركاته وسكناته: «كان الرجل قوي الملاحظة كثير السؤال، محباً للنقاش، فلم تكن ترضيه أجوبة المحيطين به من الكبار».

ويتابع وصفه في مكان آخر قائلاً: «الأمير رجل، ذكي ذكاء البداوة الخارق وقد صقلته مدنية الحياة العصرية، محب للخدمة، مرهف الحواس، خبير بأوزان الناس، مشجع للرأي المخالف النزيه وقد يأخذ به إذا اقتنع، ويحس أنه أدى الأمانة على أحسن وجه وأنه يشرف على نهاية الشوط.. وقد لمست فيه أن أشد ما يحز في قلبه ما يذكره بالنكران لخدماته العامة وما يبلغه من إشاعات كاذبة تلوكها الألسن عنه.. كان يذكر دوماً أيام طفولته بالحجاز ويؤمن بالقدر خيره وشره، وكان حساساً تترقرق الدموع في عينيه كلما ذكر أخته الملكة عالية».

أما ابن أخته الملك فيصل الثاني فيكتب عنه صاحب المذكرات قائلاً: «لم يكن الاختبار صعباً بالنسبة للملك، فقد كشفته شاباً متعلماً ذكياً، دمثاً، بسيطاً، سريع البديهة، متفتح الذهن، وممتلئاً بآمال الخدمة العامة من دون جعجعة مع هوايات متعددة كالرياضة بأنواعها والمطالعة في فروع معينة وغيرهما. إنه باختصار فتي يدخل القلب رأساً، وقد عجبت من نفسي كيف أن حقيقته البينة للعيان تخالف تماماً ما تلوكه الإشاعات عنه فترميه بالغباء وانعدام الشخصية والعجز».

وفي مكان آخر نسمع وصفاً إضافياً عن الملك: «فتى مهذب،

مثقف واسع الاطلاع، حاد الذكاء، سريع النكتة، عف اللسان، ملم بشؤون البلاد ولا سيما في حقل الإعمار رقيق الحاشية، مفتوح الذهن، ويرحب بالمناقشة من دون أن يشعر أحداً بكبر أو بتجبر أو سطوة أو تعال، ويفرض احترامه على الجميع ببساطة وتواضع ومن دون قصد أو جهد. كان يبدو لي على أمثل ما يمكن أن يكون عليه الملك الدستوري في العصر الحديث».

أما عائلته فكانت بسيطة في حياتها، أم عبد الإله الملكة نفيسة مكللة بالسواد دائماً وتسبح بذكر الله وأخته الأميرة عابدية مكللة أيضاً بالسواد دائماً ولا تعرف من شؤون الدنيا إلا العناية براحة الملك وراحة الآخرين كربة بيت مثالية رفيعة الخلق وبسيطة ومتواضعة. وقد قتل الجميع عند أعتاب قصر الرحاب صبيحة الرابع عشر من تموز/يوليو 1958.

## ـ مواقف وانطباعات عن الأمير عبد الإله:

ستبقى الأجيال القادمة في المستقبل تبحث عن بدائل مخفية لقناعات ترسخت في الأذهان على امتداد القرن العشرين عن رجال وساسة ربما شوهت سمعتهم ونيل من سلوكهم وتفكيرهم لأسباب سياسية لا تمت للحقيقة التاريخية بصلة. وأعرض في أدناه ثمانية من الانطباعات والمعلومات التي أقسم صاحب المذكرات واشهد الله بأنها صحيحة عن أناس لم يجد فيهم إلا طيب الشمائل.

1 ـ يجيب عبد الإله بعد أن سمع من يصفه أمامه بأنه لئيم:

لو كنت لئيماً ما وافقت على إعادة جماعة الكيلاني المشتركين في حوادث 1941 إلى الوزارة أمثال علي محمود

الشيخ علي ومحمد علي محمود ومحمد حسن سلمان وموسى الشابندر[1]. وينفي الأستاذ عطا في كتابه أية علاقة للأمير بمصرع الملك غازي عام 1939 بناء على استبطانه جملة من الخفايا التاريخية في حياة الرجل[2].

2 ـ يقول عبد الإله بعد أن أصغى للسويدي الذي تكلم عن كتاب ينصف هارون الرشيد: «الظاهر أن التاريخ مليء بالتحريف، ويا حبذا لو يصدر أيضاً كتاب ينصف السلطان عبد الحميد، فهو أيضاً مظلوم».. وهنا يبدو لنا أن عبد الإله قد سبق غيره في الدعوة لإنصاف السلطان عبد الحميد الثاني!

3 ـ سئل عبد الإله: مَن مِن رؤساء الديوان الملكي السابقين كان الأفضل؟ فقال بلا تردد: «رستم حيدر في عهد الملك فيصل الأول ورشيد عالي الكيلاني في بداية وصايتي».

ثم أضاف: «وأنا أقول هذا عن رشيد وبيني وبينه خلاف تاريخي»[3].

4 ـ سئل عبد الإله: إنه ربّى جلالة الملك مدة أربع عشرة سنة تربية حسنة إلى أن تولّى العرش، وأنه يساعده في تحمل مسؤولياته إلى أن يتم له الإلمام بجميع الأمور وبشكل واسع، وأنه ينوي أن يتقاعد ويغادر العراق. ولم يكن

(1) «مذكرات عطا عبد الوهاب»، ص 28 ـ 29.
(2) المصدر السابق، ص 86 ـ 87.
(3) المصدر نفسه، ص 58.

متحمساً لأي من الاقتراحات المعروفة ومنها: سفير العراق في واشنطن، رئيس منظمة للشباب يتولى إنشاءها مفتش للجيش كونه يحب الجيش ويعتز بأبرز رجاله، وقد ساهم في بنائه وتطويره وتسليحه وإعلاء شأنه».

5 ـ مغادرة عبد الإله حفل عشاء في قصر مضيفه في هونغ كونغ ومغادرته للقصر مع كامل أعضاء وفده ونومهم في فندق من الدرجة الثالثة في ثلاث غرف بسبب دعوة بعض اليهود إلى ذلك الحفل.. ووجدت الأمير يتجهم وجهه وتلتمع في عينيه الدموع، كأنه رمز منحوت لحزن خرافي ينبض بالتمرد. وقبل أن اسأله قال: «تصور أنا حفيد الحسين يأخذونني إلى هناك ولا يقولون لي أن اليهود من بين الحاضرين»[1].

6 ـ يصوم عبد الإله شهر رمضان، ويبدو أنه يختار له ولأسرته مكاناً غير بغداد كالحبانية شتاءً وسرسنك صيفاً.. يصوم عن إيمان بالله، فيقوم الليل، ويختم القرآن مرتين يهدي الختمة الأولى لوالده الملك علي والثانية لروح شقيقته الملكة عالية.. ويستطرد صاحب المذكرات قائلاً: «وتذكرت ما كنا نعتقده في شبابنا عندما كنا نسمع أن الوصي غادر إلى سرسنك ليصوم رمضان، فنرميه بكل ما حرم الله من إشاعات مغرضة كانت تروج في المقاهي رواجاً عجيباً»[2].

---

(1) المصدر نفسه، ص 78.
(2) المصدر نفسه، ص 82.

7 ـ كان عبد الإله يسوق سيارته المكشوفة في بغداد وبصحبته صاحب المذكرات من دون أي حرس ومروا بشارع الصالحية، فمرت سيارة أجرة بجانبهم تحمل عدداً من النسوة بعباءاتهن فعرفن الأمير فأخذن يزغردن في الأعالي والسيارة تتمهل. . فالتفت الأمير إليّ وقال: من أُصدق؟ أأُصدقهن أم أُصدق راديو «صوت العرب»؟

8 ـ كان عبد الإله يصرح مراراً: «إذا كانوا (العراقيون) لا يريدوننا هنا فنحن نذهب كما جئنا. نذهب بأنفسنا. لا نحمل شيئاً كما جئنا. وقد منَّ الله علينا هنا بالملك وسعة العيش. وخدمنا البلد حسب اجتهادنا وطاقتنا. إذا كانوا لا يريدوننا نذهب. وأنا أستطيع أن أعمل ولو كحمال لكي أعيش بكرامة».

ويشير بيده إلى أعلى الجدار حيث خطت الآية الكريمة: «قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء»[1].

(1) المصدر نفسه، ص 96.

# عبد الوهاب الشواف
# (... ـ 1959)

في سياق التطور الكمي لكتلة القادة (بغداد) وتضاعف خلاياها قبل نهاية العام 1956 إلى حدٍ شعر معه الضباط الأحرار بضرورة إيجاد شكل للعلاقة أكثر تنظيماً وتمركزاً، وبعد سلسلة من الاتصالات وعمليات جس النبض تشكّلت لجنة عليا ضمت الزعيم الركن محي الدين عبد الحميد والعقيد الركن ناجي طالب والعقيد الركن عبد الوهاب الأمين والعقيد الركن محسن حسين الحبيب والعقيد المتقاعد طاهر يحيى والمقدم المهندس رجب عبد المجيد والمقدم الركن عبد الكريم فرحان والمقدم وصفي طاهر والرئيس الأول الركن صبيح علي غالب والرئيس الأول الجوي المتقاعد محمد سبع... ومحتمل جداً أن تكون اللجنة قد عقدت إجتماعها الأول في شهر كانون الأول/ديسمبر من تلك السنة في بيت الرئيس أول الجوي المتقاعد محمد سبع في منطقة الأعظمية... وقبل أن ينفض الإجتماع وافقت اللجنة على اقتراح طرحه رجب عبد المجيد يتعلق باعتبار رفعت الحاج سري واحداً من أعضاء اللجنة، ولكنه لم يتمكن أبداً من المشاركة في أعمال اللجنة نظراً للرقابة المشددة المفروضة عليه. والحقيقة أنه كان يرفض حضور إجتماعاتها

لأسباب الزعامة الأنوية ولعدم انسجامه مع بعض الأعضاء.

كان هذا الإجتماع منصباً على كتلة القادة (بغداد) وليس اللجنة العليا التي أُضيف لها خمسة أعضاء أربعة منهم منذ مطلع عام 1957 والخامس في أيار/مايو عام 1958 وهو عبد الوهاب الشواف.

وفي إجتماع لقيادي كتلة القادة عقد بعد أسبوع ـ وقيل بعد أسبوعين ـ من الإجتماع الأول في كانون أول/ديسمبر عام 1956، تم انتخاب الزعيم الركن محي الدين عبد الحميد، رئيساً لها ورجب عبد المجيد سكرتيراً. وقد تمت هذه العملية ضمن سياقات الأنظمة العسكرية ومراعاتها للرتبة والأقدمية بالإضافة إلى ما تميز به من انضباطية عسكرية ورؤية سياسية واضحة ومن أقدمية في تأسيس حركة الضباط الأحرار حيث عمل على تجسيد صيرورة هذه الظاهرة منذ الحرب الفلسطينية الأولى ضمن قوام القادة الرئيسيون لها.

وقد تبنت اللجنة العليا جملة من القواعد التي تنظم عملها الداخلي، لكن لم نعثر على الكيفية التي كانت تتخذ فيها القرارات، هل بالأغلبية البسيطة أم بالثلثين أو بالإجماع؟ وما دور الرئيس هنا في عملية الترجيح عند تعادل التصويت ـ إن وجد مثل هذا ـ وما هو دوره بصورة عامة؟ وكيف كانت تدار النقاشات؟ ومدى المركزية فيها؟.

كانت طبيعة العمل السرية واشتراطهم عدم الكتابة تحت أي ظرف، عاملين مهمين في تعدد وتضارب آراء أعضاء اللجنة العليا للكتلة حول هذه الإستفهامات، كما يتضح من مذكراتهم ومقالاتهم، التي تناقضت في الشكل والمضمون، وكانت النظرة

الفردية والإسقاط الذاتوي على الوقائع بارز فيها. وقد ذكر مؤلف موسوعة «14 تموز»، أن مجموع إجتماعات اللجنة العليا التي ترأس عبد الكريم قاسم هذا التكتل في عدد من الإجتماعات لا تتجاوز العشرة، في حين يذكر رجب عبد المجيد: أن اللجنة العليا بدأت تجتمع منذ تشرين الثاني/نوفمبر عام 1956حتى يوم 10 تموز/يوليو 1958، أي أنها اجتمعت 20 شهراً تقريباً، وكان الإتفاق الذي تم في إجتماعات اللجنة العليا هو أن تجتمع قدر الإمكان في كل نهاية أسبوع، وإذا تعذر ذلك نجتمع بين أسبوع وأسبوع.

عقدت اللجنة العليا خلال هذه الفترة ما لا يقل عن أربعين إجتماعاً، أي أنها اجتمعت مرتين في الشهر وبكامل أعضائها. أما الإجتماع الذي عقد في مشتمل الكاظمية فهو الوحيد الذي حضره أربعة أعضاء وقد انكشفوا في اليوم التالي.

لقد اندمجت كتلة المنصورية، من خلال عبد الكريم قاسم إلى كتلة القادة (بغداد)، في مطلع العام 1957، لكنه لم يكشف عن مكونات وطبيعة كتلته وشخوص قادتها، بحكم سرية العمل وطبيعة التنظيم الخلوي التي كان سائداً فيها، وما فرضته ظروف عملهم. أما كيفية انضمامه وآليتها فقد كانت بمبادرة من اللجنة العليا التي خلال أحد إجتماعاتها. في أوائل العام 1957، استعرضت أسماء بعض الضباط الذين كان من المفيد ضمهم إلى الحركة وخاصةً آمري الوحدات والتشكيلات منهم، وكان من جملة الضباط الذين تردّدت أسماؤهم الزعيم الركن العميد عبد الكريم قاسم آمر لواء مشاة في المنصور... وبعض الضباط الآخرين.

ويمكن إرجاع أسباب دمج التنظيمين إلى ما يلي:

1 ـ توحيد العمل الجدي للإسراع بقيام الثورة ووضع الخطط اللازمة لذلك.

2 ـ زيادة قوة وحجم تنظيم الضباط الأحرار ومنع المنافسة بينهما.

3 ـ سرية العمل وعدم إفساح المجال لتسرب أنباء التنظيم إلى السلطة.

4 ـ الاستفادة من أكبر عدد من الوحدات العسكرية الفعالة التي يسيطر عليها الضباط الأحرار.

5 ـ الاستفادة القصوى من هالة الكارزما (الصمدانية) التي تحيط بشخصية قاسم ومن سمعته في أوساط ضباط الجيش.

وبعد اندماج الكتلتين الرئيسيتين في حركة الضباط الأحرار، وفي إحدى الإجتماعات التي جرت في نيسان/أبريل 1957 طرح على بساط البحث موضوع القيادة، فكان هناك اقتراحان بهذا الصدد أحدهما القيادة الجماعية والآخر القيادة الرئاسية، وبعد مناقشة الاقتراحين تمت الموافقة على تكوين قيادة رئاسية لتنظيم الحركة بصورة مركزية ورشحت اللجنة ثلاثة أسماء للقيادة هم: عبد الكريم قاسم والعقيد محي الدين عبد الحميد والعقيد الركن ناجي طالب، أجري التصويت فانتخب عبد الكريم قاسم بالاقتراع رئيساً للجنة. وانتخب العقيد الركن محي الدين عبد الحميد والعقيد الركن ناجي طالب نائبين للرئيس والعقيد المهندس رجب عبد المجيد سكرتيراً للجنة العليا.

ويصف سكرتير اللجنة، بعد أكثر من ربع قرن وبلغة مضخمة مناهضة لقاسم، دواعي وظروف الانتخاب بالشكل التالي: «في رأيي إن الرئاسة يجب أن تعطى إلى أكفءِ ضابط لأننا نقوم بعمل سياسي وليس عسكرياً والأخوان جميعاً على الإطلاق كانوا يؤمنون بهذا المبدأ وهو أن العمل ولو أنه سياسي فالقدم العسكري يجب أن يبقى متحكماً وقد كنت على خلاف ذلك، فالعمل السياسي شيء والعسكري شيء آخر، ثم أن هذا العمل يحتاج إلى كفاءة وليس هو قضية عسكرية فقط، فالأخ محي أصر على عقد إجتماع لاختيار رئيس جديد وفعلاً اجتمعنا في بستان في الجادرية يعود إلى عم زوجتي، ولم يحضر هذا الإجتماع عبد الكريم قاسم أو عبد السلام عارف.

كان الأخ محي أول من تحدث وقال: أتنازل عن هذا المركز، أي الرئاسة، إلى عبد الكريم قاسم لأنه أقدم مني. وفي الإجتماع قلت معترضاً: لا أوافق على هذا فالأمر يجب أن يتم بالاقتراع السري ليتم اختيار الشخص الكفء. وعند إجراء عملية الاقتراع السري، ظهر اسم عبد الكريم قاسم ولم أقبل به وحدي. وأصبح عبد الكريم رئيساً. رغم أنه لم يكن حاضراً في الإجتماع، فنكران الذات كان متجلياً لدينا، فالأخ محي أنكر ذاته والكل أيد ذلك، وأخذ عبد الكريم قاسم يترأس الإجتماعات.

كانت اللجنة التي صوتت في حينها، تضم كل من: محي الدين عبد الحميد، ناجي طالب، عبد الوهاب الأمين، محسن حسين

الحبيب، طاهر يحيى، رجب عبد المجيد، عبد الكريم فرحان، وصفي طاهر، صبيح علي غالب ومحمد سبع. وسميت اللجنة باسم اللجنة العليا للضباط الأحرار. لقد تم انتخاب قاسم بشبه إجماع كلي (9 ضد 1)، ليس لأنه أقدم ضابط في اللجنة وأعلاهم رتبة وحسب، بل يقف خلف ذلك، كما أرى، جملة من العوامل هي:

- ذو كفاءة عسكرية وشهادة عليا ـ ركن وخريج دورة القادة الاستراتجيين.
- كان يتولى وحدة عسكرية ضاربة.
- كان يتزعم واحدة من أكبر كتل الضباط الأحرار.
- كان الأكثر نضجاً بين القادة العسكريين وشخصية محورية.
- كان من المساهمين الأوائل في تاريخ الحركة.
- كان يحظى باحترام بين صفوف الضباط لسجله العسكري النظيف.
- لم تلوثه المغريات المادية ولم يستغل مناصبه وبعيداً عن الزهو والخيلاء.
- له ثقافة سياسية فكرية واسعة ومتابعة متواصلة لهما.
- كان أحد أنشط ضباط الحركة ومساهم عضوي فعال في نشاطاتها.
- لعبت خلفية شخصيته وسمعته في حرب فلسطين دوراً مهماً في انتخابه.

بعد انضمام قاسم وأداء القسم، أحضر معه عبد السلام عارف إلى الإجتماع التالي للجنة، دون إعلام مسبق لبقية أعضائها، خلافاً لقواعد العمل المتبعة التي كانت تنص على عدم ضم أي ضابط كمرشح في التنظيم دون أخذ آراء وموافقة كافة الأعضاء مسبقاً بعد تزكيته. هذه الفعلة، اعتماداً على أقوال أعضاء اللجنة العليا، قد أثارت الامتعاض لدى الكثير منهم، وأذكت نار الخلاف بينهم، لكنهم قبلوا بها مرغمين بعد أن أصبحوا أمام الأمر الواقع، والتمسوا العذر لأنفسهم بالتبرير الذي قدمه قاسم على أنه يزكي عارف وهو «معنا في التنظيم وهو يعرف كل شيء».

لم يعرف على وجه الدقة متى انتمى العقيد عبد الرحمن عارف، إذ أنه لم يحدد ذلك بدقة، فهل كان ذلك قبل انتماء قاسم وعبد السلام أم بعدهما؟

بعد مقتل الملك غازي ابن الملك فيصل الأول، تولى عبد الإله شقيق الملكة عالية، زوجة الملك القتيل غازي الأول، ولاية العهد (والذي أطلق عليه العراقيون اسم عدو الإله). وفي العام 1953 توج فيصل بن غازي ملكاً على العراق بعد بلوغه سن الـ 18 عاماً وحمل اسم فيصل الثاني، وأعلن عن استمرار وصاية عبد الإله إضافة لإعلانه ولياً للعهد، وخلال فترة الوصاية تلك مارس عبد الإله كل أنواع الظلم والاضطهاد والفساد وأخضع العراق لإرادة بريطانيا بشكل تام وأصبح نفط العراق ملكاً للشركة البريطانية والهولندية وبشكل مطلق، وازداد فقر العراق، وازداد الظلم على شعبه، وخلال تلك الفترة تعرضت الحركة الوطنية العراقية إلى

ضربات متلاحقة حيث غصت السجون بالوطنيين من شيوعيين وبعثيين وقوميين ورجال دينٍ وفكر، كما تَمّت تصفية الضباط الأحرار الذين حاولوا ولأكثر من مرة أن ينقلبوا على ذلك الحكم الفاسد العميل الذي نصبته بريطانيا ووفرت له الحماية، ومن كل ما صدرهُ العراق من نفط لم تنجز في العراق مشاريع تذكر سوى سدين على دجلة وثلاثة جسور ـ خلال أكثر من ثلاثين عاماً من تصدير النفط ـ. وبعد عدة محاولات فاشلة استطاع ضباط الجيش العراقي من تشكيل أول تنظيم عسكري سري أطلقوا عليه أسم «حركة الضباط الأحرار»، واتصل الضباط الأحرار بالأحزاب السياسية الوطنية التي كانت فاعلة على الساحة العراقية وقتذاك مثل «حزب البعث العربي الإشتراكي» و«الحزب الشيوعي العراقي» واتفقوا معها على تشكيل جبهة سياسية سميت «جبهة الإتحاد الوطني»، وفي العام 1958 زحفت وحدات الجيش العراقي بقيادة الضباط الأحرار وفي مقدمتهم الفريق نجيب الربيعي والزعيم رفعت الحاج سري والزعيم ناظم الطبقجلي والزعيم عبد الكريم قاسم والزعيم عبد الوهاب الشواف والزعيم عبد الرحمن عارف والعقيد عبد السلام عارف لتنهي النظام العميل لبريطانيا ولتعلن نظاماً جمهورياً.

إثر قيام الثورة أعلن عن تشكيل مجلس للسيادة يرأسه الفريق نجيب الربيعي واجتمعت قيادات الأحزاب السياسية الوطنية وشكّلت حكومة ائتلافية من البعثين والشيوعيين والوطنيين والمستقلين وعين الزعيم عبد الكريم قاسم رئيساً للوزراء وعبد السلام محمد عارف نائباً له.

ولكن وبعد ثلاثة أشهر فقط، قرر عبد الكريم قاسم أن يلغي دور مجلس السيادة الذي كان رئيسه يتمتع بصلاحيات رئيس الجمهورية، وحوله إلى مكتب استشاري وأخذ كل الصلاحيات التي استند إليها بتصفية كل الأحزاب السياسية، وقد ابتدأ بأكبر تلك الأحزاب وهما «حزب البعث العربي الإشتراكي» و«الحزب الشيوعي العراقي»، واتفق مع بعض الشيوعيين على تصفية البعثيين، فاضطر المهندس فؤاد الركابي وزير الإعمار وأمين سر القيادة القطرية لـ«حزب البعث العربي الإشتراكي» إلى إعلان استقالته وسحب معه البعثيين الذين كانوا أعضاء في الحكومة احتجاجاً على ما تعرض له أعضاء الحزب من مضايقات واعتقال، وسارع عبد الكريم قاسم في قبول الاستقالة، كما قام بإبعاد الضباط الأحرار ممن هم بنفس رتبته العسكرية إلى وحدات بعيدة عن بغداد وعين ضباطاً برتبٍ أدنى لم يكن لهم دور في حركة الضباط الأحرار، عينهم قادةً للوحدات المهمة في بغداد.

وكان الإتحاد السوفييتي في تلك الفترة ـ مرحلة الزعيم السوفييتي نيكيتا خروشوف ـ يحاول أن يجد له حلفاء في المنطقة التي تخضع للنفوذ البريطاني، فقدم خروشوف دعماً للشيوعيين في العراق ودعاهم للسيطرة على النظام فيه وبالتعاون مع الملا مصطفى البرزاني والذي كان يلجأ إلى الإتحاد السوفييتي في تلك الفترة، ولكن استعجال خروتشوف للسيطرة جعله يتهور في الطلب إلى الحزب الشيوعي العراقي باستضافة مؤتمر الشبيبة العالمي، وقد اعتبرها عبد الكريم قاسم فرصة ذهبية للتخلص من الحزبين الرئيسيين في العراق، فوافق على المؤتمر، ووافق على اختيار

الشيوعيين لمدينة الموصل مكاناً لانعقاده، وهو يعرف أن هذا المؤتمر قد سبقته فضائحه إلى كل الأقطار الإسلامية بأنه مؤتمر يحضره عشرات الألوف من الشابات والشباب المتحرر من كل دول العالم، وقد نشرت لمؤتمراتهم السابقة صوراً مثيرة، ويعرف عبد الكريم قاسم أن مدينة الموصل متمسكة بالقيم العربية والإسلامية أكثر من كل مدن العراق الأخرى ولأسباب معروفة منها التحديات الدينية بسبب تركز المسيحيين واليزيديين في تلك المنطقة، وبسبب قومي هو محاذاة الموصل لمنطقة تسكنها الأكثرية الكردية مثل أربيل ودهوك والتركمان الموجودين بكثرة في كركوك، إضافة لحرص أهالي الموصل على تقاليدهم العربية بسبب الأطماع التركية في مدينة الموصل منذ نهاية الحرب العالمية الأولى.

وكان عبد الكريم قاسم قد عيّن الزعيم عبد الوهاب الشواف آمراً لموقع الموصل، وعيّن الزعيم ناظم الطبقجلي آمراً لموقع كركوك.

وحينما أعلن عبد الكريم قاسم عن اختياره للموصل مكاناً لمؤتمر الشبيبة العالمي ومهرجان أنصار السلام، جنّ أهالي الموصل وشكلوا وفوداً إلى بغداد وضغطوا على آمر موقع الموصل الزعيم عبد الوهاب الشواف كي يتدخل لمنع ذلك، واتصل الشواف بعبد الكريم قاسم ورجاه بتغيير مكان المؤتمر إن لم يكن بإمكانه الاعتذار عن عقده في العراق، ولكن الزعيم عبد الكريم قاسم رفض الطلب وأمر الزعيم عبد الوهاب الشواف بتوفير كل متطلبات الراحة للضيوف وكل مقتضيات النجاح، وأمره أن يكون مسؤولاً عن

سلامة الشابات والشباب الضيوف، لكن رجال الدين وشيوخ العشائر اعتبروا أن ذلك تحدياً لمشاعر المسلمين وأن خروج شباب من مختلف الجنسيات وبشكل غير محتشم أو بتعري جزئي في شوارع المدينة هو اعتداء على حرمة المدينة واعتداء على الإسلام والمسلمين.

وللتاريخ فإن رجال الدين المسيحيين قد عارضوا ذلك أيضاً واعتبروا ذلك المؤتمر اعتداء على مشاعر المسيحيين لأنه سيسمح للألوف من الشيوعيين من كل أنحاء العالم لأن يستعرضوا فكرهم المضاد للأديان السماوية والذي يعتبر أن «الدين أفيون الشعوب»، (مقولة لينين).

ولكن الزعيم عبد الكريم ضرب كل الاعتراضات عرض الحائط، وبدأت ألوف الشيوعيين والشيوعيات تفد إلى بغداد في طريقها إلى الموصل، وخصصت رحلات قطار الموصل لنقل المؤتمرين، وسميت تلك الرحلات بـ «قطارات أنصار السلام»، وأخذ أهالي الموصل رجالاً ونساءً وأطفال بالخروج إلى منطقة محطة القطار ورمي القطارات القادمة بالحجارة طالبين منها العودة من حيث أتت، وحاول الزعيم عبد الوهاب الشواف أن يعتقل المواطنين واستطاع أن يسيطر على الوضع مع استمراره بالترجي إلى عبد الكريم قاسم أن يوقف تلك القطارات، ولم يكتفِ الزعيم عبد الكريم قاسم بذلك بل اعتبر الشواف غير كفوء في توفير الأمن - بناء على معلومات كاذبة من أنصار السلام - فوافق على قيام كتائب أنصار السلام الشيوعية بحمل أسلحتها والتوجه إلى الموصل لحماية

المؤتمر كما قام الشيوعيون في أربيل والسليمانية بتوجيه الآلاف من الأكراد لحمل السلاح والتوجه للموصل بحجة حماية أنصار السلام.

عند ذاك اتصل الزعيم عبد الوهاب الشواف برفيقه الزعيم عبد الكريم قاسم في يوم 7 آذار/مارس عام 1959 متوسلاً إليه أن يوقف المذابح التي ستندلع في الموصل إذا ما وصلت قطارات كتائب أنصار السلام المسلحة ووصل الأكراد المسلحون إليها، ولكن في آخر اتصال أقفل عبد الكريم قاسم الخط بوجه الشواف، مما دعا الشواف لليأس منه فاتصل برفيقه ناظم الطبقجلي ـ وهو الأقرب إليه مسافة ـ أن ينجده لبسط الأمن في الموصل ومنع الكارثة التي ستحصل، ووعده الزعيم ناظم الطبقجلي بذلك فاتصل الأخير بالزعيم عبد الكريم قاسم ليتوسط لديه وليبلغه بأنه سيكون في مساعدة الشواف، ولكن عبد الكريم أقفل الخط بوجه الطبقجلي أيضاً.

ولم يبق أمام الشواف إلا إعلان التمرد على أوامر عبد الكريم قاسم وذلك يوم 8 آذار/مارس 1959 ويعلن رفض استقبال الموصل لأنصار السلام وطالباً ممن وصل بالعودة، وأعلن ذلك في إذاعة لاسلكية لا تتعدى حدود بثها مركز مدينة الموصل، ولكن عبد الكريم قاسم اعتبرها انقلاباً عسكرياً، فشتم كل رفاقه من الضباط الأحرار، وتطورت الأمور بسرعة كبيرة، فأمر عبد الكريم قاسم الطائرات العسكرية بالتوجه من الحبانية ودك موقع آمرية الموصل وقتل الزعيم عبد الوهاب الشواف، وقامت بذلك فاستشهد الشواف يوم 9 آذار/مارس عام 1959 ووصل الألوف من عناصر

ميليشيا الحزب الشيوعي المسماة «المقاومة الشعبية» ومن الميليشيا الكردية وبدأوا بإقامة محاكم في شوارع الموصل والحكم على من يقبض عليه ويحكم ويقتل بنفس الساعة، وعرفت هذه المحاكم بـ «محاكم القصابين»، نسبة إلى مسؤولها عبد الرحمن جلميران وهو من عائلة القصاب، كما قامت هذه الميليشيات بالاعتداء على رجال الدين وعلى المساجد وقام أفرادها بسرقة بيوت أغنياء المدينة وسرقة محلاتها وحرق مكتبات ومدارس فيها.

ويسبب موقف الزعيم ناظم الطبقجلي المساند لموقف رفيقه الزعيم الشواف، توجهت ميليشيات مشابهة إلى كركوك لتقوم بعمليات إعدام فورية للزعماء الوطنيين من العرب والتركمان، وقد هاجمت المساجد ودور المواطنين وأقامت محاكم شوارع تدين وتحكم وتنفذ أحكام الإعدام الفورية، وسميت بـ «محاكم الرقاعين»، نسبة إلى مهنة مسؤولها حيث كان إسكافياً كردياً من كركوك.

وقتل في هذه الأحداث المئات من المواطنين من العرب والتركمان، وأمر عبد الكريم قاسم عدداً من الضباط الموالين له باعتقال رفاق دربه الزعماء ناظم الطبقجلي والزعيم رفعت الحاج سري وأحالهم إلى المحاكم العسكرية الخاصة وأطلق على المحكمة اسم «محكمة المهداوي» ونفذ فيهم أحكام الإعدام مع عشرات آخرين من الضباط العقداء والرواد والرتب العسكرية الأدنى.

ولكي ينفذ الصفحة الثانية من مخططه الرهيب في تصفية الحزب الشيوعي بعد تحميله مسؤولية أحداث الموصل وكركوك فقد

شكل محكمة عسكرية أخرى أسماها بـ «المجلس العرفي العسكري الأول» وحاكم قادة «الحزب الشيوعي العراقي» الذين كانوا قد هربوا خارج العراق ومعظمهم استقر في موسكو، وحكم عليهم أحكاماً غيابية بالإعدام والسجن.

وبذلك تخلص عبد الكريم قاسم من أهم حزبين سياسيين، كما تخلص من رفاقه ذوي الرتب العسكرية المساوية له ولم يبق في السلطة معه غير الفريق نجيب الربيعي والذي فضل التزام الصمت على المواجهة كي لا يعطي الفرصة لعبد الكريم قاسم.

# فرج الله الحلو
# (1906 ـ 1959)

يمتلك الظالمون القدرات الإقتصادية الهائلة، إضافة إلى أجهزة القمع، ويستخدمون أساليب الترغيب والترهيب، ضد المظلومين، بهدف الإبقاء على سيطرتهم، والتمتع بالعيش الرغيد.

وعندما يدرك المنتجون والكادحون أن بحوزتهم سلاحاً لا يُفَلُّ، هو سلاح التضامن، ويستخدمونه، فإنهم يزيحون عن رقابهم نير العبودية والاستغلال. وفي تاريخ البشرية الحديث والبعيد، ومن ضمنه تاريخنا، شواهد كثيرة تثبت ذلك.

رأى المتنورون العرب، في الأفكار الإشتراكية التي سادت أوروبا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أمراً منسجماً مع الأهداف التي ناضل في سبيلها الصعاليك والقرامطة والزنج والبابكيون ومكملاً لها ولغير ذلك مما ضمه تراثنا النضالي.

ولم يعد شبح الشيوعية يجول فوق أوروبا فقط، بل صار يحلق فوق بلادنا. وبإنتصار ثورة أكتوبر الإشتراكية العظمى، سنة 1917، ازداد توهج الأفكار الشيوعية تألقاً، فتأسست الأحزاب الشيوعية، في العديد من البلدان العربية.

تأسس الحزب الشيوعي في سورية ولبنان سنة 1924، وبدأت جذوره تضرب في أعماق أرض البلدين، ليصبح شجرة باسقة وارفة الظلال، كيف لا وقد غذاها ويغذيها المنتجون والوطنيون بعرقهم وبدمائهم.

## ـ فرج الله الحلو والحزب الشيوعي:

تعرف فرج الله الحلو على الحزب، وانتسب إليه عن طريق ناصر حدة وحنا النمر، اللذين كانا يدرسان في الكلية الإنجيلية بحمص، وكان ذلك سنة 1931.

أبصرت عيناه النور سنة 1906، في بلدة حصرائيل، من منطقة جبيل اللبنانية. وفي الثالثة من عمره هاجرت أمه وشقيقاه الأكبران إلى أميركا. فقد شقيقه الأكبر عمله في أميركا بعد الحرب العالمية الأولى (1914 ـ 1918)، فانقطعت عنه المساعدات التي كانت تأتيه، وصار معيلاً لشقيقته الكبرى، فاضطر إلى ترك مقاعد الدراسة والبحث عن عمل، فوجده مستخدماً في المساحة بمدينة بانياس السورية، لكنه طرد منه بسبب دفاعه عن العمال الزراعيين الذين كانوا يعملون 14 ساعة في اليوم لقاء بضعة قروش.

التحق بالكلية الإنجيلية، ليعلم ويتعلم فيها، في السنوات من 1929 إلى 1931، وهناك تعرف على المناضلين حدة والنمر.

أسس منظمة حزبية في بلدته، ثم تفرغ للعمل الحزبي، فكلفه الحزب سنة 1934 بالعمل في منظمة حلب، وظل يقودها حتى سنة 1935. كما شارك في تحرير «نضال الشعب» جريدة

الحزب السرية يومذاك. وأصبح في سنة 1935 عضواً في اللجنة المركزية.

تشكّلت في بداية سنة 1937 قيادة حزبية جديدة، ضمته والرفاق: نقولا شاوي، وأرتين مادويان، ورشاد عيسى، وأصبح خالد بكداش أميناً عاماً.

اضطر الحزب في سورية سنة 1959 إلى العمل، في ظروف شديدة السرية، وكلف فرج الله بقيادة عمل الحزب في سورية، والسعي لإنقاذه من الضربات المميتة، ولملمة جراح الحزب.

«أمسكنا بفرج الله الحلو!» عبارة نقلها مسؤولو المباحث إلى أعلى مستويات السلطة.

ألقي القبض عليه في أحد بيوت حي البختيار بدمشق الساعة الثامنة من مساء 25/ 6/ 1959، واقتاده رجال المباحث إلى أحد أوكارهم، في حي الروضة بالقرب من المستشفى الإيطالي.

وفي التاسعة مساءً بدأ الجلادون يذيقونه أبشع أنواع التعذيب، وبعد ثماني ساعات من التعذيب المتواصل، توقف قلبه الكبير عن الخفقان!

أدرك القتلة فداحة جريمتهم، فنقلوا الجثة إلى مزرعة سامي جمعة ـ أحد المسؤولين الأمنيين ـ بالقرب من بلدة دوما، ودفنوها فيها، ووضعوا حراسة عليها.

أثار اختفاء فرج ضجة وقلقاً بالغين في سورية ولبنان، وفي كثير من البلدان العربية والعالمية، إضافة إلى الحركة الشيوعية العالمية.

ووجهت شخصيات رفيعة المستوى مثل سوكارنو رئيس جمهورية إندونيسيا، وغيره، أسئلة حول مصير فرج الله، وكان الجواب: لا نعرف عنه شيئاً، ولم يدخل إلى سورية!

لاحظ حارس المزرعة بعد أيام سيارة تحمل لوحة لبنانية تطوف في المنطقة، فازداد الهلع في قلوب الجناة، وقرروا التخلص من الجثة. فذهب ستة منهم وهم في حالة سكر شديد، وقاموا بتقطيع الجثة، وحملوها إلى شقة وجيه الأنطاكي ـ أحد المحققين الصغار ـ في المزة، ووضعوا الأشلاء في البانيو، وصبوا فوقها أربع صفائح من الأسيد (حمض الكبريت)، وكانوا يحركونها بين الحين والآخر، وعندما تأكدوا أن العظم قد ذاب بالكامل أفرغوا البانيو من محتوياته!

في القرن العاشر للميلاد أمر المقتدر الخليفة العباسي، بضرب الحسين بن منصور الحلاج، ألف سوط، فإن مات قضي الأمر وإلا ضرب ألفاً أخرى، فإن لم يمت قطعت يداه ورجلاه، ثم يضرب عنقه. فنفذ به كل ذلك، ثم صلب، وفيما بعد أحرقت جثته، وذُرّي رمادها في يوم عاصف من فوق مئذنة أحد جوامع بغداد. وفي القرن العشرين ذوبت بالأسيد جثة فرج الله الحلو.

يجمع مؤيدو قتل الحلاج أن (زندقته) كانت سبب قتله!

كان الحلاج ولا يزال رمزاً للنضال، وستظل لعنة التاريخ تلاحق قاتليه.

تشكل في سنة 1961 مجلس عدلي، برئاسة العميد درويش الزوني، ونظر في قضية اغتيال فرج الله الحلو، وأقر القتلة بفعلتهم،

وبخاصة الأنطاكي، وقالوا: وجه لفرج سؤالان فقط، لم يوجه له غيرهما طوال مدة التعذيب:

ـ لأية شقق أو بيوت، هي المفاتيح التي تحملها؟

ـ ما رأيك برئيس البلاد؟

قُتِلَ فرج الله الحلو بتهمة لا يستطيع قتلته الإعلان عنها، في حين أعلنها فرج مراراً وتكراراً في كتاباته، وفي التقرير التنظيمي الذي قدمه للمؤتمر الثاني للحزب المنعقد أواخر 1943 وأوائل 1944، فهو يقول:

كان زمن جرّد فيه المستعمرون على الحزب هجوماً عاماً بكل ما عندهم من قوات القمع والإرهاب، بقصد تهديمه والقضاء عليه، وأرسلوا من أعضائه وقادته العشرات إلى السجون، ولكن ذلك لم يزد أعضاءه إلا صلابة في النضال، والتفافاً حول راية الحزب في الدفاع عن حقوق وطنهم وكرامة شعبهم.

ولا يستطيع الشيوعيون أن يؤدوا رسالتهم في خدمة شعبهم وتحرير وطنهم، إذا لم يعرفوا تاريخ نضال آبائهم وأجدادهم، وإذا لم يشعروا أنهم الورثة الشرعيون لهذا التراث الذي خلفه الآباء والأجداد.

وقوله: «نستطيع القول أيضاً، إنه ليس من هيئة وطنية أخرى مهما عظم شأن القائمين عليها، ثابرت في جميع الظروف والأحوال، على رفع علم النضال الوطني عالياً في وجه الطغاة والمستعمرين كما فعل حزبنا الشيوعي».

«إن الشرفات الاحتكارية الأميركية التي تريد السيطرة على مصادر الثروة الكبرى في البلاد العربية وعلى أسواقها، ترى أن أفضل السبل إلى ذلك هي دعم موقف الاستعمار الإنكليزي، ودلت السياسة التي أعلنها الرئيس ترومان، أن السياسة الأميركية ليست سوى جزء من مشاريع التوسع الأميركية في هذا الشرق العربي خاصة، والشرق الأدنى عامة».

وجاء في التقرير التنظيمي: «إن الحزب الشيوعي هو حزب تحرر وطني، ولذلك فلا يمكن أن يكون حزب جماعة أو طائفة أو فئة إجتماعية خاصة، بل هو حزب الشعب كله، حزب الأمة كلها، حزب كل وطني صادق مهما كان دينه ومهما كانت منزلته الإجتماعية».

وليس في الأمر مبالغة، إذا قيل: سيشاركنا إجلالنا وتقديرنا، كل اللاحقين من محبي الحرية، والمناضلون من أجل رفع السيف والحيف، عن رقاب المحرومين!

## ـ مؤامرة اغتيال فرج الله الحلو:

عقد الحزب الشيوعي اللبناني مؤتمره التاسع، وسط جو من الأزمة السياسية العامة التي تشمل البلاد، على خلفية الهجمة الأميركية ـ الإسرائيلية على المنطقة العربية والإسلامية، والأزمة العامة التي تمر بها المنطقة ككل، بنتيجة هذه الهجمة. وهذا من ضمن الأزمة الفكرية والسياسية والتنظيمية الشاملة، للحزب الشيوعي ذاته، على خلفية انهيار المنظومة السوفياتية السابقة، والأزمة العامة للحركة الشيوعية العالمية.

ونظراً للأهمية السياسية والفكرية والبنيوية، التي تضطلع بها الحركة الشيوعية، وبالأخص الحزب الشيوعي اللبناني، في حركة اليسار العربي خاصة، وحركة التحرير الوطني العربية عامة، فإن كل ما يجري ضمن إطار الحزب الشيوعي اللبناني ومحيطه، كان وسيكون له أهمية خاصة، بالنسبة له، وبالنسبة للوضع اللبناني والعربي بمجمله، وقد لا نغالي القول: وبالنسبة للوضع الدولي أيضاً.

ولعله ليس من الصدفة أن الشيوعيين اللبنانيين رفعوا، في صدر قاعة إجتماعات المؤتمر، لوحة كبيرة للقائد الشيوعي التاريخي الشهيد فرج الله الحلو.

فهذا القائد الذي عاش بتواضع وتفان مثاليين، ومات مرفوع الرأس تحت التعذيب، ووطئ بموته، كما بحياته الكفاحية، رؤوس قاتليه، كما ورؤوس الذين سلموه للموت هو مدرسة حقيقية لكل مثقف ولكل كادر قيادي، شريف، وقدوة حقيقية لكل مناضل وطني، من أي انتماء حزبي وعقائدي وسياسي كان. ولهذه الجهة، فهو جدير بكل تكريم، من قبل حزبه، كما من قبل الحركة الوطنية والبلاد بأسرها.

وأنها لمفخرة للبنان، أنه أعطى للوطن العربي، وللإنسانية جمعاء، شهداء للفكر والحرية والوطنية والعروبة، من أمثال أنطون سعادة وفرج الله الحلو وكمال جنبلاط. وإن أقل واجب الوفاء والتكريم تجاه مثل هذه القمم الإنسانية، هو تطويبهم، من قبل المجتمع اللبناني بمجمله، بما في ذلك الدولة اللبنانية، بوصفهم

شهداء للوطن، الوطن ـ الوطن، الوطن ـ الشعب، لا الوطن ـ الطائفة، والزعامة، والوصولية والمنفعة والدكتاتورية.

ولا شك أنه، لتكريم هؤلاء الكبار، ينبغي ليس فقط تكريمهم الاحتفالي الشكلي، وكيل المديح العائم لهم، بل إنصافهم تاريخياً، أي إجراء المحاكمة السياسية التاريخية الضرورية، لأسباب ودوافع قتلهم، وذلك ليس من زاوية قضائية شكلية، وليس لأجل الانتقام الشخصي أو السياسي، بل لإعطاء شهادتهم قيمتها التاريخية، بتسليط الضوء على قضيتهم، وكشف وتبيان أسباب ودوافع قتل كل منهم، لا سيما وأن القضية التي قدم كل منهم حياته لأجلها لا تزال ليس فقط حية وآنية، بل ولا تزال هي القضية الأهم بالنسبة للحركة الوطنية اللبنانية والعربية عامة، ولا تزال بالنسبة لاستشهاد فرج الله الحلو هي القضية الأولى أيضاً للحزب الشيوعي اللبناني والحركة الشيوعية العربية، ومن أهم قضايا الحركة الشيوعية العالمية.

وإننا نرى أن الحزب الشيوعي اللبناني، بالرغم من تكريمه المعنوي العام والعائم لفرج الله الحلو، فإنه لا يزال مقصراً جداً لهذه الناحية، التي بدونها يفقد التكريم العائم أي معنى حقيقي له، بل يصبح أشبه شيء بعملية إلهاء وتخدير، وتستير غير مقصود على الجريمة وأسبابها ودوافعها، وبالتالي دفاعاً غير مقصود عن قتلة فرج الله الحلو واليوضاسيين الذين سلموه إليهم.

وفي هذه الظروف الحرجة، لبنانياً وعربياً وعالمياً، يرتفع أكثر من أي وقت مضى التساؤل المشروع: إلام يتم التستير على مؤامرة

تصفية فرج الله الحلو، التي تضافرت على المشاركة فيها عدة أطراف، متعارضة في الظاهر، متعاونة في الجوهر؟!

ونحاول فيما يلي أن نلقي نظرة على بعض القرائن والتفاصيل الوقائعية البسيطة، التي في متناولنا، والمتعلقة بالجريمة، وعلى الخطوط العريضة للمسارات السياسية التي تقاطعت فيما بينها، لينتج عنها الحكم بالموت على هذا المناضل والقائد الشيوعي الحقيقي، من خلال التناقض الجذري بين تلك المسارات السياسية المكيافيلية، وبين القناعات المبدئية الأساسية التي عاش ومات لأجلها فرج الله الحلو:

1 ـ من المهم أولاً، ولا سيما بالنسبة للجيل الشاب من الشيوعيين، والمناضلين الوطنيين الآخرين، أن نعود بالذاكرة قليلاً إلى الوراء، لنذكر بأن فرج الله الحلو ـ اللبناني الأصل ـ اعتقل في سوريا في العام 1959، إبان الوحدة السورية ـ المصرية، على أيدي المخابرات التي كان يقف على رأسها في الإقليم الشمالي للجمهورية العربية المتحدة (أي سوريا) ضابط سوري يدعى عبد الحميد السراج. وفور اعتقاله، أخضع فرج الله الحلو للتعذيب الوحشي، ومات تحت التعذيب بعد بضع ساعات فقط. ولإخفاء معالم الجريمة، تم في البدء دفن الجثة سراً، ووضعت المقبرة تحت الحراسة. ولكن فيما بعد، وبعد أن شك حرس المقبرة بسيارة تحوم بشكل مشبوه في المكان، وخوفاً من سرقة الجثة وانفضاح الجريمة، تم نبش الجثة من جديد وجرى تذويبها بالأسيد. وهذه الرواية تم نشرها في

جريدة «الأخبار» التابعة لـ«الحزب الشيوعي»، وذلك بعد انهيار الوحدة السورية ـ المصرية.

وهناك أربعة جوانب ينبغي تناولها، تتعلق بعملية قتل فرج الله الحلو:

**أولاً** ـ الجريمة بحد ذاتها، والتي تنقسم إلى قسمين:

أ ـ عملية القتل.

ب ـ عملية إرسال فرج الله الحلو إلى سوريا، وبالتالي تسليمه عملياً إلى أيدي القتلة.

**ثانياً** ـ مسؤولية النظام الناصري وأجهزته عن الجريمة.

**ثالثاً** ـ مسؤولية القيادة البكداشية عن تسليم فرج الله الحلو.

**رابعاً** ـ مسؤولية القيادة السوفياتية عن قرار إزاحة فرج الله الحلو شخصياً وسياسياً.

ونتناول فيما يلي الجانب الأول، أي الجانب الفيزيائي للجريمة، أو جانبها الفني، إذا صح التعبير.

### ـ من قتل فرج الله الحلو؟

للإجابة على هذا السؤال هناك جواب أولي واضح وهو: أن الذي نفذ عملية القتل هو أجهزة النظام الحاكم، الذي فرض على الجمهورية العربية المتحدة. وقد قتل كثيرون غيره أيضاً حينذاك تحت التعذيب. كما اعتقل، واضطهد، وعذب، وشرد، عشرات الآلاف، من الشيوعيين، كما من مختلف الاتجاهات الحزبية الأخرى، في سوريا، وكذلك في مصر.

فهل تم قتل فرج الله الحلو عن طريق الخطأ، كضربة حظ سيئ لم يكن يريدها القتلة أنفسهم؟

أو هل أن قاتليه الصغار ارتكبوا جريمتهم، بقصد أو بدون قصد، دون أن يعرفوا من هو، وبغير علم المسؤولين الكبار، أي المسؤولين السياسيين؟

إن الوقائع التي نشرتها جريدة «الأخبار» التابعة للحزب، بعد انهيار الوحدة، تشير إلى أن عناصر المخابرات الذين اعتقلوه في البيت الذي توجه إليه في دمشق، استقبلوه مرحبين: «أهلاً أبو فياض!» ـ وهذا كان لقبه الحزبي حينذاك ـ. أي إن الذين اعتقلوه، وطبعاً المسؤولين المباشرين الذين أرسلوهم لاعتقاله، كانوا يعرفون من هو الضحية، قبل، أو على الأقل من لحظة اعتقاله بالذات.

وحتى لو افترضنا جدلاً أن اعتقاله تم بالصدفة، أو بنتيجة وشاية ما، مفاجئة، فنظراً لكونه صيداً ثميناً، فمن المستبعد منطقياً أن لا يكون العناصر الذين اعتقلوه والمسؤولون المباشرون عنهم، قد قاموا فوراً، بإبلاغ المراجع الأعلى منهم، أي المسؤولين الكبار في الجمهورية العربية المتحدة، أو على الأقل في الإقليم الشمالي (أي سوريا)، عن نجاحهم الكبير في اعتقال فرج الله الحلو. من هنا الاستنتاج أنه، حتى يستقبله معتقلوه بالترحاب «أهلاً أبو فياض!»، فهذا يدل على أن اعتقاله كان محضراً سلفاً، ومن ثم أن قتله السريع كان أيضاً مقرراً سلفاً، وإن العناصر التي نفذت الاعتقال، ثم نفذت حكم الإعدام، لم تفعل سوى تنفيذ الأوامر

الصادرة من فوق قبل الاعتقال أو بعده فوراً. وفي حينه كان عبد الحميد السراج هو المسؤول الأول عن الأمن وأجهزة المخابرات في الإقليم الشمالي، وهو كان من أقرب المقربين من الزعيم الراحل جمال عبد الناصر. وبالرغم من هذه القرائن، فإن سلطات الجمهورية العربية المتحدة حينذاك لم تتورع عن نفي اعتقال فرج الله الحلو. وأكد هذا النفي الزعيم عبد الناصر شخصياً، حينما سأله عن الموضوع الصحافي الهندي المشهور كارانجيا، خلال زيارة عبد الناصر للهند في العام 1960، حسبما نشرته أيضاً جريدة «الأخبار».

بالاستناد إلى ما تقدم، يمكن إعادة تركيب صورة الجريمة كما يلي: فرج الله الحلو يذهب إلى كمين معد سلفاً. عناصر المخابرات الذين اعتقلوه كانوا يعرفون مسبقاً من هو القادم. يعتقل فرج الله. يُؤخذ إلى أقبية المخابرات، ويُقتل فوراً تحت التعذيب. يدفن سراً. ثم تنبش الجثة ويتم تذويبها بالأسيد، بقصد إخفاء الجريمة تبعاً للقاعدة البوليسية المعروفة «توجد جثة... توجد جريمة، لا توجد جثة... لا توجد جريمة». ينكر المسؤولون، بمن فيهم الرئيس عبد الناصر ذاته اعتقال فرج الله الحلو وبالتالي ينكرون قتله.

إن هذه القرائن تعني منطقياً تأكيداً لأمرين:

1 ـ نية القتل العمد لفرج الله الحلو، بشكل تآمري سري، يتيح التنصل من الجريمة.

2 ـ إن عبد الناصر شخصياً، إما أنه كان عالماً بالجريمة قبل وقوعها، أو أنه لم يكن في البدء عالماً بها، ولكنه دخل

في اللعبة بعد وقوع الجريمة. وإما أنه قد وُرّط هو أيضاً في الجريمة، سواء علم بها فور الاعتقال، أو فور القتل، أم لم يعلم. وهذا الموضوع سنبحثه لاحقاً. ومن سلمه؟

ونأتي إلى الجانب الآخر من الجريمة وهو: كيف وصل فرج الله الحلو إلى سوريا، وكيف وقع في قبضة المخابرات والقتلة؟

إن الإجابة عن هذا السؤال يقع بالدرجة الأولى على «الحزب الشيوعي»، وربما كان هذا أهم وأخطر ما يجب على الحزب كشفه، وقد آن الأوان لذلك منذ وقت ليس بالقصير، لأنه يتعلق ليس بإنصاف فرج الله الحلو فحسب، بل يتعلق بمدى جدية الحزب في التعامل مع أخطائه التاريخية، وبالتالي في تحديد هويته الأساسية ذاتها.

ويقول أحد مفكري الحزب الذي عايش تلك الفترة وهو الكاتب والمفكر اللبناني جورج حداد: «نحن لا شك لا ندعي أننا نمتلك جواباً متكاملاً على هذا السؤال الشائك. ولكننا نجد من واجبنا طرح ما لدينا، مهما كان بسيطاً، كمحاولة لوضع حد من التهرب، العبثي والمشين، من جلاء هذه النقطة السوداء في تاريخ الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان، وتاريخ الحركة الشيوعية العربية والعالمية بأسرها.

قبل اعتقاله مباشرة، في أوج حملة الاعتقالات ضد الشيوعيين في سوريا، كان فرج الله الحلو موجوداً في لبنان.

وشخصياً يمكن أن أؤكد على ذلك بالواقعة التالية: كنت حينذاك أعمل محرراً للشؤون النقابية والمعيشية في جريدة النداء،

التابعة للحزب. وفي تاريخ لا أذكره بالضبط في العام 1959، جرت محاولة من قبل مخابرات السراج، لاغتيال المحامي الشيوعي فاروق معصراني، بتفجير سيارته، في مدينة طرابلس. وقد استدعاني الرفيق فرج الله الحلو، في مكاتب «النداء»، وطلب مني الذهاب إلى طرابلس لتغطية الحادث صحفياً للجريدة. وفي هذه الأثناء، وصل إلى مكاتب الجريدة الرفيق كريم مروة. فطلب منه الرفيق فرج الله أن يذهب هو لتغطية الخبر بدلاً مني. ولا شك أن الرفيق كريم يتذكر هذه الحادثة. وقد جرت حينذاك أيضاً محاولة اغتيال القائد الشيوعي التاريخي المرحوم أرتين مادويان. وفي هذه الأجواء المضطربة كان الحزب الشيوعي اللبناني ـ السوري، الموحد حينذاك، يسحب أعضاءه ومناضليه، حتى أبسطهم، من سوريا إلى لبنان، ويخبئهم ويحميهم. وبعد أيام قليلة من مقابلتنا مع الرفيق فرج الله في مكاتب جريدة «النداء»، فوجئنا بنبأ اعتقاله في سوريا، الذي وقع على الحزب كله وقوع الصاعقة.

ولإعطاء فكرة عن الأجواء التي كانت سائدة حينذاك، وعن مشبوهية وفظاعة إرسال فرج الله الحلو إلى سوريا، أذكر أيضاً أن الحزب كلفني بتقديم المساعدة لعدد من الرفاق السوريين، الفارين من الملاحقة على أيدي مخابرات السراج. وقمت بتوصيل العشرات منهم لتخبئتهم في بيوت الشيوعيين العرب والأرمن وأصدقائهم في محلة الأشرفية ببيروت. وللمقارنة وحسب، أذكر أنه من بين الذين خبأتهم طالب جامعة مسكين، يدعى الياس ش. وكان شاباً أنيقاً، ذا جسم رياضي ويظهر عليه أنه كان ابن نعمة. ولما كان الحزب غير قادر على الإنفاق على جميع الفارين، كنا نحاول أن ندبر عملاً

لمن يسمح وضعه الأمني بذلك. وقد دبرنا للرفيق الياس عملاً مع معلم بناء. وبعد أيام أخذ الياس يشكو من سوء حالته، وإنه غير معتاد على العمل، وإن يديه تؤلمانه الخ. وفجأة اختفى الياس، ليطلع علينا صوته بعد أيام من إذاعة السراج، وهو يتهجم على الحزب الشيوعي.

خلاصة القول إن الحزب كان في حالة انسحاب شاملة أمام هجوم شرس. فكيف يجوز المغامرة بمصير قائد تاريخي معروف، وركن أساسي من أركان الحزب، مثل الرفيق فرج الله الحلو، حينما كان الحزب يسحب ويخبئ ويقدم الحماية حتى لعناصر لا بالعير ولا بالنفير مثل ذلك الطالب المسكين، الذي لم يطق العمل الجسدي بضعة أيام، والذي لا أدري لماذا كان قد عمل شيوعياً؟

كان هذا السؤال يقلقني جداً. ولم أجد له حينذاك جواباً.

وفي أيلول 1959، أرسلني الحزب إلى بلغاريا، للدراسة في المدرسة الحزبية فيها. وكان الحزب الشيوعي البلغاري قد عقد قبل ذلك بفترة وجيزة جداً مؤتمره الثامن. وكان الرفيق خالد بكداش قد حضر المؤتمر، والتقى خلال وجوده هناك مع الطلبة السوريين في المدرسة الحزبية. وكان مسؤولاً عنهم رفيق يدعى م. غ.، وبطبيعة الحال إن موضوع اعتقال فرج الله الحلو كان مطروحاً بشدة. وأذكر أن الرفيق م.غ. كرر أمامنا بالحرف ما قاله لهم الرفيق خالد بكداش: «إذا خلص الرفيق فرج الله من أيدي عبد الناصر، ما رح يخلص من إيدنا». وكان تفسيرنا لهذا القول هو: إما أن فرج الله الحلو ذهب إلى سوريا من رأسه، والقيادة ستحاسبه على هذا

التفرد. وإما أن فرج الله سبق وارتكب أخطاء جسيمة ستحاسبه عليها القيادة «إذا خلص من إيد عبد الناصر». وهذا القول بحد ذاته يتضمن، من جهة، تبرؤاً واضحاً من إرسال فرج الله الحلو إلى سوريا، ولكنه، من جهة ثانية، يشير ضمناً بأن القائل كان يعرف بأن فرج الله الحلو كان معرضاً للموت، أو إنه قد مات فعلاً، وهو ما كانت تخفيه القيادة.

فهل ذهب فرج الله الحلو إلى سوريا من رأسه، بدون علم الأمين العام، وبدون قرار قيادي؟

إن الحزب الشيوعي يتستر حتى الآن على هذه النقطة، تهرباً من الجواب على الأسئلة اللاحقة: مَن؟ وبتأثير مَن؟ ولماذا، أُرسل فرج الله الحلو إلى الاعتقال، فالموت، في سوريا؟

وأحاول فيما يلي، جلاء ما يمكن جلاؤه حول هذه النقطة:

طبقاً للممارسة القيادية المألوفة في تلك الأوقات، فإن فرج الله الحلو لم يكن بالإمكان أن يذهب إلى سوريا بدون موافقة الأمين العام، وبدون موافقة الهيئة القيادية المعنية بالساحة السورية.

ولا يمكن لأي عاقل أن يصدق أن فرج الله ذهب إلى سوريا في تلك الفترة العصيبة من رأسه، وبدون أن يبلغ أحداً. فقد كان قائداً مثقفاً، ناضجاً، مجرباً ومحنكاً، بعيداً كل البعد عن أي تصرف يتصف بالفردية ورد الفعل غير المحسوب. ولذلك يُستبعد تماماً أن يكون قد ذهب إلى سوريا من تلقاء نفسه. وحتى ولو كان حينذاك هو المسؤول عن الساحة السورية، وقرر ذاتياً الذهاب إليها لمتابعة الوضع ميدانياً على الأرض، فهذا القرار، المتعلق بشخص مثله،

ينبغي، أولاً، أن يبحث مع الأمين العام، وأن ينال موافقته، وكان حينذاك الرفيق المرحوم خالد بكداش، الذي لم تكن تسقط شعرة من رأس إنسان حزبي في الساحة السورية بالأخص، بدون رأيه وموافقته. وينبغي، ثانياً، أن يبحث في الهيئة القيادية المعنية، المسؤولة مباشرة عن الساحة السورية..

إذن يفترض منطقياً أنه كانت هناك موافقة من قبل الأمين العام، وكذلك كان هناك قرار، من قبل الهيئة القيادية المعنية، التي تضم عدة أشخاص على الأقل، بالطلب من فرج الله الحلو، أو بالموافقة له على رغبته الخاصة، بالذهاب إلى سوريا.

فكيف أُخذت موافقة خالد بكداش على إرسال فرج الله الحلو إلى سوريا؟ وما هو قرار الهيئة المعنية، بهذا الشأن؟ وما هي حيثياته؟ ومن هو المبادر لاقتراح مثل هذا القرار؟ ومن هم أعضاء هذه الهيئة، التي أرسلت فرج الله الحلو إلى المقصلة؟

وحتى لو كان اقتراح ذهاب فرج الله الحلو إلى سوريا كان بمبادرة شخصية منه، فإن الأمين العام، أي خالد بكداش، من جهة، والهيئة القيادية المعنية، من جهة ثانية، كان بإمكان كل منهما على حدة، عدم الموافقة على مبادرته، ومنعه من الذهاب.

يقول أحد المحازبين المطرودين من الحزب: «بأن الرفيق فرج الله بات ليلته الأخيرة في لبنان في منزل مسؤول حزبي هو المرحوم ط. د.، الذي سار في «الخط البكداشي ـ الأولترا سوفياتي» في أزمة العام 1968، وإن شقيق الأخير، ج. د.، كانت لديه تغطية أمنية للانتقال إلى سوريا، حيث كان يعمل في نقل

بضاعة ما ـ ربما الكتب على ما أذكر ـ بين لبنان وسوريا، وهو الذي نقل بسيارته الرفيق فرج الله إلى دمشق، وتركه في وسط المدينة. ومن هناك ذهب فرج الله لوحده إلى حيث يريد، أي إلى البيت السري لصبحي الحبل، واعتقل على الفور في ذلك البيت.

وفي شتاء 1959 ـ 1960، كنت مع بعض الطلبة العرب في المدرسة الحزبية في بلغاريا، في منتجع شتوي خاص باللجنة المركزية. وقد التقينا هناك، صدفة، بمسؤول رفيع المستوى، هو وزير المالية البلغاري، الذي جرت لنا معه نقاشات عديدة. وكان موضوع الوحدة السورية ـ المصرية والموقف من عبد الناصر من أهم مواضيع النقاش. وقد هاجم الوزير المذكور عبد الناصر بشدة، وكال له ما كال من النعوت، مشبهاً إياه حرفياً بهتلر. وهاجم كذلك الوحدة، معتبراً أن عبد الناصر يريد ضم سوريا، ولكن فمه صغير والملعقة ـ حسب تعبيره الحرفي ـ كبيرة عليه. وهذا يدل أنه كان هناك موقف معمم، ضمن الكتلة السوفياتية وحلفائها وبكداش في طليعتهم، ضد الوحدة المصرية ـ السورية، وضد عبد الناصر بسبب الوحدة، كما ضد أي اتجاه قومي مؤيد للوحدة، خصوصاً في صفوف الشيوعيين، كما كان فرج الله الحلو.

وفي سنة 1963 أو 1964 لا أذكر تماماً، تعرفت على رفيق من طرابلس يدعى ر. ك.، أخبرني بقصة طريفة، مفادها أنه جاءه شخص يدعى صبحي الحبل، وهو ـ حسب قول ر. ك. ـ حزبي سابق اتهمه الحزب بتسليم فرج الله الحلو. وحسب رواية ر.ك.، أن صبحي الحبل شكا له وضعه قائلاً: أنه ـ أي صبحي ـ كان

هو المسؤول عن بيت حزبي سري في دمشق، هو البيت الذي اعتقل فيه الرفيق فرج الله، فور وصوله إلى البيت، وطرقه على الباب، بالإشارة المتعارف عليها، حيث كانت عناصر من المخابرات بانتظاره داخل البيت، كما أسلفت، ورحبوا به قائلين: «أهلا أبو فياض». وقد خرج صبحي من السجن في سوريا، حسب روايته للرفيق ر. ك.، بعد انهيار الوحدة، وجاء وسكن في الميناء في طرابلس، لا أذكر لماذا. وحسب قوله أنه كان مهدداً من قبل الحزب، لاتهامه إياه بتسليم الرفيق فرج الله.

ويقول ر.ك. إن صبحي هذا أبلغه أنه بريء من تهمة تسليم الرفيق فرج الله، ودافع عن نفسه بأنه كان قد تم اعتقاله قبل شهرين من اعتقال فرج الله، وأنه علم باعتقال فرج الله وهو في السجن، وبالتالي لم يكن يتصور أن الرفيق فرج الله يمكن أن يأتي إلى بيته، في حين أنه هو كان قد اعتقل قبل شهرين. ويقول أنه فوجئ بأن الرفيق فرج الله اعتقل في البيت السري ذاته الذي كان هو مسؤولاً عنه، وهو بيت ـ حسب قوله ـ لم يعد بالطبع سرياً، بعد اعتقاله (أي صبحي). ويقول صبحي ـ أيضاً حسب رواية ر.ك. ـ أن الحزبيين المعنيين كانوا يعلمون باعتقال صبحي، وبانكشاف البيت السري الذي كان هو مسؤولاً عنه. ويتساءل صبحي: كيف يمكن أن يأتي الرفيق فرج الله إلى بيت حزبي سري صاحبه معتقل منذ شهرين؟ وهل كان الرفيق فرج الله يعلم بأن صاحب هذا البيت السري (أي صبحي) هو معتقل؟ وهل كان يعلم أن البيت أصبح مكشوفاً؟ وقال صبحي لـ ر.ك. أنه جاهز لتقديم نفسه لمحاكمة حزبية حول اتهامه بتسليم فرج الله الحلو، وأنه مستعد لتحمل

النتائج. وسلم رسالة بهذا كله إلى الرفيق ر.ك.، وطلب منه أن يوصلها إلى القيادة. وقد أوصلها ر.ك.، حسب قوله، إلى الرفيق المرحوم نقولا الشاوي، على ما أذكر من حديث الرفيق ر.ك.، وقد طلبت القيادة من الأخير قطع أي اتصال له مع صبحي الحبل، على إعتبار أنه عدو للحزب، والحزب «رح يدبرو». ماذا حدث بعد ذلك؟ ما هو مصير صبحي الحبل؟ ليس لدي أي علم عن بقية الحكاية. ولكن الرفيق ر. ك.، المطرود من الحزب في أزمة العام 1964 ـ 1965 هو حي يرزق، وهو يمتلك الأخلاق والشجاعة الأدبية اللازمة لتأكيد روايته».

وبناء على ذلك، يمكن إعادة تركيب الصورة كما يلي: الأمين العام، أي خالد بكداش، الذي كان منذ البداية ضد الوحدة، غادر إلى موسكو، بعد بدء الحملة ضد الحزب، ليكون بعيداً عن الخطر، وفي الوقت ذاته قريباً من مصادر وحيه في المعركة ضد الوحدة وضد عبد الناصر. يقرر السوفيات وبكداش التخلص من فرج الله الحلو، الذي يطرح خطاً شيوعياً مؤيداً للوحدة، ومعارضاً للممارسات الدكتاتورية ـ عبر عنه في مقالة عنوانها «من مواطن لبناني إلى الرئيس جمال عبد الناصر»، التي نشرت في جريدة «الأخبار» حينذاك ـ.

يطلب بكداش من الهيئة القيادية المعنية إرسال فرج الله الحلو لاستلام الساحة السورية مباشرة، وليس عبر المندوبين أو المراسلين الحزبيين، كما هي الحال في الحالات الاستثنائية. وتجتمع الهيئة، ويوافق أعضاؤها على اقتراح الأمين العام، عن قناعة، أو عن غير

قناعة، إذعاناً شخصياً له، ولإدراكهم أن هذه هي رغبة موسكو.

ومرة أخرى، وأخيرة، يخضع فرج الله الحلو للقرار البكداشي ـ السوفياتي، كما خضع سابقاً حينما استكتب «رسالة سالم» المشينة، المعروفة في تاريخ الحزب، والتي سنأتي على ذكرها لاحقاً. ولكنه هذه المرة خضع لقرار إجرامي، كلفه حياته ذاتها. إلا أن فرج الله رضخ لذلك القرار، للأسف، إيماناً منه بضرورة الحفاظ على وحدة الحزب وعلى هيبة القيادة، البكداشية ـ السوفياتية، التي لم تكن شيئاً آخر سوى قيادة مكيافيلية ـ قمعية، لا شيوعية ـ لا قومية. وهذا يذكّر تماماً بما لا يحصى من الكوادر العليا والمناضلين السوفيات، الشيوعيين الحقيقيين، الذين أرسلهم ستالين إلى الموت، وكانوا أمام فرق الإعدام بالذات، وإيماناً منهم بقضية الحزب يهتفون: عاش ستالين العظيم!

نخلص مما تقدم إلى ما يلي:

- إن أجهزة الدكتاتورية التي كان يقودها السراج هي التي تتحمل مسؤولية اعتقال وقتل فرج الله الحلو.
- وإن القيادة البكداشية ـ السوفياتية وأجهزة الـ «كا جي بي» هي التي سلمته يداً بيد إلى الجلادين.

ويبقى أن نتساءل:

**أولاً** ـ عن الدوافع لقتل فرج الله الحلو.

**ثانياً** ـ عن الأخطاء التي ارتكبها فرج الله الحلو، والتي كان خالد بكداش، سيحاسبه عليها إذا خلص من إيد عبد الناصر!

ثالثاً ـ عن دوافع السوفيات لمعاداة الوحدة، وعبد الناصر، وفي الوقت ذاته التواطؤ للتخلص من فرج الله الحلو.

إن الملابسات العملانية للجريمة، والظروف السياسية التي أحاطت بها، وأعقبتها، تجعل منها جريمة سياسية كبرى بإمتياز.

وإن اغتيال فرج الله الحلو، على خلفية العداء والحملة العنيفة على الشيوعية، تختص بميزة خاصة، وهي أنه يعود لها بالتحديد تدشين تقليد العداء المميت والقتل والاقتتال فيما بين القوى الوطنية والتقدمية، والتي أصبحت فيما بعد ظاهرة عربية معممة، شملت جميع البلدان ذات الأنظمة الوطنية: مصر، سوريا، لبنان، اليمن، الجزائر وأخيراً لا آخراً العراق، الذي سبق الجميع في الاقتتال والإرهاب والقمع الدموي ضد مختلف القوى الوطنية والقومية والتقدمية والثورية، مما آل في النهاية إلى الفشل في تحقيق المهمات التاريخية لحركة الثورة العربية، وأخيراً لا آخراً إلى الانهيار الذريع لنظام صدام حسين وتسهيل سقوط العراق في براثن الإحتلال الأميركي.

ولذلك فإن مناقشة جريمة اغتيال فرج الله الحلو تكتسب أهمية خاصة، ليس فقط كدرس وعبرة تاريخيين، بل لأن الأوضاع الشاذة الراهنة، في العلاقات اللدودة بين مختلف القوى الوطنية والقومية، بما فيها القوى الدينية الشريفة المناضلة، هي نتيجة واستمرار للعقلية والمفاهيم التي أنتجت تلك الجريمة، والتي كان للناصرية ـ حسب رأي الشيوعيين ـ شرف تدشينها.

## ـ المسؤولية التاريخية:

إذا كانت الناصرية قد دشنت سياسة وتقاليد القمع والنزاعات الدموية في الصفوف الوطنية والقومية المناضلة، فهل يمتلك الناصريون الشرفاء اليوم المصداقية والشجاعة الأدبية كي يدشنوا أيضاً المراجعة النقدية الصادقة لهذه الأخطاء القاتلة، التي لم تودِ فقط بحياة فرج الله الحلو والمئات غيره، بل أدت أيضاً إلى تسهيل ضرب الوحدة المصرية ـ السورية، وفي النهاية إلى إسقاط النظام الوطني الناصري ذاته في مصر، كما أدت إلى إضعاف حركة التحرير الوطني العربية برمتها، وسببت لها أفدح الأضرار، التي لم تتخلص من آثارها حتى الآن!

## ـ الدور السوفياتي:

لا يمكن إجراء محاكمة سياسية تاريخية حقيقية لجريمة تصفية فرج الله الحلو، بدون تناول دور السوفيات في الموقف من عبد الناصر والوحدة المصرية ـ السورية، ومن ثم من فرج الله الحلو بالذات، ودورهم في مؤامرة تسهيل تسليمه للموت المحتم.

وقد يرى البعض أن البحث في الدور السوفياتي بعد انهياره هو عملية نافلة وغير مجدية لأنها تأتي ما بعد الواقعة. وهذا غير صحيح لسببين:

**الأول** ـ ضرورة إجراء التقييم التاريخي لهذه المؤامرة الكبرى، الذي بدون تسليط الأضواء على مختلف جوانبها، وفهمها الصحيح، القريب قدر الإمكان من الواقع، لا يمكن فهم مرحلة

مفصلية من تاريخنا المعاصر، وبالتالي لا يمكن الفهم الصحيح لحاضرنا ذاته.

**الثاني** ـ إن القوى التي هي على علاقة أساسية، أياً كانت، بجريمة اغتيال فرج الله الحلو، بما فيها القيادات والأجهزة السوفياتية السابقة، قد تكون، أو هي بالفعل، غيّرت مواقعها السلطوية، إلا أن هذه القوى لا تزال موجودة على الساحة السياسية الدولية، وتستطيع، بل هي فعلاً، تلعب دورها في مواقعها الجديدة. كما إن المفاهيم أو الاعتبارات أو المصالح التي حركت تلك القوى، في مواقعها السلطوية السابقة، لا تزال هي أيضاً موجودة، ويمكن أن تحرك جزئياً أو كلياً ـ في الاتجاه ذاته ـ القوى التي حلت محلها.

وبتجاوز الإشكالية الشكلية لضرورة المحاكمة السياسية التاريخية لجريمة اغتيال فرج الله الحلو، نأتي إلى البحث في المضمون. وفي هذا المجال، سنتناول الخلفيات السياسية للدور السوفياتي في تسليم فرج الله الحلو:

أ ـ لقد جرت مؤامرة اغتيال فرج الله الحلو، في عهد خروشوف، الذي كان في أوج حملته على الستالينية. ولكن هذا لا يلغي، بل يؤكد، الطابع الإجرامي ـ المكيافيلي، الستاليني، للجريمة، مما يفضح تماماً حقيقة الإصلاحية الديمقراطية الكاذبة لخروشوف. فبالرغم من الانتقاد العنيف الذي وجهته الخروشوفية في حينه إلى الستالينية، فإن انتقادها للستالينية بمجمله لم يخرج عن نطاق معادلة «حق يراد به باطل». وإذا كانت الستالينية، في رأينا،

تعتبر تشويهاً أو تشوها خلقياً في النظام السوفياتي، فإن الخروشوفية ليست سوى ارتقاء بهذا التشوه إلى مستوى خيانة أساسية للإشتراكية. والخروشوفية هي السلف الطالح لـ «الغورباتشوفية»، التي مثلت انقلاباً وثورة مضادة على الإشتراكية، باسم الشفافية والإصلاح والديمقراطية وحقوق الإنسان، وما أشبه من الشعارات البراقة التي استخدمت لأهداف معاكسة تماماً لمضمونها. وليس من الصدفة أبداً أننا نجد اليوم، أن سرغيي خروشوف، ابن نيكيتا خروشوف، قد حاز على الجنسية الأميركية، وفتح «مركز دراسات» في واشنطن، متحولاً إلى عميل أميركي، مثله مثل غورباتشوف تماماً. وربما من غير الصدفة أن تتسمى حركة غورباتشوف باسم «البيريسترويكا» أي إعادة البناء، الذي هو اسم ماسوني حرفياً. وتعبير فري ماسون ذاته، يعني حرفياً «البنائين الأحرار». من هنا أن الخروشوفية لم يكن من مهمتها أن تنقض كل الستالينية، بل هي انتقدتها بشكل انتقائي، وطورتها بشكل يخدم أهداف البيروقراطية الجديدة، التي سميت حينذاك القيادة الجماعية، ويخدم المؤامرة الامبريالية الكبرى على الإشتراكية وحركة النضال العالمي ضد الامبريالية، وهو ما تطوعت له الخروشوفية ووريثتها الغورباتشوفية. ولذلك كان من الطبيعي أن ترث الخروشوفية أسوأ ما في الستالينية، وأن تحافظ عليه وتطوره. ومن أسوأ ما ورثته الخروشوفية عن الستالينية هو الموقف الميكانيكي ـ المكيافيلي من القضية القومية وقضية الدين، بشكل عام، ومن القضية القومية العربية وإسرائيل والدين الإسلامي، بشكل خاص.

وهذا ما نتناوله فيما يلي، لارتباطه الوثيق بالموقف الخروشوفي

حينذاك، من الوحدة المصرية ـ السورية، المرتبط بدوره بمؤامرة تصفية فرج الله الحلو.

ب ـ إن الموقف السلبي للقيادة السوفياتية من القضية القومية العربية، كان هو السبب السياسي الرئيسي وراء التناقض السوفياتي مع التوجه القومي لفرج الله الحلو، ومن ثم الموافقة على تسهيل تسليمه للموت على يد المخابرات السراجية. وهذا الموقف هو، بادئاً ذي بدء، نتاج تاريخي للمفهوم والموقف الستاليني من القضية القومية ومن قضية الدين بشكل عام، ومن القومية العربية والإسلام بشكل خاص. ومن المهم التأكيد أن هذا المفهوم والموقف الستاليني من القضية القومية، العربية خصوصاً، ومن الدين، الإسلامي خصوصاً، لا علاقة له بالفكر الإشتراكي، المعادي للرأسمالية والامبريالية والظلم الإجتماعي والاستعمار. وهو ما يجب التوقف عنده بإيجاز:

ج ـ إذا عدنا إلى المرحلة اللينينية، لوجدنا أن القيادة البلشفيكية للدولة السوفياتية الجديدة، وعلى رأسها لينين، كان لها موقف إيجابي من القضية القومية للشعوب المظلومة، وبالأخص الشعوب الإسلامية. ولا بد لنا من أن نلاحظ أن البلشفيك الروس، وبقيادة لينين، استطاعوا في حينه إيجاد لغة مشتركة مع الشعوب الإسلامية ضمن الإمبراطورية القيصرية السابقة، مع أن هذه الشعوب كانت شعوباً رعوية ـ فلاحية فقيرة جداً وشبه أمية تماماً، وكانت تقوم بينها وبين الروسي ثلاث دوائر من الاختلاف والحقد: بصفته السلطوية القيصرية، وبصفته القومية الروسية، وبصفته الدينية المسيحية

الأرثوذكسية. ومع ذلك فإن البلشفيك الروس، وبعدد قليل جداً من الدعاة والمناضلين الواعين، استطاعوا أن يخترقوا هذه الدوائر السياسية ـ الإجتماعية ـ الدينية ـ النفسية، التي كانت تفصل الظالم المسيحي الروسي، عن المظلوم المسلم غير الروسي، واستطاعوا ـ أي البلشفيك الروس ـ أن يكتسبوا، في عين تلك الشعوب، وجهاً إنسانياً آخر، مغايراً لوجه الروسي القيصري الكريه، وأخيراً أن يستميلوا الشعوب الإسلامية المظلومة إلى جانب الثورة الإشتراكية والسلطة السوفياتية. ومن ضمن هذا السياق نفسه، حينما دخل الإنكليز إلى أفغانستان، في المرحلة التاريخية ذاتها، فإن البلشفيك بقيادة لينين، لم يستغلوا ذلك للتدخل في أفغانستان وإحتلالها أو إحتلال جزء منها، بل أيدوا أمير أفغانستان المسلم، ضد الإحتلال الانكليزي، واحترموا رغبة الشعب الأفغاني بالإستقلال، ووقعوا معاهدة صداقة مع أفغانستان، ظلت سارية المفعول حتى عهد بريجنيف وتدخله المشؤوم في أفغانستان، لضرب الديمقراطيين، بمن فيهم الشيوعيين الأفغان، بعد أن جاؤوا إلى السلطة فيها، وأصبحوا يشكلون خطراً موضوعياً على نمط حكم البيروقراطية السوفياتية. أي أنه كان هناك فهم تاريخي ديالكتيكي، من قبل الشيوعيين السوفيات في عهد لينين، للقضية القومية والمعتقدات الدينية للشعوب الإسلامية. وهذا الفهم هو الذي مكن البلشفيك الروس في حينه من إيجاد اللغة المشتركة بينهم وبين تلك الشعوب.

د ـ أما في عهد ستالين، فقد تغير الوضع جذرياً، وبدأ تدهور تاريخي في نظرة، وممارسة، القيادة والأجهزة السوفياتية حيال

القضية القومية والدينية عامة، والقضية القومية والمعتقدات الدينية للشعوب الإسلامية خاصة. ويعود ذلك، بدرجة أساسية، إلى النشأة الذاتية لستالين التي تتبدى فيما يلي:

ـ نشأته «اللاقومية»، أو «العدمية القومية». فخلافاً لما يعتقده كثيرون خطأ، فإن ستالين لم يكن روسياً من حيث الانتماء القومي، بل كان جورجياً. ولم يكن لديه قضية قومية، وبالتالي كان لهذه الجهة عدمياً قومياً. فاسم جورجيا، البلد الذي يعود إليه ستالين بأصله القومي، يدل على مفهوم جغرافي، أكثر مما يدل على مفهوم قومي. والقومية الجورجية هي قومية صغيرة جداً لا يتعدى تعدادها 4 ملايين نسمة في كل أنحاء الإتحاد السوفياتي السابق، و3,5 ملايين في جورجيا نفسها، من أصل حوالي 5,3 ملايين نسمة يعيشون في هذه الجمهورية. ويطلق عليهم اسم «الجورجيون الأقحاح». وتعيش في جورجيا أقليات أثنية كثيرة أخرى، أهمها: الأوسيتيون، الابخازيون، الاجاريون، الأرمن، الروس، الأذربيجانيون وغيرهم العديد من الإثنيات الأصغر عدداً. والأرضية السياسية ـ الإنسانية الهامة الوحيدة التي كان يقف عليها ستالين هي: الانتماء لـ«الحزب الشيوعي»، الذي كان يشمل كل الإمبراطورية القيصرية السابقة الكبيرة، ومن ثم الدولة السوفياتية العظمى، والكومنترن الذي يشمل العالم.

كما أن ستالين كان في مطلع حياته يدرس في إحدى المدارس الداخلية الأرثوذكسية. وقد طرد من المدرسة، بعد أن اكتشف انتماؤه السياسي، فأثر ذلك عليه في أن رسخ لديه نظرة سياسية

وحيدة الجانب وحاقدة إلى الدين بشكل عام. ومع وجود بعض الترسبات الإسلامية الرجعية، والمعادية للروس، ومن ثم للسوفيات، لدى قطاع جماهيري معين في الجمهوريات الإسلامية السوفياتية، وذلك خاصة تحت التأثير التركي، اتخذ العداء الستاليني العدمي للدين عامة، طابعاً معادياً للإسلام خاصة.

وهذه النشأة القومية والدينية العدمية لستالين، هي التي كونت مفهومه الميكانيكي للقضية القومية والمعتقدات الدينية. وهذا المفهوم الميكانيكي هو الذي فرضه ستالين، من ضمن مختلف مفاهيمه المكيافيلية التعسفية، على الحزب الشيوعي والسلطة السوفياتيين، والحركة الشيوعية العالمية، حينما أصبح في السلطة.

وطبعاً إن ستالين ومدرسته الستالينية كانا يجدان المرتكزات الواقعية والنظرية اللازمة، للنظرة الميكانيكية السلبية إلى القومية والدين، في بعض الممارسات السلبية للكنيسة الأرثوذكسية في العهد القيصري، وفي التعاون مع المحتلين النازيين من قبل بعض الجماعات القومية والدينية المتخلفة والحاقدة في الجمهوريات السوفياتية الإسلامية، كما وفي التأويل الميكانيكي المشوه والمبتسر لمقولات ماركسية مفصولة عن سياقها الديالكتيكي والتاريخي، مثل شعار «العمال لا وطن لهم!» و«الدين أفيون الشعوب!».

وهذه النظرة العدمية الستالينية، إلى القومية والدين، هي التي دفعت ستالين إلى التطبيق، المستهتر إنسانياً وقومياً للعقوبات الجماعية ضد الشيشانيين والتتار، حينما قام قسم محدود منهم، بالتعاون مع المحتلين الهتلريين، كما حدث في فرنسا وغيرها من

البلدان التي احتلها هتلر، والتي وجد فيها متعاونون فيشيون وكيسلنغيون الخ.

هـ ـ إن هذه النظرة الستالينية العدمية، للقومية وللدين، وجدت بالضرورة ترجمتها في التعامل مع القضية القومية العربية، ومع حركة التحرر الوطني العربية، بما فيها الحركة الشيوعية العربية. فالقيادة السوفياتية، منذ أيام ستالين، وبتأثير منه أولاً، كانت تخشى أي شكل من أشكال الوحدة العربية، والوحدة العربية ـ الإسلامية، بما في ذلك إمكانية قيام حزب شيوعي عربي موحد. لأنها كانت ترى:

- **أولاً**، أنه سيكون من الصعب عليها السيطرة على مثل هذه الوحدة، دولة أو حزباً، الخ.
- **ثانياً**، لأنها كانت ترى إن أي وحدة عربية، أو عربية ـ إسلامية، يمكن أن تتحول إلى مركز استقطاب يمارس تأثيره السياسي، المباشر أو غير المباشر، على شعوب الجمهوريات الإسلامية السوفياتية، وعلى الشيوعيين فيها، نظراً للعلاقات التاريخية والثقافية والدينية، بين العرب وهذه الشعوب.

وكانت القيادة السوفياتية، الستالينية، ووريثتها الخروشوفية، ترى أن مثل هذا التأثير سيكون مناقضاً للهيمنة الدكتاتورية والبيروقراطية للقيادة السوفياتية على شعوب تلك البلدان وأحزابها الشيوعية ذاتها. وهذا هو الأساس الفكري والسياسي، السوفياتي الخاص، الذي انطلقت منه القيادة السوفياتية في موقفها السلبي من القضية القومية العربية، ومن الوحدة المصرية ـ السورية.

إن هذه العوامل السلبية نفسها، لعبت دورها الفاصل في أن

يدخل ستالين تغييراً جذرياً على الموقف السوفياتي الأصلي من التقسيم الاستعماري للشرق، بما في ذلك تقسيم فلسطين وإقامة دولة إسرائيل.

فمعلوم أن الدولة السوفياتية الناشئة، بقيادة لينين، هي التي سبق لها وفضحت إتفاقية سايكس ـ بيكو ووعد بلفور هو جزء لا يتجزأ منها. وقبل الحرب العالمية الثانية، كانت الدولة السوفياتية، والحزب الشيوعي السوفياتي، والكومنترن (الأممية الشيوعية)، تعارض إنشاء إسرائيل، والهجرة اليهودية إلى فلسطين، وتعتبر ذلك من ضمن سياسة التوسع الاستعماري للدول الإمبريالية الغربية، للسيطرة على الشرق العربي. وكان هناك إدانة صريحة للحركة الصهيونية. ولكن مع وجود ستالين على رأس السلطة السوفياتية، بمفاهيمه المكيافيلية اللامبدئية، وعدميته القومية والدينية، أخذ يطبع بتلك المفاهيم مجمل السياسة السوفياتية، ويفرضها على الحركة الشيوعية العالمية ذاتها. وقد بدأ ستالين والقيادة السوفياتية في التعامل تعاملاً سياسياً لامبدئياً ومكيافيلياً مع ما يسمى المسألة اليهودية، والاعتراف بتقسيم فلسطين وقيام إسرائيل. وقد اكتسبت هذه العملية طابعاً ضاغطاً بشكل خاص، في ظروف الخطر الهتلري، وخاصة بعد الهجوم على الإتحاد السوفياتي في العام 1941، حينما دخل الإتحاد السوفياتي في معركة حياة أو موت مع الهتلرية، وأصبح بحاجة إلى المساعدات الإقتصادية والتسليحية الغربية. ومن السذاجة الاعتقاد أن ستالين حصل على تلك المساعدات بدون ثمن سياسي.

كان أول ثمن، دفعته الحركة الشيوعية العالمية، هو القرار الستاليني بحل الكومنترن (الأممية الشيوعية) في العام 1943. وكان هدف الدول الغربية من هذا القرار هو منع التدخل الخارجي في شؤونها، عبر العلاقة التنظيمية للأحزاب الشيوعية فيها مع الكومنترن. ومنذ ذلك التاريخ، تحولت علاقة الحزب الشيوعي السوفياتي مع أي حزب أو حركة أو نظام سياسي في الخارج، بما في ذلك الأحزاب الشيوعية، إلى علاقات ثنائية وحسب. وقد أدى حل الكومنترن، وتطبيق قاعدة العلاقة الثنائية مع السوفيات، إلى إعطاء الستالينية إمتيازاً وأسبقية كبرى، في علاقتها مع أي حزب شيوعي أجنبي، أولاً لأن الستالينية كانت تمثل دولة كبرى كالإتحاد السوفياتي، بكل إمكانياته الهائلة، وثانياً لإطلاق يد الستالينية في التعامل مع أي طرف وأي قضية خارجية، بدون الرجوع إلى، وبدون الالتزام برأي أي مرجعية أخرى، وأي حزب شيوعي آخر، بما في ذلك الحزب الشيوعي المعني، الذي تقوم معه العلاقة الثنائية. وأصبح بمقدور الستالينية، بإمكانياتها الدولية، التفرد في تطويع أي طرف شيوعي آخر، وحتى قمعه حينما تستدعي الحاجة.

وبعد إنتصار الشعب السوفياتي الباهر على الهتلرية، الذي قطفت الستالينية ثماره السياسية، عقد مؤتمر «يالطا ـ بوتسدام»، في العام 1945، الذي تمت فيه إتفاقات تقاسم النفوذ الدولي، بين الدول المنتصرة، وتحديداً بالأخص بين ستالين وروزفلت وتشرشل. وأصبحت تلك الإتفاقات هي المرجع، والناظم الأساسي، وإن كان سرّي، في العلاقات الدولية برمتها، بوصفها

المرجع والناظم للعلاقات السوفياتية ـ الغربية. وهذه الإتفاقات تقر، لكل من الطرفين، التمتع بالقرار الإستراتيجي، المتعلق بالتكوين والكيان الأساسي للدول القائمة في منطقة نفوذه، بدون اعتراض الطرف الآخر. كما أنها تتيح لكل طرف العمل السياسي في منطقة نفوذ الطرف الآخر، فقط تحت عنوان السياسة الداخلية لكل من الدول الإقليمية الموجودة في المنطقة المعنية. بعد هذا التاريخ، فإن القيادة السوفياتية، وعملاً بتلك الإتفاقات، سحبت فعلياً اعتراضها التاريخي على إتفاقية «سايكس ـ بيكو»، وملحقها وعد بلفور، لوقوع المنطقة العربية ضمن منطقة النفوذ الغربي، بموجب إتفاقات «يالطا ـ بوتسدام». وهذا يعني أن الدولة السوفياتية أصبحت ملزمة، بموجب إتفاقات «يالطا ـ بوتسدام»، بتأييد، والمحافظة على التقسيم الذي فرضته إتفاقية «سايكس ـ بيكو» على البلدان العربية.

ز ـ إنطلاقاً من كل ذلك، فإن القيادة الستالينية أصبحت ملزمة أيضاً ـ بصفة تعاقدية مع الدول الغربية ـ بتأييد تقسيم فلسطين، وهو ما فعلته في العام 1947. وليس من الصدفة أن الدولة الشيوعية الوحيدة التي اعترضت على قرار تقسيم فلسطين، الصادر عن الأمم المتحدة، هي الدولة التي عصت على ستالين، ونعني بها يوغوسلافيا تيتو، التي كان لها مندوب في لجنة الأمم المتحدة التي زارت فلسطين وأوصت بالتقسيم، وكان المندوب اليوغوسلافي هو المعارض الوحيد، الذي اقترح، بدلاً من التقسيم، إقامة دولة موحدة ثنائية عربية ـ يهودية.

ومن ضمن هذا السياق، اعترفت القيادة الستالينية بدولة

إسرائيل، مباشرة بعد اعتراف الولايات المتحدة، فور إعلانها في أيار/مايو عام 1948. وقد حاولت القيادة الستالينية، من ضمن ما تتيحه لها إتفاقات «يالطا ـ بوتسدام»، أن «تتشاطر» على الغرب الإمبريالي والصهيونية العالمية، بمحاولة لغم إسرائيل من الداخل، حسب زعمها ووهمها. فاتخذت ـ أي الستالينية ـ القرارات الحزبية والدولية المطلوبة لإرسال يهود أوروبا الشرقية ـ وبالأخص الشيوعيين منهم ـ إلى إسرائيل، كي يقاتلوا في جيشها في حرب 1948 ـ 1949، كما أرسلت لها السلاح ـ قبل صفقة الأسلحة التشيكية لعبد الناصر في العام 1955ـ. كان هناك صفقة أسلحة تشيكية أخرى، لإسرائيل، في فترة الهدنة في حرب 1948 ـ 1949. وأول طائرات حربية استخدمها الجيش الإسرائيلي في تلك الحرب ضد الجيوش العربية، كانت طائرات شيوعية تشيكية. وكان رئيس الوزراء التشيكي حينذاك الشيوعي اليهودي سلانسكي، الذي أعدمه ستالين لاحقاً، ضمن حملات التطهير. وقد توهمت الستالينية أنها، بواسطة هذه المساعدة والمشاركة في إنشاء إسرائيل، يمكنها أن تضرب أكثر من عصفور بحجر واحد:

**أولاً** ـ أن تلتزم بإتفاقات يالطا حرفياً، في منطقة النفوذ الغربي، لتجبر الدول الغربية على الالتزام بتلك الإتفاقات في منطقة النفوذ الروسي ولا سيما في أوروبا الشرقية.

**ثانياً** ـ أن تتخلص قدر الإمكان من اليهود، وخصوصاً الشيوعيين اليهود، في أوروبا الشرقية، الذين لم تكن الستالينية تثق بهم.

ثالثاً ـ أن تلغم «وعد بلفور» من الداخل، بمحاولة تحويل إسرائيل، عبر الهجرة اليهودية الشيوعية، إلى موطئ قدم سوفياتي في هذه المنطقة الحساسة من العالم، عوضاً عن أن تكون مركز نفوذ غربي.

رابعاً ـ أن تتحكم بالأوضاع العربية برمتها، عبر اللعب بالطابع المزدوج لإسرائيل، كما كان يريدها ستالين: أي طابعها الفعلي الأصلي، أي الصهيوني، المعادي للعرب والإسلام، من جهة، وطابعها الوهمي، الإشتراكي اليهودي، الصديق الوهمي المفترض للعرب والإسلام، من جهة ثانية.

ولعله من المعبر، على هذا الصعيد، أن أول زيارة لوزير خارجية إسرائيلي إلى الخارج، كانت زيارة غولدا مائير ـ وزيرة خارجية إسرائيل حينذاك ـ إلى الإتحاد السوفياتي في العام 1952، حيث جرى لها استقبال مميز.

ولإنجاح هذه السياسية التعسفية المكيافيلية، الخاطئة من أساسها، وبالرغم من حل الكومنترن، فإن الستالينية ذهبت إلى النهاية في المعاندة في الخطأ، باستخدامها نفوذها التاريخي، كحزب شيوعي سوفياتي وكدولة سوفياتية، وإمكانياتها المادية والمخابراتية الهائلة، لإجبار الأحزاب الشيوعية العربية ذاتها على الاعتراف بتقسيم فلسطين، أي عملياً الاعتراف بالشرعية السياسية والقومية لإقامة إسرائيل، مما يناقض على خط مستقيم لا الماركسية وحسب، بل وأبسط المفاهيم السياسية والإجتماعية المنطقية .التي تميز بين الدين، من جهة، وبين الأمة والقومية، من جهة ثانية.

ولكن الستالينية، بسياستها المكيافيلية هذه، لم تفعل سوى أن تقدم أكبر خدمة للإمبريالية والصهيونية، بمساهمتها في إعطاء إنشاء إسرائيل طابعاً يهودياً عاماً، أيده وشارك فيه، بل وحارب لأجله، الأعداء الأساسيون التقليديون للصهيونية بين اليهود، ونعني الشيوعيين اليهود. وقد فشل وهم إنشاء إسرائيل إشتراكية فشلاً تاريخياً ذريعاً.

ح ـ كانت سنة1947 محطة تاريخية، بالنسبة للمسألة القومية بشكل عام، وبالأخص قضية فلسطين وقضية الوحدة القومية عموماً، والوحدة المصرية ـ السورية تحديداً. كما كانت محطة تاريخية أيضاً في السيرة السياسية لخالد بكداش. حيث أنه في هذه السنة صدر قرار تقسيم فلسطين. وقد برز في الحزب الشيوعي السوري ـ اللبناني اتجاهان:

- اتجاه قومي عدمي، تزعمه خالد بكداش، الذي أيد قرار التقسيم، إما تستراً وراء الموقف السوفياتي، أو إذعاناً له.
- واتجاه قومي، كان أبرز شخصياته فرج الله الحلو.

وإنه قبل شهر من صدور قرار تقسيم فلسطين، وكان موضوع التقسيم قيد البحث المحموم إقليمياً ودولياً، أصدرت القيادة الحزبية في لبنان، التي كان يترأسها فرج الله الحلو، بياناً تعارض فيه التقسيم. وبعد شهر أو أكثر صدر قرار التقسيم، بموافقة ستالين. وكانت هذه المخالفة أي معارضة قرار تقسيم فلسطين، من قبل فرج الله الحلو، بمثابة نقطة سوداء لا تمحى في الإضبارة البكداشية

ـ السوفياتية لفرج الله الحلو، وضربة قاضية بالنسبة لمستقبله الحزبي. فجرى إبعاده من قيادة الحزب، وأنزل إلى مستوى عضو عادي. وصدر بيان حزبي جديد بتأييد التقسيم. وكل ذلك بمبادرة، وتحت قيادة خالد بكداش، الذي ارتفعت حينذاك أسهمه السوفياتية بشكل كبير جداً.

وبواسطة عملاء الـ «كا جي بي»، المخابرات السوفياتية، في الأحزاب الشيوعية العربية، وأبرزهم المرحوم خالد بكداش، استطاعت القيادة الستالينية أن تخنق أي معارضة شيوعية عربية لقرار تقسيم فلسطين والاعتراف بإسرائيل. ولما كان فرج الله الحلو من أبرز المعارضين، فقد نال نصيبه من الاضطهاد والإذلال، وأبعد عن المواقع القيادية لسنوات. وعلى الطريقة الستالينية المعهودة، وكُتبت رسالة مشينة، معروفة باسم رسالة سالم، التي يقدم فيها فرج الله الحلو نقداً ذاتياً يلصق فيه بنفسه ما هب ودب من الأخطاء، وكل ذلك لتشويه سمعته لدى القاعدة الحزبية وتبرير إقصائه عن القيادة، وطمس سبب الخلاف الرئيسي حول الاعتراف بتقسيم فلسطين. وقد جرى تعميم رسالة سالم على الحزب كله. ومنذ ذلك الحين، دخلت هذه النقطة السوداء في سجل فرج الله الحلو لدى القيادة السوفياتية. إن فرج الله الحلو فضل عدم المواجهة مع بكداش والستالينية في حينه، لأنه كان يراهن على عامل الوقت، ويأمل بتصحيح مواقف الحزب من الداخل، وبتصحيح مواقف القيادة السوفياتية من خلال العلاقات الرفاقية، التي لم تكن القيادة السوفياتية تقيم لها أي اعتبار.

وللأسف، إن فرج الله الحلو لم يخرج حينذاك من تحت الوصاية القسرية لبكداش على الحزب، وهي الوصاية المفروضة ستالينياً، ولم يقف علناً مدافعاً عن صحة موقفه بمعارضة تقسيم فلسطين على أساس عنصري. ولو فعل ذلك لشكل نقطة تحول في تاريخ القضية الفلسطينية، وتاريخ الحركة الشيوعية العربية. والآن، بعد كل هذه الحروب والدماء والتضحيات غير المحدودة، وبعد تخوين الشيوعيين حينذاك، من قبل الإسلاميين والشوفينيين العرب، يتأكد صواب موقف معارضة التقسيم العنصري لفلسطين، ويبدو بوضوح أن مشروع الكيان الإسرائيلي، بالرغم من كل خصوصياته بالنسبة لليهود، لم يكن كارثة للجماهير الفلسطينية والعربية فقط، بل هو لا يحمل أيضاً أي أمل حقيقي بالخلاص الإنساني المشرف لليهود المضللين أنفسهم، وأن هذا المشروع، كما كان المشروع الطائفي للكتائب في لبنان، والمشروع العنصري للبيض في أفريقيا الجنوبية، يحمل مقومات موته في ذاته. ولا مستقبل لخلاص اليهود المضللين أفضل من مستقبل الجماهير المسيحية الذي كان يضللها الغرب في لبنان، وجماهير البيض الذين كانوا مضللين بالعنصرية في أفريقيا الجنوبية. أي أن خلاص اليهود المضللين ينحصر تحديداً في الانضواء تحت سقف حركة التحرر الوطني الفلسطينية والعربية، بعد هزيمة المشروع الطائفي ـ العنصري للصهيونية.

وقد برز الخلاف مرة أخرى بحدة في العام 1959، بين الاتجاهين القومي واللاقومي في الحزب الشيوعي السوري ـ اللبناني، حينما كتب فرج الله الحلو مقالة بعنوان «من مواطن لبناني إلى الرئيس جمال عبد الناصر»، التي نشرت في حينه في جريدة

«الأخبار» الأسبوعية العائدة للحزب، والتي أعرب فيها فرج الله الحلو عن تأييده للوحدة، وانتقد بشكل إيجابي وبناء الأخطاء الحاصلة، ولا سيما لجهة مكافحة الحريات الديمقراطية، والتي اعتبرها تضر بقضية الوحدة، وطالب الرئيس عبد الناصر بالتدخل لإصلاح الأخطاء حرصاً على الوحدة. فمع هذه المقالة، طفح الكيل بالنسبة للقيادة البكداشية ـ السوفياتية، من فرج الله الحلو! ويمكن القول أن هذه المقالة هي التي قتلته. فكان قرار إرساله إلى سوريا، الذي جاء من موسكو، بواسطة بكداش، إلى القيادة الحزبية في بيروت، التي وافقت على إرسال فرج الله الحلو إلى سوريا، أي عملياً تسليمه للموت. وقبل عشر سنوات من ذلك كان الدكتاتور حسني الزعيم قد قام بجريمة مماثلة، حينما سلم أنطون سعادة للإعدام في لبنان. ويبدو من ذلك كيف أن الاتجاهات العربية اللاقومية، على مستوى الأنظمة والأحزاب والمنظمات معاً، تتبادل الخدمات ضد أي مشروع قومي يهدد كيانات سايكس ـ بيكو.

ط ـ تشغل تجربة الوحدة المصرية ـ السورية حيزاً كبيراً في التاريخ العربي الحديث، ولا سيما في تاريخ حركة التحرير الوطني العربية. ومع ذلك فهي لم تعط الاهتمام الكافي الذي تستحقه، لجهة الاستفادة من الدروس التي قدمتها. وينطبق ذلك بشكل خاص على الحزب الشيوعي السوري ـ اللبناني بشكل خاص، والحركة الشيوعية العربية بشكل عام.

فالواقع إن تلك النقلة النوعية في الحياة السياسية لمصر وسوريا تتجاوز بكثير أهمية البلدين مجتمعين. فهي كانت أول اختراق

أساسي للتركيبة البنيوية للهيمنة الإمبريالية الغربية على الوطن العربي، وعبره على العالم الإسلامي وآسيا وأفريقيا، ومن ثم على العالم برمته.

إن حجر الزاوية في هذه التركيبة هو التقسيم الاستعماري للشرق، الذي تمت بموجب إتفاقية «سايكس ـ بيكو» وملحقها «وعد بلفور». ذلك أن الدول الإمبريالية أدركت، منذ ذلك الحين، أن إمكانية نشوء دولة عربية موحدة، من شأنها التحكم بمنابع النفط، والممرات الدولية، وتحريك العالم الإسلامي، ومن ثم قلب المشهد السياسي والإقتصادي والإستراتيجي الدولي رأساً على عقب. ولا يزال التقسيم الاستعماري للشرق العربي حتى اليوم، هو حجر الزاوية في نظام الهيمنة الإمبريالية على العالم.

وهكذا كانت إتفاقية «سايكس ـ بيكو»، التي قامت أساساً بين بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية، ثم فضحتها وعارضتها روسيا السوفياتية، وانضمت إليها بالمقابل أميركا، ومن ثم حازت موافقة جميع الدول الغربية الأخرى. وعلينا أن نذكر هنا أن بريطانيا وفرنسا حاولتا في البدء تمرير الإتفاقية سلمياً، عن طريق الخداع والتضليل والكذب. ولكن بعد فضح الإتفاقية من قبل الثورة الروسية في العام 1917، قامت الحكومة العربية في سوريا، برئاسة فيصل الأول، وأخذت تدعو لإنشاء الدولة العربية الموحدة. وأصبح الحكم العربي في سوريا حينذاك عقبة كأداء أمام التطبيق الكامل لإتفاقية «سايكس ـ بيكو»، مما هددها بالفشل. ولكن بعد عقد مؤتمر الصلح في باريس في 1919 ـ 1920، حازت إتفاقية «سايكس ـ بيكو»

على الاعتراف الدولي، وحصلت فرنسا الاستعمارية على التفويض الدولي اللازم، كي تشن ـ إنطلاقاً من لبنان ـ الهجوم على سوريا، فاشتبكت مع الجيش العربي على مداخل دمشق، ودمرته في معركة ميسلون، التي استشهد فيها وزير الدفاع في حكومة فيصل، البطل القومي يوسف العظمة. وبالرغم من التواطؤ الدولي، فإن إحتلال سوريا بالقوة المسلحة، أفقد إتفاقية «سايكس ـ بيكو» طابعها السلمي الكاذب، بحيث تعرت تماماً كإتفاقية قرصنة استعمارية تمت بالقوة، رغم إرادة جماهير الأمة العربية. ومنذ ذلك الحين، فتحت الطريق أيضاً لتطبيق «وعد بلفور»، وبدأت الهجرة اليهودية المكثفة إلى فلسطين، المحتلة من قبل الانكليز. وبالرغم من كل التطورات الإقليمية والدولية، التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، ثم بالأخص الحرب العالمية الثانية، وظهور المعسكر الإشتراكي، وانهيار النظام الكولونيالي التقليدي في العالم، بقيت إتفاقية «سايكس ـ بيكو»، التي تقضي بتجزئة الوطن العربي، ـ بقيت تلك الإتفاقية مصانة دولياً، لا سيما بعد أن أصبحت روسيا الستالينية في عداد الدول الموافقة عليها فعلاً، عبر منطوق إتفاقيات «يالطا ـ بوتسدام» بين المنتصرين في الحرب العالمية الثانية.

وجاءت إتفاقية الوحدة بين مصر وسوريا، لتقلب رقعة الشطرنج الدولية تماماً، بخرقها النظام الدولي المركب، القائم على إتفاقية «سايكس ـ بيكو» إقليمياً، وإتفاقيات «يالطا ـ بوتسدام» دولياً. وكان لقيام الوحدة بين مصر وسوريا بالتحديد قيمته الكبيرة الخاصة، الرمزية ـ التاريخية، والإستراتيجية ـ السياسية، في آن واحد. فهي، من جهة، أعادت إلى المسرح التاريخي المعاصر، الوحدة التي

تمت بين مصر وسوريا إبان حكم صلاح الدين الأيوبي، التي مهدت لتحرير القدس من الصليبيين. ومن جهة ثانية، كانت بمثابة رد تاريخي، من سوريا بالذات، على إتفاقية «سايكس ـ بيكو»، التي سبق لها أن تكرست، إنطلاقاً من هزيمة الجيش العربي في سوريا ذاتها (معركة ميسلون). وبقيام الجمهورية العربية المتحدة، نشأ على الأرض عامل إقليمي جديد، هو العامل العربي، الذي يتجاوز ويسحب البساط من تحت أقدام التقسيمات الكيانية القطرية، وهو ما شكل أول تهديد إقليمي فعلي للشرعية التاريخية ولإمكانية وجود دولة «وعد بلفور».

وكان من الطبيعي أن تلقي الدول الامبريالية خاصة، والغربية عامة، ومعها إسرائيل والصهيونية العالمية، بكل ثقلها السياسي والإقتصادي والمخابراتي والعسكري، لضرب الوحدة السورية ـ المصرية. وليس من شك أن الدول الغربية حركت آلية إتفاقات «الطا ـ بوتسدام»، كي تطلب من السوفيات عدم تأييد الوحدة المصرية ـ السورية، والتعاون في ضربها، مقابل التعاون الغربي مع الوجود السوفياتي، المتزايد الاهتزاز، في أوروبا الشرقية، لا سيما بعد أحداث المجر في العام 1956.

من هنا كان التحول المفاجئ في العلاقات السوفياتية مع مصر وسوريا، بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة، إذ انقلبت تلك العلاقات 180 درجة، وتحولت من علاقات إيجابية جداً، إلى علاقات متوترة في منتهى السلبية. وكان موقف بكداش السلبي، بتغيبه عن جلسة مجلس النواب السوري، التي تم فيها التصويت

على الوحدة في شباط/فبراير عام 1958، تعبيراً عن حقيقة الموقف السوفياتي المعارض للوحدة، إرضاءً للغرب.

وجاء الموقف القومي السليم لفرج الله الحلو، الذي أيد الوحدة مبدئياً وعملياً، بالرغم من انتقاده للسلبيات المرافقة لها، ولا سيما الممارسات المخابراتية للدكتاتورية، جاء هذا الموقف ليفاجئ السوفيات، ويهدد بإمكانية وقوع تطور غير محسوب للأحداث، يتبدى في إمكانية انفتاح عبد الناصر شخصياً على القوى الديمقراطية والقومية، الشيوعية والبعثية وغيرها، المؤيدة للوحدة، والمعارضة للممارسات الدكتاتورية والمخابراتية. ومثل هذا التطور للأحداث كان من شأنه تلافي انهيار الوحدة، ونجاحها، الأمر الذي يفقد السوفيات إمكانية تقديم تعاونهم للغرب في الشرق العربي، مقابل الحصول على تعاون الغرب، الذي أصبحوا بأمس الحاجة إليه، في أوروبا الشرقية.

وهكذا تقاطعت الممارسات الخاطئة للدكتاتورية الناصرية، مع المسارات السياسية الغربية والسوفياتية، التي قضت بضرورة ضرب الوحدة المصرية ـ السورية، بمختلف الأشكال، ومن ذلك القضاء على الجناح القومي في الحزب الشيوعي بشكل عام، وإزاحة فرج الله الحلو بشكل خاص. وتولى خالد بكداش، بصفته الأمين العام للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان، توصيل الإرادة السوفياتية إلى من يلزم، فاتخذت قيادة الحزب الكارتونية المطواعة القرار الإجرامي المستهتر، بإرسال فرج الله الحلو إلى دمشق، إلى بيت حزبي سري كان مكشوفاً للمخابرات السراجية،

قبل شهرين من وصول فرج الله إليه، حيث اعتقل لحظة وصوله بالضبط، وتمت تصفيته جسدياً تحت التعذيب، بعد بضع ساعات فقط.

وقد تواطأت المخابرات السوفياتية، والسراجية، وبكداش وقيادته الكارتونية، على إخفاء خبر موت فرج الله الحلو، والتظاهر أنه معتقل وحسب، وذلك من أجل إطالة أمد الحملة ضد الوحدة وضد عبد الناصر أطول مدة ممكنة. وهنا تتجلى مكيافيلية القيادة السوفياتية ـ البكداشية، بأبشع صورها الستالينية.

وبموت هذا المناضل الديمقراطي الوطني البطل، والقومي العربي الصادق والواعي، والقائد الشيوعي الحقيقي، ضربت القيادة السوفياتية ـ البكداشية أكثر من عصفور بحجر واحد:

**أولاً** ـ الاقتصاص من فرج الله الحلو والتخلص من الكابوس المبدئي والسياسي والحزبي الذي كان يمثله بالنسبة لها.

**ثانياً** ـ الاستفادة من إزاحته لشن حملة دولية شعواء ضد الوحدة المصرية ـ السورية، وضد عبد الناصر شخصياً، تحت ستار المطالبة بالإفراج عن فرج الله الحلو، ومن ثم استنكاراً لقتله.

**ثالثاً** ـ تقديم خدمة لا تثمّن للإمبريالية والصهيونية، بإعطاء ضرب الوحدة المصرية ـ السورية، طابعاً تقدمياً وديمقراطياً، معادياً للدكتاتورية، تماماً على الطريقة التي تم فيها إحتلال العراق، ويتم فيها الآن التحضير لتدمير سوريا من الداخل، باسم الحرية والديمقراطية.

ولعله يمكن القول أن المواجهة الغربية ـ السوفياتية المشتركة، ضد الوحدة المصرية ـ السورية، وهي المواجهة التي ذهب فرج الله الحلو كبش فداء فيها، كانت من أنجح العمليات المشتركة للمخابرات السوفياتية والغربية، الـ «كا جي بي» والـ«سي آي إيه» و«الموساد»، بعد الحرب العالمية الثانية. وكان القاسم المشترك الذي جمع الطرفين، هو الخوف من تلاقي القوميين العرب، الناصريين وغير الناصريين، مع الشيوعيين ـ القوميين، وظهور حركة قومية عربية ذات وجه إشتراكي حقيقي، وحركة شيوعية عربية ذات وجه قومي حقيقي.

وفيما بعد ردت الدول الإمبريالية الخدمة للسوفيات، حيث شهدت أوروبا الشرقية عملية مخابراتية سوفياتية ـ غربية مشتركة أخرى، خلال حركة دوبتشيك وما سمي «ربيع براغ» في تشيكوسلوفاكيا في العام 1968، إذ أن الدول الغربية سهلت للسوفيات إحتلال تشيكوسلوفاكيا والقضاء على تلك الحركة، لأن الطرفين، البيروقراطية السوفياتية والدوائر الامبريالية الغربية على السواء، خشيا إنتصار ظاهرة «إشتراكية ذات وجه إنساني»، التي دعا إليها دوبتشيك. وكما صفي فرج الله الحلو جسدياً، فقد جرى أيضاً تصفية دوبتشيك جسدياً، بعد إنتصار الديمقراطية! في تشيكوسلوفاكيا، بحادث سيارة مشبوه.

وكلمة أخيرة لا بد منها، وهي أن مؤامرة تصفية فرج الله الحلو لم تصبح صفحة مطوية في الماضي، لأن الذين قاموا بها وشاركوا فيها، من العملاء والعناصر الإجرامية للمخابرات القومية العربية، كما ومن قيادات الـ «كا جي بي»، في الأحزاب الشيوعية وغيرها،

لا يزالون يمارسون دورهم التخريبي والإجرامي، على النطاق العالمي، وفي مختلف البلدان العربية، متسترين بمختلف الأقنعة: «الشيوعية» و«الديمقراطية» و«الوطنية» و«القومية» و«الإسلامية».

## ـ آلية القمع الستالينية:

تناولنا في السابق المواقف السوفياتية، الستالينية في الأساس، والتي لا تخرج الخروشوفية عن كونها نسخة معدلة عنها. وهي المواقف الممالئة للغرب، في تطبيق إتفاقات «يالطا ـ بوتسدام» ـ التي أصبحت تدخل فيها إتفاقية «سايكس ـ بيكو» ـ. وبالتالي المعادية للوحدة العربية، والمؤيدة لتقسيم فلسطين والاعتراف بإسرائيل. وهذه المواقف السياسية هي التي تكمن خلف قرار القيادة السوفياتية في حينه، في التخلص الشخصي من فرج الله الحلو، للتخلص من خطه الشيوعي ـ العروبي المستقل، ولاستخدام اعتقاله وقتله ذريعة مكيافيلية لتبرير وتسعير الحملة على عبد الناصر وعلى الوحدة المصرية ـ السورية.

ومعلوم، في هذا الصدد، أن موقف القيادة البكداشية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان، كان يلتقي ـ أو بالأصح: يترجم على الأرض، وينفذ ـ موقف القيادة السوفياتية وأجهزتها، من القضية الفلسطينية وقضية الوحدة العربية عامة، والوحدة السورية ـ المصرية خاصة. ومن هنا إن القيادة البكداشية، في رأينا، كانت ضد فرج الله الحلو سياسياً وحزبياً، إلا أنها لم تكن لها القدرة لاتخاذ قرار تصفيته الجسدية، وهي لم تكن سوى إحدى أدوات تنفيذ القرار السوفياتي بإزاحة فرج الله الحلو.

وهنا يبرز سؤال منطقي جداً: هل إن الاختلاف السياسي، داخل الحزب الشيوعي السوري ـ اللبناني، وبين فرج الله الحلو والقيادة السوفياتية، كان يحتم التصفية الجسدية له؟ أم أنه كان من الممكن أن يبقى الاختلاف ضمن الإطار السياسي ـ التنظيمي؟

إذا أخذنا الوقائع، فإن الذي حدث فعلياً هو الشق الأول من السؤال، أي التصفية الجسدية. وعلى السؤال: هل كان ذلك حتمياً؟ يمكن الإجابة: أن آلية السلطة الستالينية، مع ستالين وما بعده كشخص، لم تكن تحتمل وجود المعارضة، لا داخل الإتحاد السوفياتي، ولا داخل المعسكر الإشتراكي، ولا داخل الحركة الشيوعية العالمية، ومنها الحركة الشيوعية العربية والحزب الشيوعي في سوريا ولبنان. ومع ذلك ففي تحليل الستالينية لا يجب وضع التشديد على الاختلاف السياسي معها، مهما كان الاختلاف مهماً بحد ذاته. فالستالينية قد تقلب مواقفها السياسية، حتى أكثرها أهمية وخطورة، 180 درجة. ولكن أياً كان موقفها السياسي، في اللحظة المعينة، فإن أداتها الرئيسية للتعامل مع جماعتها ومع خصومها، مع أصدقائها ومع أعدائها، مع المتفقين والموافقين معها ومع المعارضين لها، هو التطويع والتسلط والعنف والقمع. فما يسمى، بشكل عام، الستالينية، لا يجب البحث عنه في آلية المفاهيم والقناعات الفكرية والسياسية، بل في آلية السلطة، وبصفة أكثر تحديداً في آلية العنف السلطوي. فالأساس في الستالينية هو استخدام سلطة العنف، وعنف السلطة، اللتين تمارس بهما قناعاتها السياسية الظرفية، ضد جميع من تختلف معه، إذا رأت أنها تستطيع، أو أنه لا مفر لها من، مواجهته. وقد تبدى ذلك بشكل فضائحي، في

موقف الستالينية من الهتلرية. فبالرغم من فظائعية هذه الظاهرة الوحشية في تاريخ الإنسانية، وحتمية اصطدامها المصيري بالحركة الشيوعية، التي هي نقيضها المطلق، فإن الستالينية ظلت لسنوات مترددة في أن تدخل في المعركة ضد الهتلرية، أم لا. ولو لم يرتكب هتلر حماقة نقض إتفاقية مولوتوف ـ روبنتروب، والمبادرة لمهاجمة الإتحاد السوفياتي، لربما كانت نجحت المفاوضات التي كان يجريها السفير السوفياتي في برلين، حتى لحظة مهاجمة الإتحاد السوفياتي، للجمع بين الفوهرر والجنراليسيموس. ولو تم ذلك، لكان المارشال بيتان تحول إلى دمية صغيرة أمام الجنراليسيموس ستالين العظيم، في متحف المتعاونين مع هتلر، ولكان قام حلف دولي، ألماني ـ روسي، لا يعلم إلا الله ماذا كان سيكون مصير العالم في حال قيامه.

نستنتج من ذلك أنه لطالما وجد فرج الله الحلو في حالة خلاف مع الموقف السوفياتي ـ الستاليني في لحظة معينة، فإن حُل هذا الخلاف لم يكن ليتم في إطار النقاش الفكري والسياسي والتنظيمي، بل إن التخلص منه، بهذا الشكل أو ذاك، كان حتمياً.

ولكن هذا لا يعني أوتوماتيكياً أنه لو لم يتم تصفية فرج الله الحلو على أيدي المخابرات السراجية، فإنه كان من المحتم تصفيته جسدياً، بطرق أخرى، من قبل الستالينية وأدواتها البكداشية.

إننا نعلم، من تاريخ الستالينية، أنها قامت بالتصفية الجسدية لألوف، وربما عشرات ألوف، الشيوعيين الأجانب، غير الموثوق بهم، الذين شاء سوء حظهم أن يلجأوا إلى الإتحاد السوفياتي، هرباً

من. . . القمع الدموي في بلدانهم، بما في ذلك هرباً من الفاشية والنازية. وهكذا، ولسخرية القدر من لم يمت بالهتلرية، من هؤلاء الشيوعيين، مات بالستالينية. ولكننا لا نستطيع أن نقول الشيء ذاته عن التصفية الجسدية للمعارضين، خارج الإتحاد السوفياتي والدول الإشتراكية. في هذه الحالة، كانت تتم التصفية السياسية، والأدبية والمعنوية إذا صح التعبير. وكان هذا سيطال حتماً فرج الله الحلو، كما جرى له في العام 1947، حينما عزل من القيادة واستُكتب رسالة سالم المشينة. ولكن وجود إمكانية تصفيته الجسدية بالواسطة، أي دفعه إلى أيدي المخابرات السراجية، التي تولت هي تصفيته الجسدية، كانت ـ أي هذه الإمكانية ـ بمثابة فرصة لا تعوض، ولا يمكن تفويتها، بالنسبة للستالينية. ولكن السوفيات لم يكن بإمكانهم الطلب مباشرة من فرج الله الحلو أن يذهب إلى سوريا، للوقوع في فخ المخابرات. لهذه الغاية كان يقتضي وجود قرار قيادي حزبي بإرسال فرج الله إلى سوريا. وهنا كان دور بكداش شخصياً، ودور قيادة «الحزب الشيوعي»، التي كانت خاضعة لنفوذ وسطوة بكداش.

ونخلص من ذلك إلى القول: إن الستالينية كانت على استعداد للتصفية الجسدية لأي كان، في أي مكان آخر خارج الإتحاد السوفياتي والدول الإشتراكية، حيث تتاح لها الفرصة لذلك. وإن التصفية الجسدية لفرج الله الحلو، من قبل الستالينية، لم تكن لتحدث، لو لم تكن هناك إمكانية لذلك. ولكنه، طالما أنه كانت توجد مثل هذه الإمكانية، فقد كانت التصفية الجسدية حتمية. وهذا ما حدث بالفعل.

# عيسات إيدير
# (1919 ـ 1959)

## ـ المولد والنشأة:

ولد عيسات إيدير في قرية جمعة صهاريج قرب مدينة تيزي وزو عام 1919 من عائلة فلاحية متواضعة الحال. تلقى تعليمه الإبتدائي في مدرسة قريته ومنها انتقل إلى مدرسة تكوين الأساتذة في بوزريعة لمواصلة دراسته ومن هذه الأخيرة انتسب إلى المعهد الثانوي الفرنسي في تيزي وزو، واستمر في هذا المعهد حتى حصوله على شهادة القسم الأول من التعليم الثانوي، إلا أن الحالة الإقتصادية لأسرته حالت دون الاستمرار في الإنفاق عليه مما أرغمه على ترك مقاعد الدراسة.

وفي العام 1935 سافر إلى تونس وسكن عند عمه حيث تابع دراسته العليا في الإقتصاد في الجامعة التونسية حتى العام 1938. في سنة 1944 دخل عيسات إيدير ورشة صناعة الطيران ولم يلبث حتى رقي إلى رتبة رئيس قسم المراقبة الإدارية مما دفع بإدارة الورشة لإرساله إلى المغرب ليقوم بنفس العمل في مطار الدار البيضاء.

## ـ دوره في الحركة النقابية الجزائرية:

في هذا الوسط العمالي بدأت تظهر ميوله النقابية واهتم بالدفاع عن مصالح العمال الجزائريين، مما دفع برفاقه إلى انتخابه عضواً في اللجنة التنفيذية لعمال الدولة، وهي لجنة تابعة للنقابات الشيوعية الفرنسية.

خلال عمله النقابي ضمن هذه اللجنة شعر بأن النقابات الفرنسية حتى ولو كانت شيوعية الميول لا تهتم بالعامل الجزائري بقدر ما تهتم بقضايا وانشغالات العمال الأوروبيين.

بعد عودته إلى الجزائر، بدأت تراوده فكرة تأسيس منظمة نقابية جزائرية. أثارت أفكار عيسات إيدير حفيظة النقابات الفرنسية فأخذت تسعى لإبعاده عن مناصب المسؤولية. وفي العام 1951 داهمت الشرطة الفرنسية المصنع الذي كان يعمل فيه وألقت القبض عليه برفقة 10 عمال جزائريين ولم يطلق سراحه إلا بعد 10 أيام. بعدها التحق بوظيفة أخرى في صندوق المنح العائلية التابع لقطاع البناء والأشغال العمومية، وأصبح مسؤولاً عن اللجنة المركزية للشؤون النقابية التابعة لحركة إنتصار الحريات الديمقراطية من العام 1949 وحتى العام 1954. كان نشاطه لبث العمل النقابي سبباً لسجنه مرة أخرى من قبل السلطات الاستعمارية في 22 كانون الأول/ ديسمبر عام 1954، وقبيل اندلاع الثورة المسلحة أطلق سراحه.

## ـ قيادته للإتحاد العام للعمال الجزائريين:

كان لجهود عيسات إيدير ومساعيه الأثر الكبير في تأسيس أول منظمة نقابية جزائرية متمثلة في الإتحاد العام للعمال الجزائريين في شباط/ فبراير عام 1956. وقد عين أميناً عاماً.

لقد مكنه هذا المنصب أن يشرف على تنظيم فروع وخلايا الإتحاد واستمر على هذا النحو حتى تاريخ توقيفه في 23 أيار/ مايو عام 1956 بأمر من روبير لاكوست الوزير المفوض في الجزائر.

## ـ ظروف اغتياله وردود الفعل العالمية:

ألقي عليه القبض من طرف السلطات الاستعمارية كما في يوم 23 أيار/ مايو عام 1956 بسبب نشاطه النقابي وأدخل سجن البرواقية، ومنه إلى عدة معسكرات التوقيف منها سان لو، آفلو، بوسوي، ومن هذا الأخير نقل إلى العاصمة ليوضع في سجن برباروس.

من التهم التي ألصقتها به السلطات الاستعمارية تهمة النيل من أمن الدولة الفرنسية الخارجي.

في يوم 13 كانون الثاني/ يناير عام 1959 أصدرت المحكمة العسكرية حكمها ببراءته. ولكن بالرغم من تبرئته فإنه لم يطلق سراحه وإنما نقل من جديد إلى معتقل بئر تراريا حيث تعرض لأبشع أنواع التعذيب وأقساها مما اضطر إدارة المعتقل إلى نقله إلى المستشفى العسكري.

توفي عيسات إيدير في 26 تموز/ يوليو عام 1959 متأثراً بالتعذيب المسلط عليه.

أثار اغتيال الأمين العام للإتحاد العام للعمال الجزائريين موجة واسعة من الاستنكار والسخط في أنحاء عدة من العالم. وقد وردت

برقيات الاحتجاج والاستنكار من المنظمة العالمية للنقابات الحرة وجامعة النقابات العالمية والإتحاد العالمي للزراعيين والنقابيون العرب والنقابات الشيوعية الفرنسية. ولم تكتف هذه الهيئات بالاستنكار وإنما طالبت الحكومة الفرنسية بتسليط الضوء على الظروف الغامضة التي رافقت عملية اغتياله.

# هزاع المجالي
# (1919 ـ 1960)

وُلد الشهيد هزاع المجالي في أواخر عام 1919 وتلقى دراسته الإبتدائية عند أخواله الوفديين في ماعين، ثم انتقل إلى مدرسة الربة حيث التحق بعدها بمدرسة الكرك ثم انتقل لإنهاء الثانوية العامة في مدرسة السلط الثانوية واستمر بتفوقه وتميزه وبعد إنهائه دراسته عمل في إدارة الأراضي والمساحة، ثم كاتباً في محكمة صلح، بعدها اختار دراسة القانون في دمشق ليعود ويعمل في التشريعات الملكية.

وكان المغفور له جلالة الملك عبد الله الأول قد أصدر قراراً بتعيينه رئيساً لبلدية عمان رغم صغر سنه، ثم عين وزيراً للزراعة ووزيراً للعدل في حكومة سمير الرفاعي وفاز في الانتخابات النيابية عن منطقة الكرك مرتين الأولى عام 1951 والثانية عام 1954 وعين خلالها وزيراً للداخلية.

وشكّل هزاع المجالي الحكومة أول مرة عام 1955 ولم تدم سوى ستة أيام ثم عين وزيراً للبلاط الملكي عام 1958، وشكل الوزارة مرة أخرى عام 1959 حيث شهدت تلك الحقبة إقامة مشروعات هادفة وتطوراً في الأداء الإعلامي والإذاعي واختار

ليساعده في تطوير الإعلام رفيق دربه الشهيد وصفي التل ليكون مديراً للتوجيه الوطني.

وفي الساعة العاشرة والنصف من صباح يوم الاثنين التاسع والعشرين من آب/أغسطس عام 1960، كان هزاع على موعد مع الشهادة حيث كان يستقبل كل يوم اثنين من كل أسبوع جموع المواطنين لتلبية مطالبهم وحل مشاكلهم.

استمهل المجالي زواره لحظات لقضاء بعض القضايا في مكتبه ويعود إليهم، ويقضي لهم حاجاتهم، وعند الساعة الحادية عشرة والنصف سمع دوي انفجار عنيف، فانهارت جدران وسقوف، وتصاعدت في الجو سحابة من الغبار، وتعالت صرخات الاستغاثة هنا وهناك، وذهل كثيرون لهول المفاجأة وأيقنوا أن كارثة قد وقعت.

وخرج موظفو الرئاسة والحكومة الذين نجوا يستطلعون حقيقة ما جرى، وسرعان ما أدركوا أن غرفة رئيس الوزراء هي المستهدفة في الانفجار، وقد حل بها الدمار.

لم تكد تمر عشرون دقيقة على الانفجار الأول، وكان الناجون يبحثون بين الركام عن زملائهم، حتى دوى انفجار ثاني في مبنى مجلس الوزراء الطابق الأرضي.

كان هذا الحادث هو الأول من نوعه في المملكة الأردنية، وأدت هذه الانفجارات إلى مقتل اثني عشر شخصاً من بينهم رئيس الحكومة هزاع المجالي، ومن الضحايا الذين قضوا معه هم:

زهاء الدين الحمود وكيل وزارة الخارجية، عاصم التاجي مدير عام السياحة، جمال عطوي المجالي شيخ مشايخ الكرك[1].

والشهيد المجالي يحمل العديد من الأوسمة والميداليات الوطنية وكان شديداً في الحق وحريصاً على مصلحة الوطن والمواطن.

---

(1) جريدة «الرأي» الأردنية، تاريخ 21/ 8/ 1983، مقال للسيد سليمان الموسى.

# صالح بن يوسف
# (1909 - 1961)

إن صالح بن يوسف هو من أبرز السياسيين التونسيين، ومن مؤسسي «حزب الدستور» الجديد.

ولد بن يوسف في العام 1909 في جزيرة جربا التونسية، درس الحقوق وبدأ في العمل السياسي منذ شبابه في صفوف «حزب الدستور» قبل تأسيسه إلى جانب الرئيس الحبيب بو رقيبة والمطيري عام 1934.

ولم يمض وقت قصير حتى اعتقل زعماء الحزب الجديد ومن بينهم صالح بن يوسف وبعض الشيوعيين، وظل في المنفى والمعتقل حتى 23 أيار/مايو عام 1936.

وفي العام 1938 أعيد اعتقاله من جديد مما أثار حملة احتجاجات ومظاهرات عارمة. ولكن هذا لم يمنع سلطات الإحتلال الفرنسي من المضي في حملات الاعتقال وحل الأحزاب المعارضة.

وفي العام 1948، اعتقل على أثر مؤتمر «حزب الدستور» الجديد الذي انعقد في تونس وكان أمينه العام، وأصبح الحبيب بورقيبة رئيساً له.

وفي آب/أغسطس عام 1950 عين وزيراً للعدل في حكومة محمد شنيك. وكان الغرض من هذه الحكومة تمهيد الطريق للوصول إلى السيادة الكاملة بشكل تدريجي. وفي 15 كانون الأول/ ديسمبر عام 1951 أوقفت الحكومة الفرنسية هذه المفاوضات وعمدت في 16 آذار/مارس عام 1952، إلى اعتقال أعضاء الحكومة باستثناء صالح بن يوسف الذي تمكن من الفرار في اللحظة المناسبة.

وفي آب/أغسطس عام 1954، قبل حزب الدستور الجديد بقيادة بورقيبة إتفاقية الإستقلال الذاتي، التي تضع السياسة الخارجية التونسية ومسألة الدفاع الوطني في أيدي السلطات الفرنسية كخطوة أولى نحو الإستقلال الكامل. وقد أدى ذلك إلى حصول أول صدام علني بين زعيمي الدستور الجديد: بورقيبة وصالح بن يوسف.

## - صراع بورقيبة وبن يوسف:

كان مؤتمر عاصمة الجنوب صفاقس لـ«الحزب الحرّ الدستوري» منعرج الصراع، ومنعرج الإستقلال لقد شكل الصراع داخل الحزب بين شقين: شق بورقيبي يؤمن بالحوار المباشر، وشق يوسفي يؤمن بالحوار المسلح نقطة دفع لنيل الإستقلال. إذ لا يمكن وبالنظر إلى تاريخية حركات الإستقلال في العالم والوطن العربي خاصة قيادة المسيرة نحو التخلص من عبء المستعمر بسلاح واحد سلاح المقاومة، التي قد نجدها عند المستعمر الفرنسي والإنكليزي سابقاً أو الإسرائيلي الآن ذريعة للتصعيد الحربي وقتل الزعامات السياسية بطرق مختلفة. بل إن سلاح التفاوض السلمي المباشر أو غير

المباشر سبيل للمقاومة والعمل بحجة الإقناع لا بحجة القوة. والأهم كما يقول الراحل الحبيب بورقيبة أن «العبرة بالنتائج». هذه النتائج التي كانت منطقية وعملية عند دراسة واقعها ووقائعها بعد أكثر من نصف قرن من الإستقلال. إلا أن أجواء ذلك المؤتمر المشحونة جعلت مساره يتجه إلى تبرير وإقناع المؤتمرين بضرورة المحافظة على إتفاقيات 3 حزيران/ يونيو عام 1955 ورفض رؤى ومواقف صالح بن يوسف التصعيدية أكثر منها ضبطاً لسياسة إقتصادية وإجتماعية سيحتاجها المجتمع في تلك الفترة. خطة الديوان السياسي ـ كما ذهب إلى ذلك الحبيب بورقيبة في خطابه الذي دام خمس ساعات ـ هو عدم نقض الإتفاقيات والعهود. ولذلك عاد بورقيبة إلى التاريخ العربي ـ تاريخ إبرام الإتفاقيات والتحالفات بين القريشيين والرسول ﷺ أثناء بناء الدولة الإسلامية الأولى على رأي الأستاذ هشام جعيط بمحيطه المتقلب ـ وكيف أبرم العهود ولم يتراجع عن تعهداته. كل ذلك مع حضور لزعامات عربية وإسلامية زاد من حجم الإقناع عند الزعيم بورقيبة لضرب خصومه. وعند الوهلة الأولى لأشغال المؤتمر وحسب ردّ بورقيبة على برقية بن يوسف اتضح موقف صاحب الإستقلال الداخلي من غريمه. لكن ذلك لم يثنه عن المناورة معه عندما طلب من المؤتمرين إمكانية توجيه الدعوة له ثانية لبسط وجهة نظره.

لذلك فإن خطب الحبيب بورقيبة وخاصة في المنعطفات الخطيرة والمنعرجات الحاسمة تنفلت من كل تصنيف وتستعصي على الفهم لطبيعة آليات المناورة عند هذا الخطيب السياسي البارع. في هذه الوثائق التي نعرضها والآراء التي نتوقف عندها وبالعودة إلى

نصوص مؤتمر صفاقس المؤتمر الخامس للحزب الحر الدستوري الصادر عن وزارة الشؤون الثقافية والأخبار في أيلول/ سبتمبر 1971 تنجلي بعض الحقائق في الصراع البورقيبي - اليوسفي الذي كان صراع زعامات في باب منه أكثر من صراع برامج.

شكل مؤتمر صفاقس منعرجاً حاسماً في تاريخ مؤتمر الحزب الحر الدستوري إذ هو المؤتمر العلني الأول منذ العام 1937 وخاصة بعد صدور قرار من المقيم العام الفرنسي بإلغاء القرار الذي قضى بحل الحزب يوم 12 نيسان/ أبريل عام 1938 على أثر حوادث 9 نيسان/ أبريل وصدر قرار المقيم العام في 30 كانون الأول/ ديسمبر 1954. ذلك المؤتمر المنعرج انعقد بعد معركة حاسمة وهي التي انطلقت شرارتها في 18 كانون الثاني/ يناير عام 1952 حيث اعتقل الزعيم الحبيب بورقيبة ولم تنته إلا باعتراف فرنسا لتونس بالحكم الذاتي يوم 31 تموز/ يوليو عام 1954 وإبرام الإتفاقية ذات الشأن في 3 حزيران/ يونيو 1955 بين الحكومة الفرنسية والحكومة التونسية.

لكن المتربصين بالخارج كثر، فلم يسلم غلاة الاستعمار في تونس وأنصارهم في باريس بالوضع الجديد. فرغم فشل حملتهم العنيفة في البرلمان والصحافة ضد حكومة بلادهم قصد تعطيل المفاوضات وإرغام منداس فرانس ثم إدغار فور على نكث العهد، عهد تموز/ يوليو عام 1954، فقد عمدوا كذلك إلى تخريب إتفاقيات الحكم الذاتي وذلك بواسطة «اليد الحمراء» إذ اغتالت ونسفت وأرهبت الكثير من المناضلين والمواطنين. في هذا الظرف السياسي المتأزم، إضافة إلى الانقسام بين البورقيبيين الذين اعتبروا الإستقلال

الداخلي خطوة إلى الإمام ستفضي حتماً إلى الإستقلال واليوسفيين الذين اعتبروا أنها خطوة إلى الوراء توجب العودة إلى الكفاح المسلح للظفر بالنصر النهائي»، في هذا الظرف اختار الديوان السياسي عقد المؤتمر في صفاقس بدعم من الهياكل الدستورية وتأطير من السيد أحمد علولو.

ذلك المؤتمر أراده بورقيبة لكسب التأييد الخارجي من الأشقاء العرب والأصدقاء والمسلمين، وقد عبر عن ذلك الحبيب بورقيبة بالقول: «إننا ما إن لاح لنا بارق من نور الحرية وذلك عند إحرازنا الحكم الذاتي - وهو غير الإستقلال - حتى بادرنا بتشريك إخواننا العرب والمسلمين في أعمال مؤتمرنا الأول المنعقد بصفاقس في 15 تشرين الأول/أكتوبر 1955. فقد حرصنا على دعوتهم ليشاطروننا النظر في شؤوننا ومستقبلنا وسير معركتنا الكبرى. وكنا نعتبر الاتصال المباشر والتشاور مع الأخوة، والحوار معهم فيما يخصنا، أكبر نصر أحرزناه بعد كفاح تواصل أكثر من عشرين سنة». وقد حضر ذلك المؤتمر عدد من الزعامات العربية وأخرى من بلدان صديقة وممثلين عن:

**الحكومة المصرية:** الشيخ أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف.

**الحكومة السعودية:** الشيخ خير الدين الزركلي مندوب المملكة العربية السعودية.

**الحكومة الليبية:** الشيخ عبد الرحمان قلهود وزير العدل.

**حكومة الهند:** الدكتور سامبو الممثل الشخصي للرئيس نهرو.

عن حزب المؤتمر الهندي: الآنسة موكورجي رئيسة قسم أفريقيا في «حزب المؤتمر».

عن لجنة الشعوب المولى عليها: السيد جان روس الكاتب العام للجنة.

عن الأحرار الفرنسيين: السيد هنري ندى مونتيتي رئيس هيئة العمل في تونس.

عن الصحافة المصرية: السيد حبيب جاماتي مندوب دار الهلال.

فهل الحبيب بورقيبة يبحث عن شرعية خارج الأسوار التونسية أم كان يحشد الأنصار في الداخل كما الأصدقاء من الخارج ضدّ مواقف الزعيم صالح بن يوسف إذ لم يخف هذا الشقاق أمام الملأ وفي الإجتماع العام؟ خاصة وأن صالح بن يوسف قد بدأ فيما بعد حملات التشهير بالحل السلمي والحلّ الوسط. أشغال المؤتمر التي ترأسها الباهي الأدغم عن اقتراح صدر من عبد الله فرحات وتنسيق وترتيب من أحمد علولو الذي جمّع الهياكل الدستورية ونبّه فيها رئيس المؤتمر إلى ضرورة أن يسود جو الجلسات شيء من التفهم والنظام والتزام اللياقة الدستورية، في إشارة منه إلى الأجواء المشحونة والاستثنائية في تلك الفترة».

وكانت أول نقطة برزت للبت فيها ولم تكن شكلية هي دعوة صالح بن يوسف، إذ قال الراحل الباهي لدغم: «إن أول مسألة يتعين البت فيها حالاً هي الاقتراح الذي تقدم به الزعيم الحبيب بورقيبة صباح اليوم بخصوص دعوة الأستاذ صالح بن يوسف إلى

المؤتمر والاستماع إلى وجهة نظره فيما يتعلق بالإتفاقيات. وكان لابد أن تصدر الدعوة عن المضيف أحمد علولو الذي نظم المؤتمر في جهته فكانت البرقية وهذا نصها:

«الأستاذ صالح بن يوسف، حسب قرار صادر عن مؤتمر الحزب في الساعة التاسعة من يوم الأربعاء لأول جلسة قانونية لي الشرف بإبلاغكم دعوة للحضور معنا في أقرب وقت مناسب لبسط وجهة نظركم في الإتفاقيات والسياسة التي يتبعها الحزب. والرجاء ضرب موعد لإخوانكم المؤتمرين في حالة قبولكم الدعوة».

هذه البرقية الدبلوماسية قد يكون المؤتمرون على علم بفحواها وردّ فعل المدعو الذي اعتبر أن الدعوة شكلية لتبرير عقد المؤتمر وإقصائه وزملائه من التوجه النضالي السلمي الجديد للحزب وهو يقبل على مرحلة حوار لا صراع أو إدارة الصراع بآليات الحوار وهذا ما سينعكس فيما بعد على علاقة الطرفين أو الشقين وتحول الصراع من ضدّ المستعمر إلى صراع ضدّ رفقاء الدرب. صالح بن يوسف وقّع على برقية الردّ باعتباره الأمين العام للحزب الحرّ الدستوري التونسي ورجا أن تعتبر في نصها أميناً عاماً فعلاً: «حضرة الدكتور أحمد علولو، أشكركم على دعوتكم لحضور إجتماعكم بصفاقس وأرجو أن تكونوا بدعوتكم هذه لا تزالون تعتبرونني الأمين العام للحزب الحرب الدستوري. وعلى هذا الأساس سأوجه دعوة إلى كل الشعب الدستورية المنضوية تحت لواء الأمانة العامة للحزب للحضور. ولا يمكن أن يتم ذلك قبل أسبوع. فأرجو تأجيل الإجتماع إلى أسبوع ابتداءً من اليوم وأؤكد لكم شعوري الأخوي

الدستوري الخالص. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

## - رفض رد صالح بن يوسف:

تناول الكلمة الرئيس الحبيب بورقيبة، فتعرض إلى رد صالح بن يوسف على الدعوة التي وجهها إليه المؤتمر وقال: «أرى أن لا فائدة في إضاعة الوقت في الجزئيات. فلتتركوا ذلك جانباً وليكن الجواب عن المراوغة والمناورات الدخول حالاً في مناقشة اللائحة السياسية، وهي جماع الأفكار التي بسطتها عليكم أول أمس». ثم تلا اللائحة السياسية الخاصة بالإتفاقيات التونسية - الفرنسية المبرمة يوم 3 حزيران/ يونيو 1955، فتمت المصادقة عليها بالإجماع. وفي خطابه الذي دام ساعات وسعى فيه إلى مغازلة الأشقاء العرب بخطاب ديني مفتوح وضع تونس في عمق خارطتها العربية والإسلامية بالقول: «إن تونس الشرقية بثقافتها العربية، بدينها الإسلامي، الغربية بموقعها والتي يدعوها أهل المشرق بالمغرب لا فرق بينها وبين الجزائر ومراكش وحتى ليبيا بما فيها طرابلس وبرقة، إذ كنا مغاربة في قلب الغرب، جديرة متى أصبحت مستقلة بأن تكون أداة وصل بين حضارتين عظيمتين يحق للبشرية أن تفتخر بهما على حد السواء».

كما ذهب إلى ذلك الصحافي لطفي حجي في كتابه «حول بورقيبة والإسلام» الصادر عن دار الجنوب للنشر، وإذ اعتبر هذا التأكيد على البعد الإسلامي في نضال التونسيين مدخلاً ضرورياً فإن الحبيب بورقيبة ركز في رده على آراء اليوسفيين على أهمية إعتبار الإستقلال الداخلي والذاتي خطوة إلى الإمام.

ولم يكن السبب الرئيسي والمغزى الأهم من مؤتمر صفاقس الذي جرى في العام 1955 أن يصادق على خطة الإستقلال الجزئي ولا النظر في القضايا الإجتماعية والسياسية. التي ظلت ثانوية في نظر بورقيبة كما في نظر المؤتمرين وهذا ما يفسر فحوى الخطاب البورقيبي على تبرير الإتفاقيات وإبراز بطلان حجة خصومه. لكن ألم تكن النظرة المتأتية لهذا الحديث بعد أكثر من 50 سنة لتؤكد أن كلا الموقفين كانا مناسبين للضغط السياسي والدبلوماسي والكفاحي المسلح على فرنسا كي تقبل بإستقلال البلاد؟ ألم تكن سياسة العصا والجزرة هي الأقرب للوصول إلى النتائج ولطالما كرر بورقيبة لرفاقه أن العبرة بالنتائج؟

عاد بن يوسف إلى تونس في العام 1955، ليقود حملة عنيفة ضد سياسة قيادة الحزب التي فصلته في مؤتمر صفاقس، مما أدى إلى حصول انشقاق في الحزب. كما قاطع اليوسفيون الانتخابات التي جرت في العام 1956. وفي كانون الثاني/ يناير 1956، لجأ صالح بن يوسف إلى طرابلس الغرب في الوقت الذي قرر فيه بورقيبة إلقاء القبض عليه ومحاكمته. وبالفعل فقد صدر عليه حكم غيابي بالإعدام، وقد بدأ بن يوسف من الخارج سياسة معارضة شديدة لبورقيبة، وكان المقر الرئيسي لنشاطاته في القاهرة، مما جعل العلاقات بين مصر وتونس تتأزم. وفي العام 1961 سافر بن يوسف إلى ألمانيا الغربية حيث اغتيل في فرنكفورت في شهر آب/ أغسطس عام 1961 في ظروف لا تزال غامضة حتى الآن.

# باتريس لومومبا
# (1925 ـ 1961)

ولد باتريس لومومبا عام 1925 في ستانليفيل كيسانغاني بمقاطعة الكونغو الشرقية، وينتمي إلى قبيلة باتيليلا وهي جزء من قبيلة المونغو. وهو من أبناء النخبة الكونغولية التي حظيت بالتعليم في فترة الاستعمار البلجيكي المتحالف معه.

ولكن لومومبا قاوم الاستعمار البلجيكي وأسس الحركة الوطنية عام 1958 وكانت أقوى الحركات السياسية في الكونغو. وحظي لومومبا بشعبية واسعة وقاد مظاهرات ومواجهات مع الاستعمار البلجيكي أدت إلى اعتقاله لمدة ستة أشهر، وأفرج عنه لإنجاح المفاوضات التي كانت تجري في بروكسل لبحث مستقبل الكونغو، ونقل من السجن إلى بروكسل بالطائرة، وتم الإتفاق على إستقلال الكونغو وإنهاء ثمانين عاماً من الاستعمار البلجيكي.

أجريت انتخابات نيابية في أيار/مايو عام 1960 تنافس فيها أكثر من مائة حزب، وحققت الحركة الوطنية بقيادة لومومبا إنتصاراً نسبياً. وحاولت بلجيكا التي كانت تدير البلاد إخفاء النتائج وإسناد الحكم إلى حليفها جوزيف إليو، ولكن الضغط الشعبي أجبرها على

تكليف لومومبا بتشكيل الحكومة. وشكّلت أول حكومة كونغولية منتخبة في 23 حزيران/يونيو عام 1960 وقام ملك بلجيكا بودوان بتسليم الحكم رسمياً. وحدثت أزمة سياسية أثناء حفل التسليم، فقد ألقى لومومبا خطاباً أغضب البلجيكيين وسمي بخطاب «الدموع والدم والنار» تحدث فيه عن معاناة الكونغوليين وما تعرضوا له من ظلم واضطهاد. وكان الملك بودوان قد سبق لومومبا بحديث أغضب الكونغوليين واعتبروه مهيناً ويفتقر إلى اللياقة.

لم تنعم الكونغو بالإستقلال سوى أسبوعين، فقد دخلت في سلسلة من الأزمات لم تتوقف حتى اليوم. ووجدت حكومة لومومبا نفسها تواجه أزمات كبرى: تمرد عسكري في الجيش، وانفصال إقليم كتانغا أهم إقليم في الكونغو بدعم من بلجيكا، واضطرابات عمالية.

قرر لومومبا دعوة قوات الأمم المتحدة للتدخل لمساعدته على توحيد الكونغو وتحقيق الاستقرار، ولكنها تدخلت ضده. وانفض عن لومومبا عدد من حلفائه الأساسيين بدعم أميركي وبلجيكي، وساءت علاقته مع رئيس الجمهورية كازافوبو. ورغم أن منصب رئيس الجمهورية شرفي والسلطة الفعلية بيد رئيس الوزراء، فإن كازافوبو أعلن إقالة الحكومة، ولكن مجلس الشيوخ صوت بأغلبية كبيرة ضد القرار.

أعلنت مقاطعة كازائي انفصالها عن الكونغو ودخلت في إتحاد مع كتانغا. واستغل موبوتو رئيس هيئة الأركان هذه الفوضى فاستولى على السلطة عام 1961 في انقلاب عسكري هو الأول من

نوعه في أفريقيا في ذلك الوقت. وألقي القبض على لومومبا واثنين من أهم رفاقه هما: نائب رئيس مجلس الشيوخ جوزيف أوكيتو، ووزير الإعلام موريس مويولو، وأعدموا على يد فصيل من الجيش البلجيكي.

ووفقاً لكتاب نشر في هولندا عام 2002 ألفه لودو دي فيتي بعنوان «اغتيال لومومبا» ـ هذا الكتاب ثمرة جهد موضوعي، منصف، استمر طويلاً ـ سعى المؤلف من خلاله إلى إزاحة الستار عن أسرار إحدى الجرائم الاستعمارية الأكثر بشاعة، والتي ارتكبت في القرن العشرين وراح ضحيتها الزعيم الأفريقي باتريس لومومبا الذي ناضل من أجل حرية وطنه، الكونغو، وإستقلاله، ومن أجل وحدة القارة الأفريقية التي ينتمي إليها. ومؤلف الكتاب، لودو دي فيتي، عالم إجتماع، وكاتب معروف، وقد ترجم كتابه إلى أربع لغات، وأدى نشره إلى قيام البرلمان البلجيكي بتشكيل لجنة تحقيق رسمية لبحث ملابسات عملية اغتيال باتريس لومومبا، بعد أن ظلت الشكوك تحوم حول هوية مرتكبيها والضالعين معهم لأكثر من أربعين عاماً، بينما كان واضحاً أن مسؤولية مؤامرة الاغتيال تقع بكاملها على عاتق شركاء كثيرين تتصدرهم الحكومتان البلجيكية والأميركية ووكالة الـ «سي. أي. إيه» وهيئة الأمم المتحدة.

واعتماداً على وثائق بلجيكية سرية حصل عليها المؤلف، فإن لومومبا اعتقل عام 1961 في مطار إليزابثفيل لدى هبوطه من الطائرة على يد درك كتانغا بقيادة خصمه تشومبي المتحالف مع موبوتو،

وكان ستة جنود سويديين تابعين لقوات الأمم المتحدة حاضرين لحظة الاعتقال.

ونُقل لومومبا ورفاقه إلى سجن بلجيكي في سيارة جيب يقودها ضابط بلجيكي، وأعدموا رمياً بالرصاص بعد بضع ساعات على يد كتيبة إعدام يقودها ضابط بلجيكي، وتم التخلص نهائياً من الجثث بعد أربعة أيام بتقطيعها إلى قطع صغيرة وإذابتها في حمض الكبريت. ونفذ هذه المهمة ضابط شرطة بلجيكي اسمه جيرارد سويت، وكان الحمض في شاحنة مملوكة لشركة تعدين بلجيكية. وقد اعترف سويت بذلك في لقاء تلفزيوني أجري معه، وقال إنه احتفظ باثنين من أسنان لومومبا كتذكار لسنوات عدة، ثم تخلص منهما بإلقائهما في بحر الشمال.

«يوماً ما.. سيقول التاريخ كلمته، ولكنها لن تكون كلمة التاريخ الذي يلقنونه في الأمم المتحدة، أو واشنطن، أو باريس، أو بروكسل.. وإنما التاريخ الذي يتعلمه الناس في البلاد التي خلصت نفسها من أسر الاستعمار والدمى التابعة له. أفريقيا هي التي ستكتب تاريخها، وسيكون تاريخ الصحراء الكبرى ـ شمالها وجنوبها ـ حافلاً بالمجد والكرامة».

بتلك الكلمات الحزينة كان الزعيم الأفريقي باتريس لومومبا يودع زوجته في رسالة كتبها إليها قبيل اغتياله في 17 كانون الثاني/ يناير 1961. كان لومومبا أول رئيس وزراء لجمهورية الكونغو، ورائداً من رواد الوحدة الأفريقية. وقد فاز في انتخابات ديمقراطية ليقود حزب الحركة الوطنية الكونغولية الذي كان قد أنشأه عام

1958. وكان لومومبا في قلب حركة التمرد والتحدي الشعبي المتزايد للحكم الاستعماري الاستبدادي الذي فرضته بلجيكا على بلاده. وعندما فازت بلاده بالإستقلال في حزيران/ يونيو 1960 استقبل الشعب خطابه في الاحتفال الرسمي في كينشاسا بحماس شديد، وأصبح بطل الملايين من أبناء وطنه، واعتبره أولئك الذين كانوا يسعون إلى الاحتفاظ بقبضة إمبريالية خفية على الكونغو، خطراً داهماً عليهم، وخلال أشهر قلائل كانوا قد حاكوا مؤامرة غادرة للخلاص منه، فاعتقل مع بعض وزرائه، وتعرض لتعذيب مروع، وأعدم، ثم أذيب جثمانه بمواد كيميائية، إمعاناً في إخفاء معالم الجريمة.

ويكشف الكتاب المدى الهائل للأكاذيب والنفاق والخيانات التي أحاطت بوقائع اغتياله منذ لحظات الإعداد له. وقد استعان المؤلف بعدد كبير من المصادر الرسمية والشهادات الشخصية للعديد من الأشخاص الذين كانوا في الكونغو آنذاك. ويفضح المؤلف، لودو دي فيتي، شبكة التواطؤ التي كانت تجمع بين الحكومة البلجيكية، ووكالة المخابرات المركزية الأميركية، كما قام بتحليل مذكرات رسمية مرعبة تحمل تفاصيل ما أسمته بـ «التصفية» وتتمسح بحجة «تهديد المصالح الوطنية»، فضلاً عن القصص المفزعة لإخفاء أدلة جريمة الاغتيال والتلاعب بها في واحد من أشد فصول سياسات القرن العشرين سواداً وقبحاً.

ويذكر المؤلف أن الكتاب عندما نشر لأول مرة وكان ذلك باللغة الهولندية ركزت وسائل الإعلام على النتيجة الرئيسية التي

انتهى إليها، ومفادها أن الحكومة البلجيكية هي المسؤولة الأولى عن اغتيال رئيس الوزراء الكونغولي باتريس لومومبا، ولكن دي فيتي يرى أن الأطراف الأخرى مسؤولة عن ذلك على قدم المساواة، ويقول: «صحيح إن البلجيكيين والكونغوليين قاموا بالفعل بقتل لومومبا، ولكن ذلك لم يكن ليتم من دون الخطوات التي اتخذتها واشنطن والأمم المتحدة خلال الشهور السابقة على الجريمة. ففي تموز/يوليو 1960 وبعد التدخل البلجيكي في الكونغو، وبعد انفصال إقليم كاتانجا الغني بالنحاس، بدأت الولايات المتحدة في العمل وأيدت تدخل الأمم المتحدة لمنع لومومبا من الاستعانة بجيوش الدول الأفريقية الصديقة أو بالإتحاد السوفييتي لمساعدته على مواجهة العدوان البلجيكي ـ الكاتانجي. فقام داج همرشولد الأمين العام للأمم المتحدة بنشر مجموعات من القوات العسكرية، وتولى جنود الأمم المتحدة حماية كاتانجا، ولعبوا دوراً حاسماً في الإطاحة بحكومة الكونغو. وفي الوقت نفسه أصدر الرئيس الأميركي دوايت إيزنهاور تعليماته إلى مساعديه لتصفية لومومبا، وقد أسندت مهمة التخلص منه إلى وحدة بالغة السرية في وكالة المخابرات المركزية الأميركية، ورحبت بروكسل بهذه المهمة ترحيباً حاراً، وأرسلت أيضاً وحدة عمل من الكوماندوز لهذا الغرض نفسه.

## ـ نهر مليء بالتماسيح:

بينما كانت أميركا وبلجيكا تخططان للجريمة، كانت قوى غربية أخرى على الدرجة نفسها من الاقتناع بأن الزعيم الأفريقي يمثل

خطراً كبيراً على مشروعها الاستعماري الجديد في أفريقيا. وفي 19 أيلول/سبتمبر عام 1960 اجتمع الرئيس الأميركي ووزير الخارجية البريطاني اللورد هيوم لبحث أزمة الكونغو. ويستفاد من محضر ذلك الإجتماع أن بريطانيا كانت على علم بخطة واشنطن لاغتيال لومومبا الذي كانوا قد أطاحوا به بالفعل من منصبه، ويورد المؤلف بهذا الصدد الفقرة التالية من ذلك المحضر: «أعرب الرئيس عن تمنيه أن يسقط لومومبا في نهر مليء بالتماسيح».

وقال لورد هيوم: «مما يدعو للأسف أننا فقدنا كثيراً من تقنيات الدبلوماسية القديمة»، وبعد أسبوع التقى إيزنهاور ورئيس الوزراء البريطاني هارولد ماكميلان وبرفقتهما وزيرا خارجية البلدين، وتبين سجلات ذلك الإجتماع بوضوح النوايا البريطانية، وبما لا يدع شيئاً للاستنتاج وذلك على الوجه التالي:

«تساءل لورد هيوم عن سبب عدم الخلاص من لومومبا في الوقت الحاضر، ذلك لأنه إذا عاد إلى السلطة مرة أخرى فسوف يسبب ذلك ضغطاً مباشراً على مسألة كاتانجا، مما يدفعنا إلى مواجهة جميع أنواع الخلافات القانونية».

وركز لورد هيوم على أن هذا هو الوقت المناسب للتخلص من لومومبا. . وفي الوقت نفسه، وعلى الجانب الآخر من الأطلسي، كان مسؤولون بريطانيون كبار يتشاورون مع اللورد ادوارد هيث ـ الذي أصبح رئيساً للوزراء فيما بعد ـ.

ويتساءل المؤلف: هل كان وجود فكرة اغتيال لومومبا على جدول الأعمال تلك مجرد صدفة؟! وبعد ذلك بأشهر قلائل كان

الوزير البلجيكي للشؤون الأفريقية وممثلوه في الكونغو يعدون المسرح لعملية الاغتيال. وقد تمت عملية نقل لومومبا إلى كاتانجا، وتسليمه إلى أعدى أعدائه بعلم كامل من رئيس وحدة الـ «سي أي إيه» في العاصمة، وهو لورانس ديفلين الذي كان قد أرسل برقية إلى واشنطن قبل ذلك بأيام يقول فيها: «إن اتخاذ (خطوات عنيفة) هو الشيء الوحيد الذي يكفل منع عودة لومومبا إلى السلطة».

ولابد أن رؤساء ديفلين وحلفاءهم في الحلف الأطلسي قد تنفسوا الصعداء أيضاً، ففي الأسابيع السابقة على نقل لومومبا جرت مباحثات مكثفة بين الولايات المتحدة وبلجيكا وفرنسا، وإتحاد روديسيا الخاضع لبريطانيا، والبرتغال، وموبوتو، وتشومبي، في الكونغو لبحث خطط سرية عديدة لمقاومة العناصر الوطنية الكونغولية.

لقد قام عدد كبير من المؤلفين بفحص دور واشنطن في أزمة الكونغو وتحليله على ضوء الحرب الباردة. وكانت أبحاثهم تقوم على أساس الحجج التي أعلنتها كل من واشنطن ولندن آنذاك لتبرير تدخل المعسكر الغربي، والتي كانت تدور حول الحاجة إلى محاصرة التوسع السوفييتي.

ولكن هل كانت تلك الحجة تتفق مع حقائق الأمور؟ يرد المؤلف على هذا السؤال بقوله: صحيح أن العام 1960 شهد ذروة الصراع بين الشرق والغرب، ففي أول أيار/مايو 1960 أسقطت طائرة التجسس الأميركية يو2 في الأجواء السوفييتية على الرغم من إنكار إيزنهاور وجود تجسس أميركي جوي. وفي إجتماع القمة في

باريس وصف الزعيم السوفييتي نيكيتا خروتشوف الرئيس الأميركي إيزنهاور بأنه كذاب، وتم إلغاء لقاء القمة بينهما.

وقد تحولت أزمة الكونغو إلى حرب كلامية، ووجهت واشنطن ولندن وبروكسل الاتهام إلى موسكو بأنها تريد أن تضع يدها على أفريقيا الوسطى، ووصفت لومومبا بأنه «شيوعي» أو «شيوعي متخف» أو في أحسن الظروف بأنه يريد فتح الأبواب للتدخل السوفييتي. وأثناء إجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة في خريف ذلك العام نفسه رد خروتشوف على ذلك رداً عنيفاً واتهم همرشولد بأنه عميل للامبريالية.

يرى مؤلف الكتاب أن أزمة الكونغو لم تكن حقاً حرباً بين الشرق والغرب، ويقول إن موسكو كانت تعي جيداً أن ذلك البلد يقع ضمن نطاق النفوذ الغربي، وذلك على الرغم من أن ورثة ستالين لم يكن لديهم مانع من أن يمدوا نفوذهم في أنحاء العالم، أو أن يكتسبوا مزيداً من السيطرة، ولم تكن لدى الكرملين النية أو الوسائل لتهديد هيمنة الغرب على الكونغو، وكان ذلك أمراً واضحاً لمعظم المراقبين. ومن المؤكد أن الكرملين لم يكن يريد دعم لومومبا بغير شروط أثناء الأزمة، ولكنه كان أكثر اهتماماً بتحقيق إنتصار إعلامي. وقد هاجم خروتشوف التدخل الغربي ليدعم موقفه الدبلوماسي في العالم الأفريقي ـ الآسيوي. وكان القضاء على الحركة الوطنية في الكونغو ضربة قاصمة للمناضلين من أجل التحرير في أفريقيا، ولكنها لم تكن تقلق البيروقراطيين المحافظين ضيقي الأفق في الكرملين، الذي كان لومومبا والنزعة

الوطنية الأفريقية بالنسبة لهم مسائل جانبية لا أهمية لها.

ويكشف المؤلف أن خروتشوف قال للسفير الأميركي في موسكو بصفة غير رسمية أنه «كان يشعر بالأسف من أجل لومومبا كشخص عندما كان في السجن، غير أن اعتقاله قدم في الواقع خدمة للمصالح السوفييتية». ويذكر السفير الأميركي أن خروتشوف قال: «إن ما حدث في الكونغو ساعد الشيوعية، وخاصة اغتيال لومومبا. ويمكن القول بشكل عام أن تأييد موسكو للوطنيين الكونغوليين كان شيئاً رمزياً فقط».

ويتساءل المؤلف: ألم يكن أمراً ذا دلالة واضحة أن السفير الأميركي في الكونغو ـ الذي أمطر واشنطن بالرسائل حول الخطر السوفييتي في أفريقيا الوسطى ـ اعترف في مقابلة سرية مع لجنة من مجلس الشيوخ الأميركي بأن دعم الكرملين لأتباع لومومبا لم يكن إلا عملية «مخادعة»؟!

**ـ السياق الحقيقي للأحداث:**

لقد كان إستقلال الكونغو، في المقام الأول، تعبيراً عن الثورة المضادة للاستعمار. ومنذ الحرب العالمية الثانية ثار ملايين الناس ضد الهيمنة الاستعمارية عن طريق الإضرابات وحركات العصيان المدني والحروب الشاملة. حدث ذلك في الهند عام 1947، وفي الصين عام 1949، وفيتنام عام 1954، واندلعت حرب التحرير في الجزائر منذ العام 1954، وقامت الحرب الثانية في الهند الصينية عام 1957، وأطاح شعب كوبا بنظام باتيستا شبه الاستيطاني عام 1959. وفي العام 1953 أصبحت أربع دول أفريقية أعضاء في هيئة الأمم

المتحدة، وبنهاية عام 1960 كان عدد الدول التي نالت العضوية لا يقل عن ست عشرة دولة. وأعلنت الأمم المتحدة عام 1960 «عام أفريقيا» إذ نال ما لا يقل عن ست عشرة دولة في القارة السوداء الإستقلال في ذلك العام، وكانت الكونغو أكبرها وأكثرها ثراء.

وفي مواجهة حركة الإستقلال تلك لجأ الغرب إلى تغيير سياسة الهيمنة المباشرة العلنية إلى سياسة سيطرة غير مباشرة تملي على القيادات الوطنية الجديدة أن تتعلم الرضوخ للنظام الامبريالي الجديد. وكان باتريس لومومبا عقبة في سبيل تحقيق هذا الهدف لأنه كان ينادي بالتحرير الكامل من الاستعمار الاستيطاني من أجل مصلحة الشعب ككل، ولذلك كان يجب منع الزعيم الأفريقي بكل الوسائل. ويورد المؤلف بعض الخطوات التي أشار بها مخططو الإستراتيجية الغربية، في محاولة لكسب الرأي العام إلى جانبهم، ومن بينها الإعلان عن بعض الأهداف التي قد تبدو نبيلة في ظاهرها، فقد منح الملك البلجيكي ليوبولد الثاني الشرعية لغزو الكونغو، باعتبار أن هذا الغزو كان يهدف إلى تحرير الأفارقة. ولاستكمال الخدعة الاستعمارية لجأ الغرب إلى تبرير الاستغلال الاستيطاني بأنه مشروع حضاري، وهكذا تم القضاء على الحركات الوطنية في العام 1960 باسم «حماية أفريقيا من الامبريالية السوفييتية»، وأخذ الغرب يروج في العالم عبارات مثل «إنقاذ أفريقيا من الحرب الباردة» أو «احتواء النفوذ السوفييتي أثناء عملية إنهاء الاستعمار».

ويؤكد الكاتب لودو دي فيتي أن باتريس لومومبا لم يكن شيوعياً، كما حاول الاستعمار الغربي أن يروج ذلك الزعم، ويرى المؤلف أنه كان زعيماً وطنياً وعلى استعداد لقبول المساعدة من أي مكان في العالم، على ألا تكون مساعدة مشروطة وألا تنال من السيادة الوطنية.

يذكر المؤلف في مقدمة الطبعة المترجمة إلى الانجليزية من الكتاب عدداً كبيراً من أسماء الأشخاص الذين شاركوا في جريمة اغتيال الزعيم الأفريقي ومعه اثنان من وزرائه هما مبولو وأوكيتو، وسوف ترد تلك الأسماء، بطبيعة الحال، عند الحديث عن تفاصيل ما سمي بأزمة الكونغو، فضلاً عن عدد من الشهود الذين سبق لهم أن أدلوا بشهاداتهم في مقابلات صحافية وتلفزيونية، خاصة وأن دي فيتي نفسه كان قد قام بتقديم البحوث الخاصة بأفلام وثائقية عن مأساة لومومبا في الإذاعة والتلفزيون. وقد تعرضت تلك المأساة وحقيقة ما جرى خلالها لمحاولات عديدة لإخفاء الحقائق ومحاولة طمسها منذ شنت المؤسسة البلجيكية حربها ضد أول حكومة كونغولية برئاسة لومومبا. وما لبث التدخل الأجنبي أن بدأ بعد حصول المستعمرة البلجيكية على إستقلالها في 30 حزيران/يونيو عام 1960، وقد بدأ ذلك التدخل أولاً بهبوط عدد من الجنود البلجيكيين في الكونغو ثم أصحاب القبعات الزرق من جنود الأمم المتحدة. وكانت بروكسل والقوى الغربية الأخرى تعمل تحت عباءة المنظمة الدولية بإصرار على الإطاحة بحكومة لومومبا الوطنية وأن يحل محلها نظام استعماري جديد، يضع البلاد تحت رحمة

المستثمرين والشركات القابضة التي ظلت تسيطر على الكونغو على امتداد عدة عقود من الزمان.

وقد أحرز الغرب أولى نجاحاته، وفي شهر أيلول/سبتمبر عام 1960 نجح في الإطاحة بالحكومة الوطنية والبرلمان المؤيد للزعيم الأفريقي الوطني على يد الكولونيل جوزيف ديزيريه موبوتو. ووصلت الحرب على الوطنية ذروتها في 17 كانون الثاني/يناير عام 1961 باغتيال لومومبا ومساعديه في إقليم كاتانجا الانفصالي المدعوم بالقوة العسكرية البلجيكية وموظفي حكومتها.

وقد ظل هذا الفصل الأسود من تاريخ الاستعمار الغربي محجوباً عن كتب التاريخ، وكان الخوف يعتري كل من يحاول التصدي للتحليل الجاد الحقيقي لما حدث في أزمة الكونغو كما حدثت وقائعها، ولم يجرؤ أحد من السياسيين على المبادرة بإتاحة أرشيفات وزارة الخارجية البلجيكية لأي باحث جاد، أو على طلب مناقشة أو إجراء تحقيق برلماني حول الموضوع، بل على العكس من ذلك سرعان ما بذلت المحاولات لحرمان الأفارقة من الاطلاع على القصة الحقيقية للإطاحة بالزعيم الأفريقي وحكومته، ولم تكتف تلك المحاولات بتصفية لومومبا جسدياً، بل بذلت جهوداً حثيثة حتى لا تتحول حياته وأعماله إلى مصدر لإلهام شعوب القارة الأفريقية، وكان لابد للاستعمار أن يمحو حلم لومومبا في دولة وطنية متحدة وإقتصاد يلبي احتياجات الشعب، وكان الهدف هو محو أفكاره ونضاله ضد سيطرة الاستعمار والاستعمار الجديد من الذاكرة الجمعية حتى لا يظهر لومومبا آخر.

ولكن تشاء الصدف أن يفتضح أمر الجريمة النكراء على يد أداة من أدوات الاستعمار نفسه، وتلك إحدى مفارقات التاريخ. فقد كشفت السر الصحيفة اليومية «لايبر بلجيك» الناطقة بلسان الاستعمار الاستيطاني السابق. وقد وقعت تلك الصحيفة في خطأ محاولة شرح الجريمة باعتبارها دليلاً على عدم نضج الشعب الكونغولي سياسياً، وتصويرها على أنها عمل كونغولي صرف لا دخل للغرب به. والجدير بالذكر أن الكتاب الذي نناقشه يقلب هذا الزعم رأساً على عقب، مستنداً في ذلك على ملفات وزارة الخارجية البلجيكية، وعلى رسالة دكتوراه غير منشورة حول تحقيق في اغتيال باتريس لومومبا، وقدمها جاك براسين ونوقشت في الجامعة الحرة في بروكسل عام 1991 ومصادر أخرى أميركية وأوروبية وملفات هيئة الأمم المتحدة. والكتاب لا يكتفي بمجرد تقديم تحليل بسيط للاستراتيجيات الغربية، ونشر القوات، والمكائد الدبلوماسية، والزيارات الرسمية، وأحاديث وسائل الإعلام آنذاك، ولكن المؤلف يركز أيضاً على الأيام الأخيرة، والساعات الأخيرة في حياة لومومبا وعذابات أشهر سجين في القرن العشرين.

حياة قصيرة ومبهرة يتساءل دي فيتي: هل يمكن أن نسمي هذا الكتاب كتاباً ملتزماً؟ ويجيب المؤلف بقوله: قد يشعر القارئ بالسخط، بل قد يعتريه الغضب في الحقيقة، خاصة وأن ضحية الجريمة أصبح رئيساً للوزراء في انتخابات شرعية، وكان أيضاً زعيماً لحركة وطنية في مراحلها الأولى، ولو لم ينتصر الغرب لكانت تلك الحركة قد دفعت مسار التاريخ في أفريقيا إلى

الأفضل. لقد كانت حياة لومومبا السياسية قصيرة ومبهرة، وألهمت عدداً كبيراً من الكتّاب السياسيين. وكان كما وصفه جان بول سارتر: «شهاباً في سماء أفريقيا». ولكن هل اختفى لومومبا بالسرعة نفسها التي ظهر بها؟ وهل اختفى حقاً؟ في عالم السياسة يكتسب الزمن معنىً مختلفاً. والواقع أن المهمة التي وجد لومومبا نفسه يواجهها منذ أكثر من أربعين سنة مضت، مازالت تنتظر من ينجزها اليوم.

### - بلجيكا «تعتذر» لشعب الكونغو عن مقتل لومومبا:

قدمت بلجيكا في العام 2002 عبر وزير خارجيتها لوي ميشال اعتذاراتها لشعب الكونغو وأعربت عن أسفها العميق والصادق عن الدور الذي لعبته في مقتل رئيس وزراء الكونغو باتريس لومومبا في كانون الثاني/يناير 1961. وأعلن ميشال أمام مجلس النواب البلجيكي أن «الحكومة ترى أنه من اللائق نقل أسفها العميق والصادق واعتذاراتها إلى عائلة باتريس لومومبا وإلى الشعب الكونغولي للألم الذي أنزلته بهما».

وأقر بأن السلطات البلجيكية أظهرت فتوراً ولا مبالاة تجاه باتريس لومومبا. وتابع إن «بعض أعضاء الحكومة آنذاك وبعض الشخصيات البلجيكية من تلك الحقبة يتحملون قسطاً من المسؤولية لا يمكن إنكاره في الأحداث التي أدت إلى مقتل باتريس لومومبا.

- المصادر:

1 ـ من قتل لومومبا، ملف نشر في مجلة «New Africa» عدد شباط/ فبراير عام 2000 ونشرت ترجمة له في مجلة «الثقافة العالمية»، الكويت، عدد 102، أيلول/ سبتمبر عام 2000 وقد شارك فيه كل من: فرانسوا ميسي، وأوزي بواتنج، ترجمة رنا مأمون نجيب.

2 ـ «موسوعة السياسة»، ج 5، مادة لومومبا.

# مارلين مونرو
# (1926 ـ 1962)

خلال أسابيع من البحث والتحقيق تمكن الشعب الأميركي والعالم بأسره من معرفة أدق التفاصيل التي ارتبطت بفضيحة الرئيس الأميركي السابق بيل كلينتون واليهودية مونيكا لوينسكي.. ولكن الأمر استغرق أكثر من ثلاثين عاماً ليعرفوا أن نجمتهم ومعبودتهم المفضلة مارلين مونرو لم تمت منتحرة كما كانوا يعتقدون، وإنما ماتت مقتولة بجريمة مدبرة من قبل الرئيس الأميركي جون كيندي ووزير العدل آنذاك بوبي كيندي.

جميع هذه التفاصيل المذهلة كشف عنها الكاتب الكبير دون وولف الذي أمضى 15 عاماً من البحث المتواصل والاستماع إلى جميع شهادات أصدقاء مارلين مونرو ومقربيها ومدبرة منزلها يونيس موري، وكذلك شهادات أشخاص كانوا يعملون في البيت الأبيض في عهد الرئيس كيندي، وقد تبين من شهادات الجميع أن مارلين مونرو لم تمت منتحرة وإنما قتلت بحقنة مهدئات كانت كافية لقتل 15 شخصاً على الأقل.

## ـ اللعب مع الكبار:

خمس دقائق بعد انتصاف الليل وفي 5/ 8/ 1962 تم العثور على جثة نورما جين بايكر الشهيرة بـ مارلين مونرو. . تلك الغزالة الهائمة التي لم تعرف بأنها أصبحت هدفاً لوكالات المخابرات الأميركية «C.I.A» ومكتب التحقيقات الفيدرالي «F.B.I» اللذان عملا بتعاون كبير وزرعا ميكرفونات التجسس في كافة أنحاء غرفة نومها وفي جميع الأماكن التي تتردد عليها. خصوصاً بعد أن أصبحت مصدر إزعاج وخطر على الرئيس الأميركي جون كيندي وشقيقه بوبي وزير العدل. . خصوصاً وإنها أصبحت على اطلاع كبير على أسرار البيت الأبيض، تلك الأسرار المليئة بالشبهات، وقد أدرك الشقيقين بأن مونرو تستطيع الإطاحة بكليهما وتشويه سمعة البيت الأبيض بكامله إذا قررت أن تنشر ما تعرفه على الملأ. ولهذا تصرفا بسرعة كبيرة وبالتعاون مع الـ «C.I.A» والـ «F.B.I» وتمكنا من تدبير موت مونرو ليبدو الأمر طبيعياً وكأنه عملية انتحار. وهكذا دفعت مونرو حياتها ثمناً للعبها مع الكبار، وكانت مونرو لا تزال في ريعان شبابها فهي لم تتجاوز السادسة والثلاثين من العمر.

## ـ شبهات وثغرات:

ويسرد المؤلف دون وولف في كتابه «مقتل مارلين مونرو» شهادات وإفادات لأشخاص عايشوا هذه الجريمة إبان حدوثها ولكنهم لزموا الصمت آنذاك، ومن هؤلاء ضابط الشرطة المناوب جاك كلمونس الذي كان أول من تم استدعاؤه فور اكتشاف جثة مونرو. والجديد في إفادة الضابط كلمونس هو ما قاله لمؤلف

الكتاب بأن استدعاءه تم في الساعة الرابعة والنصف فجراً أي بعد أربع ساعات ونصف من اكتشاف الجثة. وفور وصول الضابط كلمونس إلى مكان شقة مونرو وكان في انتظاره هناك مدبرة المنزل يونيس موري وطبيب مونرو الخاص انجلبيرغ وكذلك الطبيب الذي كان يعالجها من الاكتئاب النفسي جرينسون والذي تم استدعاؤه من قبل الطبيب انجلبيرغ. وقد أخبر الطبيب انجلبيرغ ضابط الشرطة بأنه حضر بناءً على استدعاء مدبرة المنزل يونيس موري، التي شكّت بأن سيدتها في وضع غير طبيعي ولم تستجب لندائها بفتح الباب فحضر انجلبيرغ الذي استدعى الطبيب النفسي جرينسون، وبعد ذلك قام الاثنان بكسر زجاج الشباك ودخلا من خلاله وهناك وجدوا مونرو عارية وملقاة على السير وإلى جانبها علبة فارغة من الحبوب المنومة. وأخبر الطبيبان ضابط الشرطة بأنهما كانا مضطرين إلى الحصول على موافقة «استوديوهات هوليوود» التي كانت تشتغل فيها مونرو قبل الاتصال بالشرطة، وهذا هو السبب الذي جعلهما يتأخران أربع ساعات ونصف قبل الاتصال بالشرطة. وقد وجد ضابط الشرطة كثيراً من الشكوك تلف هذه القضية بدءاً من الوضعية التي كانت عليها جثة مونرو عند رؤيتها فهي لم تكن توحي بأنها جثة امرأة قامت بالانتحار وإنما امرأة قُتلت وسجيت بهذا الشكل، ويقول كلمونس بأنه شاهد حالات انتحار كثيرة ولكن ليس بهذه الوضعية.

أما الأمر الذي أثار شك كلمونس أكثر من كل شيء فهو عدم وجود أية قطعة زجاج داخل المنزل الذي تم كسر شباكه على حد زعم الطبيبان. ورغم المحاولات لإقناع الضابط بأن القصة بسيطة

وأن ما حدث هو انتحار مونرو عن طريق تناولها كمية الحبوب المنومة التي وجدت في العلبة الملقاة إلى جانبها، إلا أن الضابط أصرّ على تشريح الجثة وقد أثبت التشريح بأن معدتها لم تحتو على أي نسبة ولو بسيطة من مكونات الحبوب المنومة هذه. وهذا يدل إلى أن وجود العلبة إلى جانبها قد تم وضعها من قبل الأشخاص الذين قتلوها.

## ـ البيت الأبيض يقطع علاقاته مع مونرو:

المسؤولون في البيت البيض وبعد أن تبينوا الخطورة التي تكمن خلف هذه الفتاة الحسناء عملوا على قطع علاقاتها بالبيت الأبيض، وهذا ما حصل فعلاً، فبعد يومين من حضور مونرو لعيد ميلاد الرئيس جون كينديي في أيار/مايو عام 1962 لم يسمح لها بدخول البيت الأبيض مرة ثانية وكذلك تم وقف خط الهاتف الخاص الذي كانت تتصل به بالرئيس كينديي وبدون إبداء أية تفسيرات. وعندما طالبت بتفسير هذا التصرف فوجئت بهم يقولون لها بأن شقيق الرئيس يرغب أيضاً بقطع علاقاته معها. وفور سماعها بهذه الأخبار بدأت مارلين مونرو تمر بمرحلة اكتئاب نفسي شديد، خاصة بعد أن شعرت بأنه تم إلقاؤها خارج البيت الأبيض بشكل مهين ومذل. ومنذ هذه اللحظات بدأت مونرو تستعين بطبيب نفسي خاص يشرف على حالتها.

## ـ الدفتر الأحمر وراء مقتلها:

وفي جزء هام من الكتاب يتحدث أحد أعزّ أصدقائها وكاتم

أسرارها زلتسر فيقول: «بعد هذه الأزمة مع البيت الأبيض هاتفته مونرو من إحدى الهواتف العمومية وكانت ترتجف خوفاً، وأخبرته بأنها تريد أن تريه شيئاً هاماً. وجاء زلتسر على الفور وصعدت معه في السيارة وهناك أخرجت من حقيبتها دفتراً أحمراً أعطته إياه وطلبت منه الاطلاع عليه وإبداء رأيه.

بدأ زلتسر يتصفح الدفتر الأحمر وكاد يصاب بالجنون من الحقائق والقذارة التي كانت تحتويها صفحات الدفتر. ففي هذه الصفحات أسرار ومؤامرات كبيرة كانت تدور في أروقة البيت الأبيض، بدءاً من الخطط التي أعدت لاغتيال الرئيس الكوبي فيدل كاسترو وانتهاءً بالأسرار النووية وخطط مهاجمة دول المعسكر الشرقي. بالإضافة إلى تفصيلات مثيرة عن خطط اغتيال شخصيات عديدة في الداخل والخارج.

نصح زلتسر مونرو والتي كانت عازمة على كشف هذه الأسرار بنسيان الموضوع كله والانتباه إلى حياتها الفنية فقط. ولكنها كانت راغبة بجعل آل كينيدي يدفعون ثمن ثرثرتهم التافهة».

## ـ الوزير كينيدي يهدد:

نهار السبت الواقع في 4/ 8/ 1962، حطت الطائرة العامودية التي كانت تقل بوبي كينيدي في منطقة رقم 14 التابعة لاستوديوهات «فوكس» في عاصمة السينما هوليوود ونزل منها الوزير كينيدي الذي استقل سيارة الليموزين التي كانت بانتظاره.

ويقول نورمن جيفرس وهو مساعد وخطيب يونيس موري مدبرة

منزل مونرو بأنه في تمام الساعة الرابعة حضر إلى منزل مونرو الوزير كيندي برفقة أكبر مساعديه لاوفورد، وفور وصولهما أمرنا لافورد بمغادرة المنزل والذهاب لشراء الكوكاكولا بعد أن أعطانا بعض المال لهذا الغرض.

ويتابع نورمن جيفرس قائلاً: «بعد.ساعة عدت أنا ووينسي إلى المنزل حيث كانت سيارة الليموزين قد غادرت، وقد فوجئنا بأن مارلين مونرو قد أصبحت في حالة هستيرية غريبة لم نعهدها فيها من قبل. وقد أكد «الكوافير» الشخصي لمارلين مونرو شهادة مساعد مدبرة المنزل، وقال بأن مونرو هاتفته مرتين في اليوم الذي سبق وفاتها وأخبرته بأن كيندي حضر إلى شقتها وهددها بأنه يستطيع التخلص منها بسهولة وبأسرع مما تتوقع إذا استمرت في تهديده. ومن ثم قام بدفعها وإلقائها أرضاً قبل أن يغادر الشقة.

بعد هذه الحادثة استدعت مدبرة مونرو طبيبها النفسي الخاص جرينسون لمعالجة وتهدئة مونرو من الحالة الهستيرية التي أصابتها، وبالفعل وصل ونصحها بأخذ الأقراص المنومة ومن ثم بقي في الجوار ولم يغادر المنطقة، وهذا بحد ذاته يكشف كذبة طبيبها الخاص انجلبيرغ الذي قال بأن الطبيب النفسي جاء بناءً على استدعائه له ليلة الجريمة.

## ـ نهاية مونرو:

في تمام الساعة 30، 9 ليلاً، كما جاء في شهادة إليزابيث بولارد جارة مونرو والتي تسكن بالقرب من منزلها بأنها كانت تلعب الكوتشينة مع أصدقائها وأنها رأت بوضوح الوزير كيندي يترجل من

السيارة وبرفقته اثنين من مساعديه، وكان أحدهم يحمل في يديه حقيبة سوداء، وأن الثلاثة توجهوا إلى منزل مونرو، وعند دخولهم إلى الغرفة التي تواجدت فيها رنّ الهاتف بشكل مفاجئ وكان على الطرف الآخر أحد منتجي الأفلام وصديق مونرو جوزيه بالاس، والذي أكد بأن مكالمته مع مونرو قد تمت في تلك الليلة وفي هذا الوقت وقطعت بشكل مفاجئ وأنه سمعها تقول فقط «يحدث عندي شيء غريب. . فضيحة كبيرة ستهز العالم»، واختفى صوت مونرو بشكل مفاجئ. ورغم انتظاره على الخط إلا أن مونرو لم تعاود الاتصال. وتقول مدبرة المنزل وخطيبها بأن كيندي أمرهم بمغادرة المكان لبعض الوقت، وعند عودتهم كانت السيارة قد ذهبت بزوارها الثلاثة، أما مونرو فكانت ملقاة وهي عارية على الكنبة.

يقول جيفرس في شهادته التي تضمنها الكتاب: اعتقدت بأن مونرو قد ماتت عندما رأيتها ملقاة على بطنها وإحدى يداها كانت ممسكة بسماعة الهاتف. كان لونها غريب جداً ومخيف، استدعينا سيارة الإسعاف والطبيب النفسي جرينسون. وبعد حضور سيارة الإسعاف قام سائق سيارة الإسعاف بقلب مونرو على ظهرها وحاول أن يجري لها تنفساً صناعياً إلا أن ذلك لم يجد نفعاً، وكذلك لم يجد نفعاً محاولة الطبيب جرينسون بالصدمة الكهربائية. فقد ماتت مونرو.

**ـ أين ذهب الدفتر الأحمر؟!**

تقول مدبرة المنزل بأنه في نفس يوم الأحد الذي قتلت فيه مارلين مونرو حضر إلى البيت العديد من رجال المخابرات الذين

قاموا بقلب البيت رأساً على عقب وقاموا بجمع جميع الأوراق التي تحتوي على أرقام الهواتف وأتلفوا جزءاً آخر من الوثائق، وبعد ذلك قاموا بإعادة ترتيب الفوضى التي تسببوا فيها. وقبل مغادرتهم للبيت قام كبيرهم بالاتصال بالمسؤولين في البيت الأبيض، تحدث على الهاتف وكانت تعلو وجهه ابتسامة عريضة. ويتساءل مؤلف الكتاب الذي بذل جهداً استغرقه 15 عاماً كما أسلفنا للبحث والاستماع إلى العديد من الشهادات التي أثبتت بأن مونرو قتلت قتلاً ولم تنتحر.. هل عثر كيندي على الدفتر الأحمر الذي كان يبحث عنه؟ وإذا لم يعثر عليه فهل من المحتمل أن يكون هذا الدفتر بحوزة أحد أصدقاء مونرو الذين يخشون من الكشف عنه؟

بهذه الطريقة غابت أهم وأجمل نجمة في فضاء الفن العالمي، هذه النجمة التي أخذت ألباب محبيها ومعجبيها، وهي كانت بحق كما قال عنها أحد أكبر المخرجين والمفكرين السينمائيين في العالم ألفرد هتشكوك بأنها كانت نجمة القرن العشرين.

# مولود فرعون
# (1913 ـ 1962)

## ـ مولود فرعون في سطور:

ولد مولود فرعون في قرية تيزي هيبل بولاية تيزي وزو بالجزائر يوم 18 آذار/ مارس عام 1913م من عائلة فقيرة، اضطر فقرها من الوالد إلى الهجرة مرات عديدة بحثاً عن العمل، لكن هذا الفقر لم يصرف الطفل ولا أسرته عن تعليمه، فالتحق بالمدرسة الإبتدائية في قرية تاوريرت موسى المجاورة، فكان يقطع مسافة طويلة يومياً بين منزله ومدرسته على قدميه في ظروف صعبة، فتحدى مولود فرعون ظروفه القاسية والمصاعب المختلفة بمثابرته واجتهاده وصراعه مع واقعه القاتم الرازح تحت نير الاستعمار الفرنسي، وبهذا الصراع استطاع التغلب على كل المثبطات والحواجز مما أهله للظفر بمنحة دراسية للمرحلة الثانوية بتيزي وزو أولاً، وفي مدرسة المعلمين ببوزريعة في الجزائر العاصمة بعد ذلك، ورغم وضعه البائس تمكن من التخرج من مدرسة المعلمين، واندفع للعمل بعد تخرجه، فاشتغل بالتعليم حيث عاد إلى قريته تيزي هيبل التي عين فيها مدرساً سنة 1935

م، في الوقت الذي بدأ يتسع فيه عالمه الفكري وأخذت القضايا الوطنية تشغل اهتمامه.

وكما أعطى من علمه لأطفال قريته أعطى مثيلاً له في القرية التي احتضنته تلميذاً قرب مسقط رأسه بأقل من ثلاثة كيلومترات، وهي قرية تاوريرت موسى التي التحق فيها معلماً سنة 1946 في المدرسة نفسها التي استقبلته تلميذاً، وعين بعد ذلك سنة 1952 في إطار العمل الإداري التربوي بالأربعاء ناث ايراثن. أما في سنة 1957 م فقد التحق بالجزائر العاصمة مديراً لمدرسة «نادور» «المدنية حالياً» كما عين في العام 1960 مفتشاً لمراكز إجتماعية كان قد أسسها أحد الفرنسيين في العام 1955، وهي الوظيفة الأخيرة التي اشتغل فيها قبل أن يسقط برصاص الغدر والحقد الاستعماري في 15 آذار/ مارس عام 1962، حيث كان في مقر عمله، مهموماً بقضايا العمل وبواقع وطنه خاصة في المدن الكبرى في تلك الفترة الانتقالية حين أصبحت عصابة «منظمة المسلحة السرية» الفرنسية المعروفة بـ «أواس» تمارس جرائم الاختطاف والقتل ليلاً ونهاراً، حيث اقتحمت مجموعة منها مولود فرعون وبعض زملائه في مقر عملهم، فسقط برصاص العصابة وكان واحداً من ضحاياها الذين يعدون بالألوف، فتفقد الجزائر بذلك مناضلاً بفكره وقلمه.

## ـ مسيرة مولود فرعون واغتياله:

إن الإصرار على الكذب لا يؤذي الحقيقة، بل يؤذي الكاذبين ويمزق القلوب ويقتل الأرواح ويبذر الحقد والجنون.

**مولود فرعون**

في 15 آذار/ مارس 1962 أياماً قلائل قبل إعلان وقف إطلاق النار بين الجزائر وفرنسا أقدم مجموعة من الإرهابيين من عصابة «الأواس» الإجرامية (OAS) على اغتيال الأديب الكبير مولود فرعون صاحب الروائع الأدبية التي أرّخت لمرحلة هامة من تاريخ معاناة الشعب الجزائري في ظل الهيمنة الاستعمارية الفرنسية.

تمت عملية الاغتيال في وضح النهار وسقط إلى جانبه خمسة من العاملين في قطاع التعليم بعد أن تم اقتيادهم جميعاً من غرفة الإجتماعات وأمرهم بوضع أيديهم اتجاه الحائط وبعدها انطلقت آلة الموت تحصد الأرواح البريئة.

قبل ذلك بسنوات كتب مولود فرعون وهو يصف قيمة الإنسان المسلم في نظر الهمجية الاستعمارية: «فكم تساوي حياة المسلم؟ إنها في هذه الحالة لا تساوي أكثر من طلقة مدفع رشاش بل ربما تساوي أقل من ذلك»[1].

نعم لم تكن قيمة الإنسان الذي يطلب الحرية في نظر المغتصبين أكثر من طلقة رشاش ورصاصة غادرة تستجلب الغربان والنواح. لكن ذلك كله لن يثني التاريخ عن السير في مجراه الطبيعي عندما تفيق الضمائر وتتحرك العزائم من جديد ألم يكتب: «لماذا ينكرون على هذا الشعب أن يكون كما يريد، نعم كما يريد، هذا الشعب لن يتغير.. إننا نشعر باستعادة هذا الشعب لروح أجداده البدائية الخام». وهؤلاء الذين سقطوا من أجل أن تحيا الجزائر لهم

---

(1) «يوميات معركة الجزائر». تأليف مولود فرعون ـ نشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970.

المجد والذكر الحسن لأنهم ضحوا بأنفسهم لتعبيد الطريق لكي يستطيع الآخرون رفع هاماتهم من أجل خلاصهم إزاء الإنسانية المخجلة المتآمرة.

لقد كان الأديب مولود فرعون أحد الأركان الأساسية المؤسسة لفن الرواية الجزائرية المعاصرة مع كتاب آخرين منهم الراحل محمد ديب وعبد الحميد بن هدوقة ورضا حوحو ومالك حداد.

ولد في 8/ 3/ 1913 بتيزي وزو هيبل، وتخرج من دار المعلمين الإبتدائية ببوزريعة سنة 1935م، ومارس التعليم لفترة طويلة في مناطق القبائل وقام بإدارة بعض المدارس في العام 1957م، كما أصبح مفتش المراكز الإجتماعية بالأبيار عام 1960م.

له عدة روايات كتبها بالفرنسية منها رائعته «ابن الفقير» التي بدأ كتابتها أثناء الحرب العالمية الثانية 1939م، وكذلك «الأرض والدم» رواية 1953م، اليوميات، الأيام في بلاد القبائل 1954م، الدروب الوعرة 1957م، قصائد الشاعر سي محمد 1960م، عيد الميلاد ـ نشر بعد وفاته عام 1972م ـ. وقد ترجمت أعماله إلى عدة لغات منها العربية والألمانية والإنجليزية والروسية.

الأديب مولود فرعون يمثل قمة العطاء لأدباء ما قبل الإستقلال وقد سمحت له مهنة التعليم الاختلاط بعمق المجتمع ومعايشة هموم الناس والفقراء وأصبح يعتبر نفسه ناطقاً باسم هؤلاء الصامتين المقموعين.

كان الأديب الكبير مولود فرعون يمتلك روحاً شفافة سرت في أدبه وروائعه التي خلفها وقد اشتهر برائعته «ابن الفقير»

«Le fils du pauvre» التي تنبض بأحاسيسها المستفيضة وخيالها المبدع وهو يصف حياة البسطاء في كفاحهم اليومي وتطلعاتهم المستقبلية رغم عالمهم الصغير الذي ازداد صغراً بتضييق الاستعمار الذي يطارد حتى الأحلام في النفوس البريئة.

لقد صرح مولود فرعون في لقاء مع إحدى الجرائد عام 1953 قائلاً: «كتبت رواية ابن الفقير إبان الحرب على ضوء شمعة ووضعت فيها قطعة من ذاتي». ثم أردف: «أنا متعلق بشكل كبير بهذا الكتاب، أولاً لأنني لم أكن آكل كل يوم رغم الجوع في حين كان الكتاب يولد من قلمي وثانياً لأنني بدأت أتعرف على قدراتي».

كانت الرواية تتجاوز السرد الذاتي لقصة الطفل الصغير مولود التي حولها على الصعيد الأدبي إلى قطعة تستوحي من المثال الخاص النموذج العام الذي يحياه أبناء الوطن وهم يكابدون مشاق يومهم لنيل لقمة العيش. وليس ذلك غريباً، فعندما سأله موريس مونوي ما هو موقفك من الشخصيات التي تكتب عنها قال بكل عفوية: «أضع نفسي بكل صدق مكان تلك الشخصيات، وحينئذ تبدأ هذه الشخصيات تحدثني عما يجب علي كتابته».

ليس هناك مجال لتقمص شخصيات والكتابة عنها دون أن يكون جزء من تلك الشخصية رابض هناك بعيداً في أغوار النفس.

في روايته «ابن الفقير» يقدم لنا الأديب الكبير صورة كاملة عن المجتمع القبائلي في الثلاثينات من القرن العشرين، وبذلك نكتشف المجتمع الجزائري العميق من خلال شخصيات عائلية يتوزع فيها العم والأخ والجدة والأخوات أدواراً إجتماعية ومواقف فكرية

وتصورية عن الحياة والوجود العائلة والشرف وكل ما يرمز للقيمة الفطرية للإنسان العامر بالفضائل والخير. حتى أن هؤلاء الفقراء لا أحد منهم يقول أنه فقير أو يستشعر الفقر في ذاته لأنه مملوء بكل ما ترمز له الشهامة والفخر والإحساس بالرضا حتى وإن كانت الأوضاع مزرية حقيقة، ويدل كل ركن فيها على أنواع من الفقر المركّب بعضه على بعض.

ومع إنطلاق الثورة التحريرية الكبرى أصبح مولود فرعون موثق لأحداث هامة جداً سجلها بقلمه بالغ الوصف لما يحدث في وطنه، وسجل في يومياته كل ما كان يدور حوله طيلة سنوات بين 1955 وحتى وفاته في 1962. وكان يعبر باستمرار عن المفارقة بين القوى الظالمة الاستعمارية والشعوب الباحثة عن الدروب الوعرة في التاريخ كي تفك قيد الذل المسلط عليها. كتب يصف الطبيعة الاستعمارية يقول: «إن مظاهر طبيعتهم نحونا ليست سوى مظاهر كراهيتهم لنا... لكن كراهيتهم هذه كانت ذكية لدرجة أننا لم نفهم لقد أخذناها على أنها طيبة فأصبحوا هم الطيبين ونحن السيئين، هم المتحضرون ونحن البرابرة هم المؤمنون ونحن الكفرة، هم السادة ونحن السفلة، هذا ما نجحوا في إدخاله في اعتقادنا. ولذلك لا يتوانى المستعمر في استعمال أي وسيلة لفرض هيمنته. إذ كل الناس عندنا مشكوك في نواياهم، ومن أجل هذا لا بدّ أن يحنوا ظهورهم كي يتلقوا لسعات السياط الملهبة». وعلق بكل سخرية موجهاً كلماته للرئيس الفرنسي آنذاك «ربما يكون في استطاعتنا أن نذكّر جي. موليه بأن الجزائريين الذين لا يزالون جهلة لدرجة اتهامهم بالتعصب قد ظلوا يحتفظون بذكرى القيم...».

«إن هناك عقداً يربطنا بشعبنا، ونحن لسانه الناطق. نلتفت إليه أولاً لنتلمس بنياته وتكوينه الخاص، ثم نلتفت إلى العالم لنشهد على هذه الخصائص».

**ـ مؤلفاته:**

لقد اختلفت أعمال مولود فرعون بين الرواية والتأليف ومنها:

ـ كتابين أحدهما بعنوان «أيام قبائلية» ويتكلم فيه عن عادات وتقاليد المنطقة، والآخر بعنوان «أشعار سي محند».

وأربع روايات هي:

ـ «ابن الفقير» كتبها في شهر نيسان/ أبريل سنة 1939م.

ـ «الذكرى».

ـ «الدروب الوعرة».

ـ «الأرض والدم». وكلها تتكلم عن المعاناة الجزائرية تحت ظلام الاستعمار، والمحاولات العديدة لطمس هويته من تجهيل ونشر للمسيحية.

ـ «يوميات»، وتعتبر تلك اليوميات من الوثائق التسجيلية الهامة عن تلك الفترات، حيث رصد أيام الثورة يوماً بيوم، إعتباراً من أول تشرين الثاني/ نوڤمبر 1955م حتى 14 آذار/ مارس عام 1963م. والغريب أن يغتال الكاتب بعد ذلك التاريخ بيوم واحد وقد أدى واجبه، لم تكن يوميات مولود فرعون ذاتية حول صاحبها فقط، بل تُعَدُّ وثيقة أمينة حول الرؤية الجماعية، وتوجُّه الثورة على الأرض الجزائرية. فقد سرد

منجزاتها وإحباطاتها، وكذا حركة وانفعالات الناس اليومية، حيث باتت الثورة على المحتل الفرنسي الهَمَّ اليومي للفرد العادي[1].

**ـ من أقواله:**

«أكتب بالفرنسية، وأتكلم بالفرنسية، لأقول للفرنسيين، أني لست فرنسياً».

(1) «شخصيات جزائرية»، للدكتور عمر بن قينة، الطبعة الأولى 1983م.

# عبد الكريم قاسم
## (1914 ـ 1963)

كان قاسم محمد البكر ينحدر من عائلة عراقية فقيرة لم تتحرر من أغلال عبودية العمل اليومي، واشتغل نجاراً في محلة المهدية ولم يستطع أن يقاوم ضغوط متطلبات الحياة وقتذاك، ولو كان يستطيع أن يتدبر أمر أسرته بعوائد النجارة الضئيلة بالتأكيد لما سافر إلى الصويرة في أحسن الأحوال.

وحتى العام 1925 كان العراق يضطرم في أتون التحول السياسي الحديث بعد خلاصه الشكلي من الإنتداب البريطاني وتأسيس المملكة العراقية بعد تنصيب فيصل الأول ملكاً على العراق، ورغم مرور أربع سنوات على تحرر العراق من قبضة بريطانيا، إلا أن الأوضاع الإقتصادية والمعيشية بالنسبة لفئة إجتماعية ينخرط تحت سقفها قاسم محمد البكر وأسرته كانت في غاية الصعوبة والتعقيد.

لابد إذاً من أن يكون قاسم محمد البكر قد غادر محلة المهدية وقد غمره يأس من الأحوال السيئة التي سادت بغداد فهو رغم عمله نجاراً مستقلاً في ورشته لكنه لم يزل يلاقي العسر في توفير لقمة العيش لزوجته وأولاده.

تزوج قاسم محمد البكر الزبيدي من كيفية بنت حسن اليعقوبي، وهي فتاة تنتمي إلى مثل أصله المتواضع وهي كالعديد من النسوة العراقيات عانين شظف العيش إبان تلك المرحلة.

كان قاسم محمد البكر وزوجته كيفية حسن قد رزقا بثلاثة أولاد هم: حامد وعبد اللطيف وعبد الكريم، وسكنوا في محلة المهدية إحدى محلات بغداد الفقيرة، العريقة. وبيتهم مثل أي بيت في المهدية يتألف من غرف معتمة وباحة شرقية وكل أثاثهم لا يتجاوز حدود تلبية الحاجة للأولاد.

ولعل صورة الوالد في صباه منحت عبد الكريم بعض الخصال الحميدة كالجرأة والإقدام والحفاظ على الكرامة والصبر والعزوف عن الملذات الفائضة في بداية حياته. إن مهنة النجارة شائعة في بغداد بقدر شيوع الأخشاب وبقدر انتشارها فهي مهنة تتطلب الحذاقة والصبر، والأرجح أن عبد الكريم قد ورث هذه الصفات عن مهنة أبيه الشاقة. ولقد أشار هو نفسه إلى مداخلات هذه المهنة عندما دفعه ذات يوم تصرف شاذ من صبي من أقرانه إلى الدخول في محل أبيه والتقاط آلة حادة لضرب الصبي الذي اعتدى عليه ولولا تدخل والده في اللحظة المناسبة وأخذ الآلة من يد ابنه لكان عبد الكريم قد شج رأس قرينه.

إن إخفاق والده في مهنة النجارة في عام 1925 جعله يغادر إلى الصويرة للعمل في مزرعة أخيه ـ كما أسلفنا ـ وكان عبد الكريم وقتذاك في الصف الرابع الإبتدائي، ويبدو أن العمل الجديد ـ الزراعة ـ لم يرق لوالده وقرر العودة بأسرته إلى بغداد.

هذه المرة سكن قاسم محمد البكر في محلة قنبر علي وكالعادة في بيت متواضع، ووجد عبد الكريم نفسه تلميذاً في الصف الرابع في مدرسة الرصافة الإبتدائية.

إن انتقال عبد الكريم وعودته وضمن الظروف المعيشية الصعبة التي عاشها في طفولته وشبابه فيما بعد في الأرجح هي التي كانت وراء غضبه السريع وعصبيته الزائدة.

إن الوضع الإجتماعي للنجار البسيط ما من شك هو الذي دفع عبد الكريم لبذل جهوده في المدرسة، وربما إخفاق شقيقيه في الحياة المدرسية كان دافع والده في تشجيع مواهبه المدرسية ورعايتها وإكمال تعليمه بأي ثمن.

قضى عبد الكريم في الثانوية المركزية خمس سنوات (1927 ـ 1931) وكان، كما في العادة، بين الطلاب الأوائل، رغم أنه تخلف في الدور الأول السنة النهائية بسبب مرض طارئ ألَمَّ به وأكمل بعدها الدروس، غير أنه أحرز نجاحاً متفوقاً في الدور الثاني.

لقد شغف عبد الكريم بالتفوق منذ صغره لما وجد أن معظم زملائه في المدرسة ينتمون إلى عوائل ميسورة وغنية ولكون بعضهم ينحدرون من آباء يمثلون مراكز قوي في الدولة وفي المجتمع. هذه الملاحظة أكدت ذاته من أجل النجاح.

لم تشغل بال عبد الكريم إبان المرحلة الثانوية أية مشكلة رغم أنه عاش في محلة بغدادية أصيلة يتمتع فيها اليهود بحضور ممتاز، وفي هذه المحلة تعايش المسلمون واليهود متآخين كما تعايش أبناء القوميات المختلفة. وهذه الحالة لم تبعث في روحه وأفكاره أية

سوداوية أو تعصباً ما ضد الآخرين، ويبدو أن المحلة وتقاليد أسرته المحافظة والمتسامحة في آن معاً لعبت دورها في التأثير على نضج عبد الكريم في هذه المدة من حياته.

تقع محلة قنبر علي عند ملتقى ثلاث محلات بغدادية أصيلة: إبراهيم عرب والمهدية والفضل، وهي لا توفر للأطفال أو للفتية من عمره مجالاً واسعاً للمرح بسبب أزقتها الضيقة وبيوتها المظلمة والعتيقة.

وهكذا عوَّض عبد الكريم تفاهة الحياة ورتابتها في قنبر علي بالتعيين في مدرسة «الشامية» بلواء محافظة الديوانية «القادسية» عام 1931.

الشامية وفرت له فرص العيش في الريف العراقي النقي. حيث المساحات الكبيرة المزروعة بالأرزّ، وحيث الطبيعة الخلابة والهواء العليل والهدوء.. كانت الشامية بالنسبة إليه هروباً من جحيم قنبر علي ومسكن أسرته الباعث على القرف والضجر.

إن السكن في الأحياء الفقيرة عوض رتابة حياته في منزل الأسرة بريف الشامية الذي يضج بالحقول الواسعة والطيور والفواكه..

في تلك الأيام من عام 1931 كان عبد الكريم معلماً في «مدرسة الشامية» الإبتدائية في قضاء الشامية التابع للواء الديوانية. وكان هديب الحاج حمود أحد تلامذته في الصف السادس. وكان عبد الكريم معلماً في مادة اللغة الإنكليزية. ويقول هديب: «اختاره عبد الكريم وزيراً للزراعة في أول حكومة لثورة 14 تموز/يوليو». ويضيف هديب عن تلك المدة في حياة عبد الكريم: كان متميزاً عن زملائه بعدم اختلاطه بسكان القضاء وإقامة العلاقات مع رواد

مضايف المدينة رغم تفوقه كمعلم ناجح في اللغة الإنكليزية. وهكذا لم يمض عبد الكريم أكثر من سنة دراسية واحدة في الشامية حتى عاد بعدها إلى بغداد.

ففي تلك الأيام التي قضاها عبد الكريم في الريف الجنوبي الزاخر بالظلم الإقطاعي والاستغلال الرهيب لجهود الفلاحين الفقراء عاين على الطبيعة الجهل الذي يرزح فيه الفلاح تحت ظلم الإقطاع رغم تكدس ثرواته، وعاين كذلك الهموم الثقيلة التي تئن تحت سطوتها آلاف العوائل الفلاحية الفقيرة. وبحسه الطوباوي أثقل نفسه هماً رومانسياً عن الثورة وإلا ما معنى تكراره لكلمات كالفقر والفقراء في خطبه اللاحقة؟!

وهكذا كانت أيام التعليم والمعاينة المجردة وعن كثب على ظروف الفلاح التي عاشها عبد الكريم في شبابه في الشامية مليئة بالحقد المخفي ليس إلا.

ربما منذ تلك السن المبكرة: العمل في النجارة مع والده، والإحساس بالشقاء من متاعب الفقر في الحي البغدادي، والتنقل مع أسرته وراء رغيف الخبز من بغداد إلى الصويرة والعودة إلى العاصمة بعد فشل والده الذريع بالحصول على عمل مستقر، والتوظف في التعليم وممارسة التدريس في الشامية ومعاينة استغلال الفلاحين، والقهر الواقع عليهم من الإقطاع، ربما منذ تلك السنوات المبكرة في صباه وشبابه أحس إحساساً عنيفاً لا يخلو من رومانسية بالظلم الإجتماعي الذي جعل منه متمرداً مع ذاته وثورياً في 14 تموز/يوليو عام 1958. عندما ولد عبد الكريم قاسم محمد البكر

عام 1914 في بغداد في محلة المهدية كان الجيش البريطاني قد استكمل إحتلاله للعاصمة وأخذ يدفع بالقوات التركية إلى الوراء نحو شمال البلاد. كانت بريطانيا تحتل العراق، وفقد هذا البلد ارتباطه بالدولة العثمانية بعد هزيمتها في الحرب وأصبح منذ عام 1914 تحت الإحتلال البريطاني.

في ذلك المسكن المعتم، في تلك المحلة البغدادية الفقيرة وضعت كيفية بنت حسن اليعقوبي ولدها في الحادي والعشرين من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر. وشاءت الأقدار أن يشب هذا الطفل ويكبر.

لا نعرف الشيء الكثير عن طفولة عبد الكريم إنه لم يكن يميل إلى الهزل والسفاهة والتبذير بسبب شظف العيش الذي عاناه مع أسرته في الدور الأول من حياته. ولهذا الاستنتاج بعض الأساس في آراء زملاء عبد الكريم في الدراستين الإبتدائية والثانوية ومن ثم في التعليم فالكلية العسكرية. والقول أن الفقر الذي عاشه في مطلع طفولته وشبابه أكسبه فضيلة التعفف. وقيل أيضاً أن عزوفه عن الزواج كان بسبب قساوة الظروف التي عاشها. وكانت العزوبية ـ كما تبدو في الأيام اللاحقة ـ سلاحه الذاتي في الدفاع عن نفسه وصموده. لقد علمته الحياة منذ سن مبكرة دروساً في التقشف والنزاهة والصبر.

في العام 1921 كان عبد الكريم قاسم يستعد للذهاب إلى المدرسة الإبتدائية وقد بلغ السابعة من عمره وبالرغم من اعتزاز والده بطفله المتوجه إلى مقاعد الدراسة في مدرسة الرصافة الإبتدائية إلا أن واقع الحال آنذاك كان ضد رغبات الأب.

لقد رافق اندلاع ثورة 30 حزيران/ يونيو 1920 تعطيل تام

للدراسة في العراق، وصعب على المعلمين الالتحاق بمدارسهم بسبب تعطل الحياة، بل واضطر بعضهم إلى المكوث في العاصمة حتى انجلاء الموقف.

مع ذلك نجد أن عام 1921 هو عام تأسيس الدولة العراقية الحديثة وتنصيب فيصل ملكاً على العراق بعد سبع سنوات من الحكم البريطاني المباشر.

كان التعليم يسير حثيثاً لا في بغداد وحدها بل في العراق بأسره. ومع أن بغداد ليس فيها سوى عدد محدود من المدارس عام 1921 إلا أن انتشار الرغبة في تعليم الأولاد وقتذاك دفع الآباء من متوسطي الحال ليضعوا أولادهم في مؤسسات تعد الرجال الممتازين للمسؤوليات الجديدة في الدولة الجديدة خاصة وأن المملكة العراقية فقيرة إلى السواعد الوطنية لإدارة مرافقها المختلفة.

لا شك إن التعليم في العراق خلال المدة 1914 ـ 1921 كان تعليماً منغلقاً عدا ميسوري الحال إن صح التعبير. ربما لم تكن المدرسة الإبتدائية المقياس الوحيد ليسر الآباء فهي الخطوة الأولى التي انقطعت عنها أقدام صغار العراقيين بسبب التزامات المدرسة والدراسة الثقيلة مما جعل الآباء يتخلون عن رغباتهم بالصرف على أولادهم واللجوء إلى أبواب الحياة الأخرى لاكتساب الرزق ومقاومة ضغوط الحياة المعيشية. وهكذا بات هاجس الآباء التفتيش عن مهن مناسبة تليق بأبنائهم بديلاً عن مقاعد الدراسة!

في 22 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1923 تشكّلت أول وزارة ذات قبضة حديدية كما توصف في المصادر برئاسة جعفر العسكري

وضمت نوري السعيد وعلي جودة الأيوبي وهم من العسكريين الذي خدموا في الجيش العثماني والتحقوا مع الشريف حسين وشاركوه في الثورة العربية.

جاءت هذه الوزارة لتحقيق الأهداف من فرض المعاهدة العراقية ـ البريطانية الجائرة التي عقدت في 10 تشرين الثاني/نوفمبر 1922 وفعلاً استطاع العسكري أن يحصل على موافقة 37 نائباً في المجلس التأسيسي من أصل 68 نائباً وتخلف عن الحضور 32 نائباً.

بعد أن استكملت مهامها قدمت الوزارة استقالتها في 2 آب/أغسطس عام 1924 وجاء ياسين الهاشمي إلى الحكم برغم من أن السلطات الحقيقية لم تكن في يد الملك أو رئيس وزرائه. كان المندوب السامي هو الحاكم المتنفذ في العراق آنذاك.

لقد استطاعت بريطانيا أن توجد في البلاد طبقة حاكمة تتبادل المناصب والحقائب الوزارية حسب شدة الظروف وليونتها في محاولة إما لتشديد الموقف لصالح الإنكليز أو إرخائه لمصالحهم كذلك.

وهكذا زجت وزارة الهاشمي في صراع مع الإنكليز بعد أن أثيرت مشكلة الموصل خاصة وأن ياسين الهاشمي كان من المغضوب عليهم من الإنكليز وقد سافر بنفسه إلى الموصل وهيأ الجو هناك وأخذت الوزارة تساوم الإنكليز.

جاءت لجنة التحقيق المؤلفة بقرار عصبة الأمم الصادر في 30 أيلول/سبتمبر 1924 إلى الموصل في 27 كانون الثاني/يناير عام 1925. في هذه السنة عادت أسرة قاسم محمد البكر إلى بغداد بعد أن قضت زهاء العام في مزرعة عم عبد الكريم في الصويرة. عادوا

جميعاً إلى محلة قنبر علي وعاد رب الأسرة إلى مهنته الأولى، النجارة. وواصل عبد الكريم دراسته بمدرسة الرصافة. وكان يساعد والده في أعمال المهنة بعد أوقات الدوام.

في تلك السنة التي جاهدت فيها أسرة قاسم من أجل لقمة العيش كانت المناقشات السياسية محتدمة بين الأطراف المعنية بقضية الموصل حيث أعقبها صدور قرار مجلس عصبة الأمم بتعيين الحدود العراقية ـ التركية في 16 كانون الأول/ديسمبر عام 1925 وبإعطاء ولاية الموصل إلى العراق. ودخل عبد الكريم قاسم الثانوية المركزية عام 1927.

كان الحدث الجديد بالاهتمام في عام 1927 هو الإضراب الطلابي الكبير في بغداد من أجل نصرة المدرس العربي أنيس زكريا النصولي الذي طردته الحكومة العراقية.

وليس هناك أية إشارة في مؤلفات تناولت سيرة عبد الكريم قاسم إلى مشاركته كطالب في الثانية عشرة من عمره في ذلك الإضراب الشهير، بالرغم من أن أغلبية طلاب الثانوية المركزية كانوا نواة الإضراب وقادته بالتنسيق مع دار المعلمين.

حتى ذلك الحين لم يصبح عبد الكريم مكروهاً! بسبب ذلك الإضراب الذي تعرض فيه يوسف زينل وفائق السامرائي سفير الثورة في القاهرة بعد 14 تموز/يوليو وحسين جميل وزير الإرشاد في حكومة قاسم وعشرات غيرهم إلى الطرد والفصل.

لم تعترض عبد الكريم قاسم خلال دراسته في الثانوية المركزية سوى عقبة واحدة منعته من المشاركة في امتحانات الدور الأول

حيث أصابه مرض نفسي في أيار/مايو عام 1927 وشفي منه بعد فترة قصيرة ثم تهيأ للدور الثاني. وفعلاً نجح في دروسه جميعها، وبذلك يكون عبد الكريم قد أحرز الشهادة الثانوية. وقرر الانضمام إلى الأسرة التعليمية.

وفيما عدا هذه التطورات الجديدة في حياته لم تكن هناك عوامل أخرى أكثر تأثيراً من ذلك في مسار حياته. والتحق عبد الكريم بمدرسة «الشامية» في جنوب العراق.

كان التخلف في ميدان التعليم مخيفاً حقاً خلال العام 1927 وكان عدد المدارس في عموم العراق في ذلك العام 276 مدرسة إبتدائية ومتوسطة وثانوية والتحق فيها 28,028 تلميذاً من كلا الجنسين ولم تزد نسبة المعلمين في البلد على 3٪ من السكان إذا افترضنا عدد نفوس العراق ثلاثة ملايين نسمة عام 1927 مقابل 10٪ هي نسبة المتعلمين إبان الحكم العثماني. ولم تكن مدارس بغداد مستوفية لشروطها الصحية والمعمارية كمدارس إذ كانت معظم غرف صفوفها صغيرة ورديئة التهوءة، قليلة الإضاءة، ورطوبتها شديدة.. فتأمل آلافاً من الأطفال والصبيان والشباب يقضون ثماني ساعات يومياً مدة تسعة أشهر من كل سنة في أبنية غير صحية، وكان الدوام صباحاً وعصراً.

وإذا كانت هذه هي أحوال المدارس في بغداد عام 1927 والسنوات التي تلتها، فكيف هي أحوالها في قضاء الشامية؟!

بالرغم من هذه الصورة المأساوية لواقع المدارس العراقية إبان العشرينات والثلاثينات فإن الثانوية المركزية التي التحق عبد الكريم

قاسم في صفوفها عام 1927 كانت مدرسة متطورة ومتقدمة على مثيلاتها في العراق. وهي تكاد تكون المدرسة البغدادية الوحيدة التي يطمح الآباء إلى إدخال أولادهم فيها. فهي المنبت الرئيس للانتلجنسيا المحلية والمعقل الوطني للشباب فمنها ومن دار المعلمين وكلية الحقوق تتسرب الأفكار الثورية التقدمية وتصطدم بعقليات القائمين على الحكم وقتذاك.

وربما من هنا ومن جذور مهنة النجارة القاسية وظروف أسرته كره الفقر وظل يردد كلمة الفقر ملازمة في خطبه اللاحقة بعد ثورة 14 تموز/يوليو، لكنه مع شديد الأسف لم يطرح البديل الواقعي والحقيقي لتقليص هوة الفقر أو القضاء عليه!

لقد كان عبد الكريم قاسم يرى في مهنة التعليم.. مهنة شاقة لا تلائم تطلعاته، وبين الحين والآخر كان يتردد في اتخاذ قراره ولاسيما أن أحداث 1930 ـ 1931 كانت مشجعة على اتخاذ القرار.

قبل أن تتفاقم الأحداث خلال 1930 ـ 1931 حصل أن تظاهر الطلاب ضد زيارة الصهيوني ألفرد موند إلى بغداد عام 1928. وبذلت الحكومة وقتذاك جهودها لتخليص «الضيف» من براثن المتظاهرين وتدبير أمر هروبه عن طريق أبو منصير ودخوله إلى بغداد تحت حراسة مشددة. كان عبد الكريم وقتئذ تلميذاً في الثانوية المركزية، وكانت الثانوية معقلاً للمعلمين والتلامذة الأحرار..

إن عدداً كبيراً من تلامذة الثانوية أصبحوا فيما بعد من رجال السياسة والفكر والثقافة الوطنية والقومية وخدموا بلادهم بإخلاص رغم تباين معتقداتهم وأفكارهم السياسية والإجتماعية. وفي هذه

الأجواء نشطت الأفكار القومية المعارضة للحكم العميل وربما كان عبد الكريم كالسمكة الصغيرة وسط الأمواج الهادرة إذ لم يسجل عنه نشاط ملموس في الحركة الطلابية الوطنية وقتذاك.

أدت غطرسة الإنكليز وتعنتهم إلى حادث مأساوي فظيع وقع في 12 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1929. فقد ضرب عبد المحسن السعدون ـ رئيس الوزراء آنذاك ـ نفسه بالرصاص وانتحر. وترك الرئيس المفجوع رسالة هي وصية حزينة لولده علي وحذّر فيها الشعب بأن الإنكليز لا يريدون مصلحة العراق.

## ـ لماذا اختار عبد الكريم قاسم حياة الجندية؟:

لقد اختار عبد الكريم قاسم طريق الجندية ربما بسبب وضعه النفسي والإجتماعي، والشعور بالقرف من الوظيفة التي جعلته منسياً في أقصى الجنوب ولأنه ينحدر من عائلة غير ميسورة وإن الراتب الذي يدفع له في الجيش أفضل مما يتسلمه من المعارف، وأيضاً بسبب الانضباط الذاتي الذي عاشه في حياته الشخصية زرعت فيه الرغبة الملائمة مع الحياة العسكرية. وإن الأحداث التي أعقبت معاهدة 1930 وفرت له أحد الدوافع الهامة في تغيير نمط حياته.

من المعروف أن الجيش العراقي تأسس في 6 كانون الثاني/يناير عام 1921 وضم بين صفوفه كبار الضباط الذين خدموا في الجيش العثماني ثم تركوه والتحقوا بالشريف حسين ومن ثم بولده الأكبر فيصل.

وبعد ثلاث سنوات ظهرت إلى الوجود كتلة الضباط القوميين التي كان يدعمها ويقويها ياسين الهاشمي وبعدها تكونت من ضباط صغار

الرتب من أمثال صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد ومحمود سلمان.

وكانت بريطانيا من خلال تدخلها المباشر في شؤون الجيش قد منعت حكومات ما قبل العام 1932 ـ موعد دخول العراق عصبة الأمم ـ من التوسع في صفوفه وأفراده وإبقائه ضعيفاً.

## ـ عبد الكريم قاسم قائد ثورة 14 تموز/يوليو 1958:

ولد عبد الكريم قاسم في 21 كانون الأول/ديسمبر عام 1914، من عائلة فقيرة تسكن محلة المهدية وهو حي فُقير يقع في الجانب الأيسر من مدينة بغداد.

أبوه جاسم محمد البكر الزبيدي ـ جرى تغييره إلى قاسم ـ وأمه كيفية حسن اليعقوبي وله شقيقان هما حامد قاسم شقيقه الأكبر ويعمل كاسباً في بيع الحبوب والأغنام، وشقيقه الأصغر لطيف قاسم الذي كان نائب ضابط في الجيش العراقي، وبقي بتلك الرتبة طيلة مدة حكم أخيه عبد الكريم قاسم، أما والده فكان يعمل نجاراً، كما كان يردد عبد الكريم دائماً في خطبه، ويفخر بكونه ابن ذلك النجار الفقير.

انتقلت عائلته إلى بلدة الصويرة، وهي بلدة صغيرة في جنوب العراق، وكان عمره 6 سنوات، ولكن العائلة ما لبثت أن عادت إلى بغداد عام 1926، حيث أكمل عبد الكريم دراسته الإعدادية، وتخرج منها عام 1931، واختار بعد تخرجه أن يعمل معلماً، لمساعدة عائلته، وتعيّن بالفعل في إحدى قرى الشامية وهي بلدة صغيرة تقع في جنوب العراق، وقضى في التعليم سنة كاملة، غير أن مهنة

التعليم لم ترضِ طموحه، فقد كان، وهو ابن العائلة الفقيرة، يتطلع إلى طموح بِعيد المدى، يحقق حلمه في إحداث تغيير عميق في حياة الشعب العراقي وفي تحرير العراق من ربقة الاستعمار من جهة، وفي معالجة مشكلة الفقر من جهة أخرى، وفكر عبد الكريم قاسم في ترك مهنة التعليم، والتحول نحو الجيش الذي كان يرى فيه أمل الشعب في إجراء التغيير الحقيقي والجذري المنشود بعد أن عجزت انتفاضات الشعب المتتالية عن تحقيق هذا الهدف.

كان لابن خالته، العقيد الطيار، محمد علي جواد، قائد القوة الجوية آنذاك، ـ وليس كما ذكر السيد الصيني اسم عبد الجبار جودت خطأ وهو ابن خالة عبد الكريم وليس ابن عمته وقد اغتيل مع بكر صدقي في بهو المطار العسكري في الموصل ـ. دوراً في دخول عبد الكريم قاسم الكلية العسكرية عام 1932، حيث تخرج منها بتفوق، في 15 نيسان/أبريل عام 1934 ضابطاً برتبة ملازم ثاني في الجيش، وتدرج في رتبته العسكرية حتى وصل إلى رتبة رئيس (نقيب) حيث دخل كلية الأركان في 24 كانون الثاني/يناير عام 1941 وتخرج منها بتفوق عام 1943.

وفي 4 تشرين الأول/أكتوبر عام 1950 أُرسل عبد الكريم إلى لندن للمشاركة في دورة عسكرية للضباط الأركان أنهاها بتفوق، وعاد إلى العراق، وتدرج في رتبه العسكرية حتى بلغ رتبة زعيم ركن (عميد ركن)، وكان آخر مركز شغله في المؤسسة العسكرية هو آمر اللواء التاسع عشر الذي كان له شرف قيادة ثورة 14 تموز/يوليو عام 1958.

شارك عبد الكريم قاسم خلال خدمته العسكرية في حرب فلسطين آمراً لأحد الأفواج وأبدى بطولة نادرة في معركة كفر قاسم، غير أنه عاد من تلك الحرب ناقماً على السلطة الحاكمة في بغداد، التي خذلت الجيش، ومنعته من تنفيذ مهامه، وتحقيق آمال الأمة العربية في الحفاظ على عروبة فلسطين، فقد قُيدت حركة الجيش، ومُنع من القيام بمهامه بسبب التواطؤ المعروف بين بريطانيا والحاكمين بأمرهم في بغداد، فلم تكن حرب فلسطين سوى مسرحية نفذها الحكام العرب آنذاك، بإخراج أنكلو ـ أميركي، من أجل تحقيق وعد بلفور، وزير خارجية بريطانيا، الذي وعد اليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين. ويتذكر الذين عاصروا تلك الأحداث، فضيحة الأسلحة الفاسدة التي جهزت بها بريطانيا الجيش المصري، أيام الملك فاروق، والتي استخدمها في تلك الحرب، مسببة وقوع خسائر جسيمة في صفوف الجيش المصري، وتدمير معنوياته، وخذلانه، من أجل تحقيق أهداف بريطانيا والحركة الصهيونية، في سلب قلب الأمة العربية، وصلة الوصل بين المشرق العربي ومغربه وكان لاختيار فلسطين لإقامة هذا الكيان اللاشرعي أهداف بعيدة المدى للإمبريالية الأنكلو ـ أميركية، ظهرت جلية لكل ذي بصيرة، في تمزيق العالم العربي، ومنعه من التوحد، وفي فرض السيطرة الكاملة على المنطقة العربية، والهيمنة على ثرواتها النفطية، وليجعلوا من دولة إسرائيل سيفاً مسلطاً على رقاب الأمة العربية، وحارساً قوياً وأميناً للمصالح الإمبريالية في الشرق الأوسط والخليج.

ولّدت تلك الحرب وسلوك الحكام العرب لدى عبد الكريم قاسم سخطاً مشروعاً على النظام العراقي وخيانته لمصالح الوطن

ومصالح الأمة العربية، وجعلت فكرة الثورة تختمر في تفكيره، فكرس جهده لتنفيذ هذه الفكرة حتى تحقق له ذلك صبيحة 14 تموز/يوليو عام 1958.

كما أن الأحداث التي تلت حرب فلسطين في العراق، والتي كان على رأسها وثبة كانون المجيدة في نفس ذلك العام، ووثبة تشرين المجيدة عام 1952، وعقد حلف بغداد، وانتفاضة عام 1956، إبان العدوان الثلاثي على مصر، والتي قمعها الحاكمون بالحديد والنار، جعلت الشعب العراقي وقواه الوطنية، والعناصر الوطنية الثورية في الجيش، وفي المقدمة منهم عبد الكريم قاسم يفقدون أي أمل في إصلاح أوضاع البلاد سلمياً، ووجدوا أن العمل الثوري هو السبيل الوحيد لإزاحة الفئة الحاكمة من الحكم، وأن السبيل لذلك لا يمكن أن يتم إلا بتدخل الجيش.

وهكذا جاءت ثورة الرابع عشر من تموز/يوليو 1958، والتي قادها بنجاح، عبد الكريم قاسم مدعوماً بكل فئات الشعب، من قوميين وديمقراطيين وشيوعيين، خرجوا جميعاً صبيحة ذلك اليوم لإسناد الثورة ودعمها، مستعدين للتضحية والفداء من أجل نجاحها، وديمومتها، ومن أجل تحقيق آمال وطموحات الشعب العراقي في الحياة الحرة الكريمة.

واستطاعت حكومة الثورة التي شكلها عبد الكريم قاسم أن تحقق الكثير من الإنجازات، في عامها الأول، كان في مقدمتها قانون الإصلاح الزراعي، الذي كان بحد ذاته، ثورة إجتماعية كبرى حيث حررت الفلاحين الذين يمثلون 75٪ من الشعب العراقي، من

نير الإقطاعيين وخلقت علاقات إنتاجية جديدة، وألغت قانون العشائر المتخلف، حيث أصبح سكان الريف شأنهم شأن سكان المدن جميعاً خاضعين للقانون المدني.

ولأول مرة في تاريخ العراق، نصّ دستوره المؤقت الذي أصدرته حكومة الثورة، على أن العرب والأكراد شركاء في هذا الوطن، وفي ذلك خير تأكيد على حقوق الشعب الكردي القومية، وقد تم استقبال الزعيم الكردي مصطفى البارزاني ورفاقه العائدين من الإتحاد السوفياتي، استقبالاً رسمياً وشعبياً كبيراً، وتمّ منح العائدين رواتب شهرية، وجرى إسكانهم في بيوت بنيت لهم حديثاً، وتمّ إسكان القائد الكردي مصطفى البارزاني في قصر نوري السعيد، وجرى تأمين كافة احتياجاته، بما يليق به كزعيم كبير للشعب الكردي.

وجاء قانون الأحوال المدنية الجديد ليحرر المرأة ويجعلها على قدم المساواة مع الرجل. فكان بحق ثورة إجتماعية أخرى، وفي المجال السياسي، أقدمت حكومة عبد الكريم قاسم على إخراج العراق من حلف بغداد، وتحرير العملة العراقية من منطقة الإسترليني، فكان ذلك نقلة نوعية كبرى في طريق التحرر من الهيمنة الإمبريالية، وعودة العراق إلى الصف العربي، وتقديمه لكافة المساعدات لحركة التحرر العربية، وخاصة لفلسطين والجزائر، واستطاعت حكومة عبد الكريم قاسم أن تقيم علاقات متوازنة مع جميع البلدان الأجنبية، ومنها دول المعسكر الإشتراكي بعد أن كانت حكومة نوري السعيد قد قطعتها فيما مضى.

أما في المجال الإقتصادي، فقد كان تشريع قانون رقم 80 لسنة

1961 أخطر ضربة وجهها عبد الكريم قاسم لشركات النفط، حيث تم بموجب القانون استعادة 9، 99٪ من الأراضي الداخلة ضمن إمتياز شركات النفط، والحاوية على احتياطات نفطية هائلة، وإصدار قانون شركة النفط الوطنية، بغية استغلال مكامن النفط وطنياً.

لقد كان المؤمل من الثورة أن يتجذر عمقها بالسير إلى الأمام من أجل تحقيق ما يصبو إليه الشعب العراقي، لكن الانشقاق الذي قاده عبد السلام عارف، الشخصية الثانية في قيادة الثورة والذي دعمه جانب كبير من القوى القومية، والبعثيين، ومحاولة تلك القوى فرض الوحدة الفورية مع الجمهورية العربية بالقوة، عن طريق اللجوء إلى التآمر المسلح، أعاق تجذر الثورة وتطورها، فقد جرت ثلاث محاولات انقلابية، والثورة ما تزال في عامها الأول، وأدى سلوك عبد السلام عارف إلى شق وحدة الشعب، وجبهة الإتحاد الوطني، وتحول ذلك التعاون، والتآلف بين القوى الوطنية إلى حالة من الاحتراب العنيف.

استطاع عبد الكريم قاسم بدعم وإسناد من الحزب الشيوعي آنذاك أن يتجاوز كل المؤامرات والمخاطر التي كانت محدقة بالثورة، حيث سخر الحزب كافة إمكاناته لدعم الثورة وقيادتها دون قيد أو شرط.

لقد كان على تلك القوى أن تناضل معاً من أجل قيام مجلس تشريعي ينتخبه الشعب بكل حرية، ومن أجل سن دستور دائم للبلاد يصون حقوق الشعب وحرياته، والرجوع إلى ممثلي الشعب في البرلمان عند تقرير مصائر البلاد، واعتماد مبدأ الديمقراطية في الحياة السياسية.

كان عبد الكريم قاسم، شأنه شأن أي إنسان آخر، له إيجابياته وسلبياته معاً، فليس هناك من استطاع الطعن في وطنيته وأمانته وحرصه على ثروات البلاد ومصالح الشعب، ولم يستطع انقلابيو 8 شباط/ فبراير 1963، أن يجدوا أي تهمة تمس أمانته ووطنيته. لكن عبد الكريم قاسم، كانت له أخطاؤه وسلبياته، التي أوقعته في المكيدة التي نصبها له الإمبرياليون وعملاؤهم، وأوقع شعبه معه فيها. لقد أخطأ عبد الكريم قاسم في تقييمه لطبيعة الصراع بين قوى الثورة وقوى الردة، ولاسيما بعد دحر الطبقة الحاكمة من كبار الملاكين والإقطاعيين الذين قضت الثورة على سلطانهم، وخاصة بعد إصدار قانون الإصلاح الزراعي، فهذه القوى كانت قد أصبحت أكثر شراسة بعد إقصائها من الحكم، وأكثر استعداداً للتعاون والتنسيق مع الإمبرياليين من أجل اغتيال الثورة وقيادتها.

لقد أخطأ عبد الكريم قاسم في سياسة التسامح مع أعداء الثورة، وأخطأ في اعتماده على عناصر غير أمينة على مصالح الشعب والوطن، وأخطأ بسياسة «فوق الميول والاتجاهات» وسياسة التوازن بين القوى التي تحمي الثورة وتدافع عنها، وبين التي سعت منذ البداية للتآمر عليها، وأخطأ أخيراً بسياسة «عفا الله عما مضى».

لقد بلغت سياسة عبد الكريم إلى حد إعفاء كل الذين تآمروا عليه، وحاولوا ونفذوا محاولة القتل، ليدبروا انقلاب 8 شباط/ فبراير عام1963، وليقُتل على أيديهم فيما بعد.

ومن جهة أخرى سعى عبد الكريم قاسم، عملاً بسياسة التوازن التي اتبعها إلى تحجيم الحزب الشيوعي، سنده الحقيقي، على

الرغم من الأخطاء التي وقع فيها الحزب، وخاصة في أسلوب تعامله مع الزعيم عبد الكريم قاسم ولجوئه إلى الشارع يوم الأول من أيار/ مايو عيد العمال العالمي عام 1959، حيث سيّر تلك المظاهرة المليونية رافعة الشعار «عاش زعيمي عبد الكريمي، الحزب الشيوعي بالحكم مطلب عظيمي» وهنا أنقل الشعار نصاً كما كانت الجماهير تهتف به دون تغيير. لقد كان لذلك الشعار الخاطئ وقع خطير جداً ليس على عبد الكريم وحده بل على البرجوازية الوطنية والإمبريالية العالمية والحزب الشيوعي نفسه، فلقد صارت لعبد الكريم قاسم القناعة بأن الحزب الشيوعي قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من الوثوب إلى الحكم، وأدخل قادة البرجوازية الوطنية المتمثلة بكتلة الراحل محمد حديد الروع في نفس عبد الكريم قاسم من خطورة الشيوعيين، ولم يكن فزع الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين أقل من ذلك شأناً، فقد صرح في ذلك اليوم رئيس جهاز المخابرات المركزية الأميركية آلن دلالس قائلاً:

«إن أخطر ما يواجه عالمنا اليوم هو الوضع الخطير في العراق»، فقد حصلت لديه القناعة بأن الحزب الشيوعي يوشك أن يثب إلى السلطة في العراق، على الرغم من أن الحزب الشيوعي لم يكن يفكر آنذاك في مشروع من هذا القبيل، بل على العكس من ذلك كان الحزب الأكثر اندفاعاً في حماية الثورة، وهو الذي عبأ كافة المنظمات الشعبية النقابات والإتحادات، حيث جندت كل قواها لحماية الثورة ودعمها، فكان تغيير موقف الزعيم عبد الكريم قاسم من الحزب ومحاولة تحجيمه خطأً فادحاً وقع فيه، مما أدى في نهاية المطاف إلى عزلته عن جماهير واسعة من الشعب ذات

المصلحة الحقيقية في الثورة، وبالتالي مهد السبيل لتلك القوى البعثية والقومية لاغتيال ثورة الرابع عشر من تموز وقائدها عبد الكريم نفسه في انقلابهم الفاشي في الثامن من شباط/فبراير عام 1963 الذي أغرق العراق بالدماء.

كما أنه أخطأ في تقديره لمكائد الإمبرياليين الذين استفزهم إصدار قانون رقم 80 لسنة 1961 ولم يتعظ من أحداث إيران على عهد الدكتور مصدق، والانقلاب الأميركي الذي قاده الجنرال زاهدي عميل المخابرات الأميركية، بعد إقدام مصدق على تأميم النفط الإيراني، حيث لم يتخذ الإجراءات الكفيلة لصيانة جبهة الإتحاد الوطني، وزجها في المعركة ضد الإمبريالية، فكان تحرك الإمبرياليين أسرع منه، واستطاعوا إسقاط حكومته.

إذاً لم يكن عبد الكريم قاسم المخطئ الوحيد على الساحة السياسية للبلاد، بل أن سائر الأحزاب السياسية كان لها دور ونصيب في تلك الأخطاء، سواء كان بشكل مباشر أو غير مباشر.

ورغم كل الأخطاء التي وقع فيها عبد الكريم قاسم، فإنه يبقى شامخاً كقائد وطني مخلص، معادي للاستعمار، نذر حياته في سبيل تحرير وطنه من نير الإمبريالية وسعى إلى إسعاد شعبه والنهوض بالعراق في مختلف المجالات الإقتصادية والإجتماعية والثقافية والصحية، محققاً العديد من الإنجازات رغم قصر عمر الثورة ورغم الظروف التي أحاطت بها، ولو قدر أن تمتد الحياة بالشهيد عبد الكريم قاسم، ولو لم تقع الأحزاب السياسية كافة

بأخطائها تلك، وسبل تعاملها معه، لكنا شهدنا الشعب العراقي اليوم يعيش في أرقى المستويات التي تعيشها الشعوب المتقدمة في العالم أجمع، ولما شهد شعبنا الويلات والمآسي والمصائب على أيدي إنقلابيي شباط/فبراير 1963 وانقلابيي 17 و30 تموز/يوليو 1968 المغرقين بالجريمة حتى آذانهم بحق شعبنا ووطننا وعلى رأسهم صدام حسين.

### - تفاصيل محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم:

غيوم آذار/مارس عام 1959 المصفرة كالزعفران عبرت السماء المقطعة إلى مربعات صغيرة. صدام حسين الماشي بخطى ثابتة ذهاباً وإياباً بين جدارين، في الجو المثقل بالغبار، ربط خيطان حوادث الشهور الماضية بعضها إلى بعض، فبلغ عقدةً في الوسط من كتلة الخيطان، وخلع على العقدة اسماً واحداً لا يقبل الشك.. وهو عبد الكريم قاسم.

حين خرج من السجن بعد ستة أشهر كاملة، وجد الصيف القاحل بانتظاره، في بغداد التقى العقيد البكر في بيت رفيقٍ بعثي شارك في حرب 1948.

اللقاء مع العقيد البكر، بعد الفراق الطويل، بدا له إشارة، أحسّ أن الأقدار تتآمر معه، يحتاج الآن إلى رجل في القيادة يفهم ما يفكر فيه. يشاركه التفكير، كانا جالسين قرب نافذة مشرفة على دجلة. قمر الصيف ارتفع فوق نتف غيوم بيضاء وسط سماء مزدحمة بالنجوم. كان الطقس رائقاً على غير عادة. وسمع مذياعاً في الجوار: صوت أم كلثوم يتعالى مرتفعاً فوق السطوح. أغنية

جديدة. قال العقيد وهو يشعل غليونه: «المؤسف في السجن أنك لا ترى سماء الليل».

استغرب صدام حسين جملة العقيد، لكنه لم يقل شيئاً. كان فكره مشغولاً بأمور أخرى.

سأله العقيد البكر إن كان يلعب الشطرنج، فأجابه صدام حسين أنه يتقن قواعدها، لكنه لا يجيدها كما يجيد الداما.

سأله العقيد: كم صار عمرك؟

أجاب صدام: 22، 23.

سأله العقيد: وكم تحسّ عمرك؟

قال صدام: 50، 51.

ابتسم العقيد، بدا حزيناً، كأنه يفكر في أشياء أخرى لا يستطيع الإفصاح عنها.

يوم الاثنين 5 تشرين الأول/أكتوبر 1959 تلقى صدام حسين أخيراً الأمر الذي كان ينتظره. في إجتماع سري ذلك المساء، أعطاه أمر المجموعة المكونة من خمسة أشخاص، مسدساً وثلاثة أمشاط ذخيرة. كانت مهمته تغطية رفاقه. هو طلب أن يشارك في عملية الاغتيال.

قال له آمر المجموعة: «لم تتلقَّ تمريناً كافياً على التسديد. هكذا الخطة أفضل. تغطيتنا جزء جوهري من العملية كلّها، نفذ مهمتك».

تلك الليلة دار في أزقة الرصافة يفكر في الأربعاء المقبل، يومان فقط، عليه أن ينتظر يومان فقط ثم... كان خبأ المسدس

تحت الفراش في البيت في الكرخ. قبل أن يخرج أعطاه خاله بعض النقود مطوية في علبة سجائر «بغداد» فارغة.

قال له: «هذه من الحزب».

بدا الخال متعباً. صدام فكر أن الكردية دمّرته بفرارها المباغت إلى جبال كردستان.

وقف أمام بائع اللحمة المشوية، على الرصيف المقابل لوزارة الداخلية. أشار إلى أربعة أسياخ تبرق شحماً سائلاً وطلب من البائع أن يلفها في رغيف واحد مع بندورة مشوية وبصل. أكل السندوتش واقفاً على الرصيف، في نور مصابيح النفط في باب مخزن الخردة والحديد لصاحبها الحاج موسى خليل الطبلاوي، تأمل السيارات العابرة، وأنوار الكهرباء في الجانب الآخر، والمجموعات الصغيرة المسرعة في سيرها نحو الأسواق القريبة.. أمام وزارة الداخلية رأى الجنود جالسين حول نيران صغيرة أشعلوها في صناديق خشب محطمة، يستدفئون ويشربون الشاي الأسود الحلو، بنادقهم تستريح بين أفخاذهم، حين انتهى من السندوتش، شرب كوباً من اللبن، وأشعل سيجارة. عند هذا التقاطع، قرب صناديق نفايات أزالوها لا يدري متى وخلّفت في مكانها بقعاً سوداء قاتمة على الإسفلت وحافة الرصيف، كان يبيع السجائر عند الأصائل قبل سنين. كم سنة؟ طرد الفكرة من ذهنه، مشى إلى سوق البغاء. أصابعه تعبث بالنقود في جيبه.

وجد السوق مختلفة، امتدت فالتحمت بمحلة كوك نزر المجاورة، وتضاعف عدد البيوت. خرجت من مساحتها سيئة

السمعة، واجتاحت أطراف شوارع راقية. صعد درجات مبريّة متسخة بعد أن أزاح ستارة بالية جانباً. في صحن الدرج وجد المرأة البدينة الخمسينية نفسها، كأنها لم تغادر هذا المكان لحظة واحدة طوال حياتها.

من خلال نور المصباح المغطى بأغبرة سوداء وخيطان عناكيب رأى أن التجاعيد زادت في وجهها، وفاضت كما فاض السوق العمومي، وغطّت بطيّات منكمشة الذراعين السمينتين، واليدين أيضاً.

بعد أن وضع النقود على الطاولة، دلّته بإصبع كسولة إلى بابٍ في نهاية الممر.

قرع الباب فسمع صوت الفتاة من الداخل:

من؟

ارتبك. ساوره الارتباك لحظة خاطفة ثم وضع حداً لشريط الذكريات الذي تحرك في رأسه بأن دفع الباب بعنف ودخل الغرفة البيضاء الموصدة الستائر.

في السابعة صباحاً ترك صدام بيت خاله متجهاً إلى شارع أبو نواس. عبد الكريم الشيخلي كان في انتظاره أمام بار الفارابي. سارا معاً إلى معامل الإسمنت حيث وجدا الرفاق الثلاثة الآخرين جالسين حول نار صغيرة. كانت أمطار غزيرة هطلت قبيل الفجر، وجعلت الفضاء يتلألأ بهواء جليدي نظيف. آمر المجموعة أبلغهم أن العملية لن تنفذ في طريق عودة الرئيس قاسم من مكتبه إلى بيته،

بل لحظة خروجه من جديد عند المساء. الرفيق النحيل، صاحب الندبة على العنق، سأل:

ولماذا يخرج من بيته مرة أخرى؟ كيف نتأكد؟

أجابه آمر المجموعة:

المعلومات سرية.

المعلومات لم تكن سرية. الإذاعة أعلنت قبل أيام أن الرئيس قاسم سيحضر مساء الأربعاء حفل استقبال في سفارة ألمانيا الشرقية.

أطفأوا النار وتحركوا. ظهيرة ذلك الثلاثاء كانت غائمة. حجارة الباطون المرتفعة كالأهرام في باحة المعامل كانت مبلّلة، رمادية اللون، ثقيلة. آمر المجموعة ألقى التحية على عمال منشغلين بإصلاح منشارٍ آلي. تبيّن لصدام حسين أن آمر المجموعة يعرف هؤلاء العمال جميعاً. في وقت لاحق أخبره عبد الكريم الشيخلي أن هذه المعامل كلها مُلك عائلة رفيقهم. بينما يمرّون بين أكوام رمل وبحص، عبرت أسراب طيور فوقهم فأفزعتهم بظلالها المتموجة على الرمل الرطب.

تفقدوا موقع العملية في شارع الرشيد. آمر المجموعة حدّد مركز كل منهم، وشرح مرة أخرى خطة الكمين. الأسلحة الرشاشة كانت مخبأة في شقة مجاورة استأجرها الحزب من أجل هذه اللحظة. المسدسات في حوزتهم. بقية الأسلحة يأخذونها غداً، قبل العملية بساعتين. حين ابتعدوا عن البقعة، قبل أن يفترقوا، استدار

الآمر وقال لهم: «بعد 24 ساعة يتغيّر تاريخ العراق».

تلك الليلة دخل عدنان الغرفة المظلمة فوجد ابن عمته صدام جالساً متربعاً في الفراش يحدق مفتوح العينين إلى الظلام الكثيف. حين أضاء عدنان المصباح لم يرف للمتربع في الفراش جفنٌ. فكّر عدنان أن هذه عادة أخرى استولت على ابن عمته أثناء إقامته في السجن. بعد أقل من 24 ساعة، حين عَلِم بأمر العملية وسمع في الراديو خبر إطلاق النار على الرئيس قاسم، تذكر عدنان خير الله طلفاح مرة أخرى تلك النظرة الباردة في عينيّ صدام حسين القاعد وحيداً في ظلام غرفة موصدة في بيتٍ وسط الكرخ.

عند الساعة السادسة والثلاثين دقيقة مساء الأربعاء 7 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1959، بينما سيارة الرئيس عبد الكريم قاسم، رئيس الوزراء، القائد الأعلى للقوات المسلحة، تمرّ في شارع الرشيد متوجهة إلى حفل استقبال في سفارة ألمانيا الشرقية، أمطرت بوابلٍ من الرصاص.

خطة الكمين كانت تقضي بخروج الرفاق الأربعة من مكامنهم في لحظة واحدة. اثنان يمشطان بالأسلحة الرشاشة المقعد الخلفي، واثنان يمشطان بأسلحة مماثلة المقعد الأمامي. لم يحدث ذلك. المكلف بتغطية المهاجمين، الرفيق صدام حسين التكريتي، أخرج من تحت معطفه الطويل رشاشاً - تبين لاحقاً أنه رشاش خاله خير الله طلفاح العسكري المتقاعد والرفيق البعثي المعروف - وبهذا الرشاش الفرنسي القديم المصنوع خلال الأيام الأخيرة للحرب العالمية الثانية، فتح النار على سيارة العقيد قاسم ما إن أطلت عليه.

عام 1980 صدر كتاب باللغتين الفرنسية والعربية عنوانه «صدام حسين: الرجل والقضية والمستقبل». المؤلف عقد جلسات حوار طويلة مع الرئيس العراقي، ولم ينشر الكتاب إلا بعد أن قرأه الرئيس كاملاً وأبدى إعجاباً بدقته. يكتب في وصف العملية: «... لم يكن مطلوباً منه إطلاق النار وإنما تأمين حماية رفاقه الأربعة والانسحاب بعد أن يكون هؤلاء انسحبوا. لكنه لشدة حماسه وجد صدام حسين نفسه يسحب رشاشاً صغيراً من تحت سترة طويلة أخذها من خاله... ويطلق النار على سيارة عبد الكريم قاسم..».

مزقت رصاصة قلب آمر المجموعة. تلقى صدام حسين رصاصة في فخذ ساقه اليسرى. الراديو أعلن مقتل سائق الرئيس، وإصابة مرافقه بجراح خطيرة. الرئيس لم يُقتل. اخترقت رصاصة واحدة كتفه. في المستشفى، بينما يضمدون جرحه، أمر بمداهمة جميع أوكار البعث، وإلقاء عناصر الحزب في السجون بانتظار المحاكمة. سيارته الممزقة بالرصاص رفعت على منصة أمام وزارة الدفاع لتشهد على محاولة الاغتيال المشؤومة. قميصه المبللة بالدم نُشرت في الشمس حتى جفت، ثم عُرضت بالبقع السوداء التي تخللت النسيج، في خزانة زجاج خارج المكتب الرئاسي. أعلن الراديو يوم 7 تشرين الأول/أكتوبر عطلة وطنية سنوية. عُين حاجب خاص لتنظيف خزانة الزجاج، حيث القميص المعروض، كل صباح، وحاجب آخر لإبعاد الطيور عن السيارة الكئيبة المرفوعة بعجلات مثقوبة على منصة غرانيت أمام المدخل الرئيسي لوزارة الدفاع. الجيش اقتحم أوكار البعث في بغداد والموصل وكركوك. شُنت

الغارات على البيوت. خلال ساعات امتلأت السجون بالبعثيين. الهاربون عبر الصحراء إلى سورية قتل بعضهم على الطريق برصاص دوريات الجمارك.

صدام حسين لم يمت. إنه مصاب برصاصة في فخذه، حمله عبد الكريم الشيخلي على ظهره إلى بيت امرأة من أقاربه. المرأة السبعينية كانت قريبة أخوال عبد الكريم الشيخلي. شبه عمياء، وصماء تماماً في أذنها اليسرى، لم تتعرف إلى الشاب الذي طالما أطعمته تمراً بيدها، إلا بعد أن تلمست وجهه بأصابع مجعدة. أخبرها عبد الكريم أن رفيقه مصاب. اختفت لحظة وعادت تحمل سكيناً حادة ويوداً وخرق قماش ومقصاً مكسور القبضة. المرأة شبه العمياء ألقت ما في يدها في حضن عبد الكريم، وقالت إنها ستقف في الباب للمراقبة. فكّر الشاب البالغ من العمر 25 عاماً أن دماغها أيضاً بات في حالة بائسة.

قصّ اللحم بالسكين. صدام قبض على الأرض الطين، أظافره انغرزت في الأرض، حين أولج عبد الكريم المقص في الجرح، محاولاً تبين مكان الرصاصة في مركز البقعة الغارقة في الدم واليود، فقد صدام الوعي. حين استعاد وعيه بعد عشرين دقيقة وجد الجرح مربوطاً بخرق القماش.

جلبت لهما العجوز ماءً وخبزاً وتمراً. شرب صدام الماء لكنه امتنع عن الطعام، كان قمر منتصف الليل يلقي خيوطاً بيضاء عبر خصاص السقف على الأرض المعتمة. الكهرباء مقطوعة في الحيّ، من مكان بعيد سمعوا موسيقى عسكرية صادرة عن «إذاعة بغداد».

قال عبد الكريم الشيخلي إنه سيذهب ويعود بسيارة لينقله من هنا. الحيّ لن يكون آمناً في الصباح، والعجوز مصابة بالخرف، وقد تخبر الجيران عن ضيوف. لم يقل صدام شيئاً. كان لسانه كسحلاة ميتة بين فكيه. الفكّان أيضاً لا يحسّ بهما. كأن عظامه لم تعد عظامه. في مكان الجرح تحرقه إبر محماة على الجمر. لولا هذا الألم لفكر أنه قد مات.

ذهب عبد الكريم ولم يرجع. انتظره صدام حتى الفجر. كان النور يطلع من الشرق وهاجمته الوسواس: ماذا لو سلّمه عبد الكريم إلى السلطات؟ يسلمه وينجو بنفسه؟

في تلك اللحظة فُتح الباب وظهر عبد الكريم، نقله بالسيارة إلى الكرخ معتمداً طرقاً فرعية تمر بين البساتين. في بيت خاله خير الله طلفاح حقنوه بإبر مضادة للالتهاب، الخال جلب الدواء من طبيب يعرفه، قال للطبيب إن ابنه عدنان مصاب بالتهاب اللوزتين.

بعد يومين استطاع الوقوف على ساقه، كان يعرج بعض الشيء، لكنه مشى إلى الحمام. فكّ خاله رباط الجرح ونظّفه باليود. قال: هذا خدش!

في تلك الليلة ظلا متحلقين حول الراديو يستمعون لأخبار الغارات المتواصلة على البعث، قال عدنان إنه لاحظ رجلاً يراقب البيت هذا الصباح. المنطقة غير آمنة. رجال الأمن في كل مكان.

في الساعة الرابعة فجراً غادر صدام حسين منزل خاله خير الله طلفاح في الكرخ لابساً دشداشة، وعلى رأسه كوفية وعقال. كان

ينتعل حذاءً قديماً، وفي جيوبه سكيناً وثلاثة وعشرين ديناراً. في الرابعة والنصف فجراً، داهم رجال الأمن بيت خاله، وبعد أن قلبوا أثاث البيت وكسروا المرآة في الحمام، غادروا مصطحبين عدنان مصفداً بأغلال الحديد.

في ضواحي بغداد الشمالية أدرك صدام حسين أنه لن يستطيع السير طويلاً بساقه الجريحة، ابتاع فرساً بـ 17 ديناراً من صاحب مزرعة هناك. تزود بتمرٍ وخبز وماء، ثم باشر رحلته على طريق النهر إلى تكريت. تلك الليلة نزل ضيفاً على الأعراب. البدو الرحل قدموا قهوة خضراء للضيف الغريب. هو، في المقابل، اقترح أن يشاركوه ما يحمل من طعام قليل. بينما يسقي فرسه تلك الليلة من بئر الأعراب، رأى مُذنّباً يعبر السماء ويسقط وراء الأفق. بعد ليلتين، في خيمة شَعْر أخرى، تناول خروفاً مشوياً مع أعرابٍ يحتفلون بختان أحد الأولاد.

ذات عصر اشترى بطيخاً من إحدى المزارع. كان العطش ينهكه وقد ابتعدت به الدرب عن دجلة. ألقى القشور للفرس.

حين بان النهر أدرك أن عليه العبور إلى الجانب الآخر. ربت على عنق الفرس، كانت تلهث لهاثاً ساخناً في الجو الخريفي البارد. تركها وألقى نفسه في دجلة.

حين بلغ الجانب الآخر سمع أسنانه تصطك من شدة البرد. وسمع نباح كلاب، ثم رأى ناراً بعيدة في عتمة أول الليل. أنقذته النار، والرجل الذي أعطاه إناء من حليب الإبل. مرة أخرى انتابه ذلك الإحساس الغريب: إن الأقدار تتآمر معه.

في الأيام التالية عَبَر بلدة عوينات، ثم منطقة العوجة، ومن هناك حملته سيارة أقارب عمه حسن إبراهيم إلى الصحراء المفضية إلى الحدود السورية. أحد الأقارب أخبره أنه زار بيت أمه في شويش وأنه يعرف شقيقه سبعاوي وشقيقه برزان أيضاً. هزّ صدام رأسه ولم يقل شيئاً. حركة السيارة المضطربة على طرق الصحراء الوعرة كانت تؤلم جرحه. فكّر أنه نسي أمر أمه وعمه وأخوته. ثم فكّر أنهم ليسوا فعلاً إخوته.

حين انتهت الطريق ترجلوا من السيارة. امتدت الصحراء بلا نهاية. على حمارٍ تابع صدام حسين رحلته مع دليل لا يتوقف عن الحكي لحظة. كان الدليل يشير إلى قطعان ماعز على تلال صخرية بعيدة، إلى نباتات شوكية تنمو بين صخور البرية، إلى غيوم في الأفق، إلى آبار مهجورة، إلى سرابٍ، ويذكر أسماء، ويروي حكايات غير متصلة، بأسماء كثيرة يعرفها هو جيداً لكن السامع لا يعرف عنها شيئاً، ولا يعنيه أن يعرف عنها. حين نفدت مياه الجعب، شربوا مياه الأمطار المتجمعة في حفرٍ مؤطرة ببعر الأغنام. كانوا يسيرون ليلاً ويختفون نهاراً في الكهوف. طائرات سلاح الجو تهدر في السماء كل ظهيرة، صوتها في الصحراء نذير زلازل. حين رمق صدام حسين دليله بنظرة غضب، كفّ عن الكلام نهائياً. وهكذا وصل صدام حسين إلى سوريا.

### ـ انقلاب 8 شباط/فبراير 1963 واغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم:

تمر الذكرى المشؤومة لانقلاب 8 شباط/فبراير 1963 الذي تم فيه كسابقه في 14 تموز/يوليو 1958 استخدام الغدر والدبابة وقطع

الجيش المعنية بحماية البلاد من الأخطار الخارجية لإسقاط نظام الحكم وقتل رجالات النظام السابق بوحشية تنم وتكشف عن الطبيعة الدموية والعدوانية للقائمين بالانقلاب الجديد. . ففي هذا اليوم تم قتل الزعيم الوطني الراحل عبد الكريم قاسم الذي ومهما اختلفنا حول ما قام به فإننا لن نختلف حول كونه واحداً من أنظف وأنزه وأشرف السياسيين الذين حكموا العراق في عصره الحديث وأكثرهم وطنية وحباً للعراق رغم أن هذا الصفات الرائعة قد دفعته إلى السير في الطريق الخطأ لخدمة العراق وبالتالي أوصلته إلى النهاية المأساوية التي انتهى إليها.

من يعلم؟. . فربما لو اختار الزعيم الراحل الخيار السلمي لخدمة الوطن ولم يشارك في ذلك الانقلاب المشؤوم في 14 تموز/ يوليو 1958 وقُدّر للنظام الملكي أن يبقى ويستمر لقُدّر أيضاً للزعيم أن يصبح يوماً ما رئيساً لوزراء العراق بطريقة دستورية شرعية وليس بطريقة الانقلاب العسكري كما حدث للأسف ولأمكنه خدمة بلاده مع أخوته المخلصين من نخب النظام الملكي السياسية الذين اغتيل بعضهم في ذلك اليوم المشؤوم على يد رفاق الزعيم من العسكر فيما نَفِذ البعض الآخر بجلده ليخسر العراق نخباً سياسية وطنية لم يستطع تعويضها حتى هذه اللحظة. . لماذا لم يعِ الزعيم الراحل بأن ذلك الخيار كان وبكل المقاييس أفضل من خيار التعامل مع مجموعة من الأشخاص غير المؤهلين والطارئين على السياسة، الذي كان جُل هَمّهم تحقيق مصالح قومية تتقاطع مع مصلحة العراق التي كان يسعى إليها الزعيم الراحل والتي تسببت بنهايته المفجعة التي كانت مشابهة للنهاية المفجعة التي انتهت إليها العائلة

المالكة يوم اغتيلت على يد نفس الطغمة التي اغتالت الزعيم بعد 5 سنوات فقط.

إن غلطة الزعيم الراحل التي كانت قاتلة له وللعراق هي في وثوقه بهذه المجموعة المشبوهة وقيامه معها بذلك الانقلاب في 14 تموز/يوليو 1958 فهو بعمله هذا أشبه بمن يثق برجل دفعته نزوته إلى خيانة زوجته الأولى التي وقفت معه في الحلوة والمرّة وتطليقها والتضحية بها للزواج من امرأة أخرى أكثر منها جمالاً ودلالاً، أو كمن يثق بالرجل الذي يخون ولي نعمته ويضحي به من أجل حفنة من المال.. فمثل هذا الإنسان لن يتورع في المستقبل عن خيانة زوجته الثانية والتضحية بها من أجل امرأة ثالثة أكثر جمالاً ودلالاً من الثانية دفعته إليها نزوة جديدة، كما أن من خان ولي نعمته من أجل حفنة من المال لن يتورع عن خيانة ولي نعمته الجديد واستبداله بآخر من أجل حفنة من المال أكثر بقليل من الأولى، ورفاق الزعيم الراحل للأسف هم من هذه العينة من البشر.. فأغلب الضباط الكبار الذين اشتركوا مع الزعيم في تنفيذ انقلاب 14 تموز/يوليو 1958 بل وحتى الزعيم نفسه كانوا محسوبين على رجالات النظام الملكي الكبار، فعبد السلام عارف على سبيل المثال كان محسوباً على رئيس أركان الجيش رفيق عارف، أما ناجي طالب فقد كان مرافق الملك فيصل الثاني سابقاً ومن المقربين للقصر، في حين كان رفعت الحاج سري من المقربين للأمير عبد الإله إضافة إلى أن اثنين أو ثلاثة من الضباط الكبار الذين شاركوا في هذا الانقلاب الأسود ووقفوا ظهيرة 14 تموز/يوليو 1958 يتفرجون على جثة الأمير الشهيد عبد الإله وهي تسحل في

شوارع بغداد دون حراك ودون أن يرف لهم جفن، كانوا يعتبرون من الأصدقاء الخُلّص بالنسبة للأمير الراحل، بل إن أحدهم كان يقضي معه أمسيتين أو ثلاثة كل أسبوع. . لذا لم يكن غريباً ذلك العمل الوحشي الذي قامت به هذه المجموعة في 8 شباط/فبراير 1963 بحق الزعيم الراحل لأنها سبق وأن قامَت بعمل أشد منه فظاعة ودموية ووحشية صبيحة 14 تموز/يوليو 1958 بحق العائلة المالكة وهي قد استغلت طيبة الزعيم وحسّه الوطني الطاغي وتمكنت من استدراجه وأقنعته بالانضمام لحركتها المسماة «حركة الضباط الأحرار» التي تشير كل المعطيات التاريخية على أن الزعيم الراحل لم يكن قيادياً ولا عضواً أساسياً فيها.

لقد روى الكثير من الناس الذين عاصروا الزعيم الراحل عن قصص النزاهة والوطنية التي كان يتمتع بهما شخصه. . فمن منّا لم يسمع عن قصة صاحب المخبز الذي زاره الزعيم في فجر أحد الأيام، وبعد سؤاله عن أحواله انتبه الزعيم إلى أن شنكة الخبز صغيرة في حين أن صورته هو نفسه ـ أي الزعيم ـ المعلقة على الحائط كانت كبيرة بعض الشيء فقال لصاحب المخبز مقولته الشهيرة: «الصورة صغِّرها وشنكة الخبز كبِّرها». . ومن منّا لم ير على شاشات التلفزيون تلك الغرفة الفقيرة المتواضعة الأثاث في وزارة الدفاع التي كان الزعيم الراحل ينام فيها حتى يوم استشهاده لكونه وببساطة لم يكن يملك داراً. . ومن منا لا يعلم بأن الكثير من مناطق بغداد وبعض المحافظات قد تم توزيع أراضيها السكنية على المواطنين من قبل الزعيم سواء كانوا من شريحة الفقراء أو من شريحة موظفي دوائر الدولة المختلفة. . هذه الأمور وغيرها كثير

من صفات الزعيم الحميدة لا مجال لإنكارها مهما طال الزمن وتغيّر، لكن وفي نفس الوقت يجب أن لا ننسَ بأن النزاهة والطيبة ليستا كافيتان لصنع رجل دولة، فالراحل كان عسكرياً لا يَفقه من السياسة سوى ما يمليه عليه حسه الوطني من أفكار وهي بالتأكيد وكما قلنا غير كافية لإدارة دولة كالعراق. أما ماعدا ذلك فهو رجل حَرب درس العسكرية ومارسها في جبهات القتال في حرب فلسطين وغيرها. لذا فإن الإصرار من قبل البعض على إبراز الزعيم الراحل على أنه رجل سياسي محنك من الدرجة الأولى هو مبالغة في غير محلها من قِبل من لم تفارقهم بعد عقلية عبادة الفرد وإيصاله إلى مصاف الآلهة، وهم في الغالب ممن عاصروا الزعيم وكانوا من أتباع الأحزاب الشمولية التي شاركت في صنع مأساة الشعب العراقي قبل نصف قرن من الزمان.

كما أن قيام البعض في هذه الأيام وفي غمرة الانفتاح السياسي الذي عم العراق بعد سقوط النظام السابق بتشكيل حزب أو حركة تحمل اسم الزعيم الراحل فيه إساءة لذكراه كرمز وطني كان ورغم تدخله في السياسة غير مؤدلج سياسياً سوى بحب العراق وبعيداً عن الأحزاب السياسية العقائدية التي سيطرت على الشارع العراقي في أيامه.. لذا فمن الأفضل أن تبقى هذه الذكرى طيبة وجميلة وبعيدة عن الصراعات السياسية كصاحبها الذي بقي له وحتى هذه اللحظة مكان في قلب كل عراقي.

خلاصة القول وبعيداً عن بعض الكتّاب المؤدلجين الذين يريدون فصل الأحداث عن سياقها التاريخي فإن جريمة 8 شباط/

فبراير 1963 هي تحصيل حاصل ونتيجة طبيعية وسياق تأريخي للجريمة الشنيعة والبشعة التي حدثت في 14 تموز/يوليو 1958. فمشكلة المجرم هي في كيفية تنفيذه لجريمته الأولى بسبب وجود حاجز نفسي فطري يمنع الإنسان عن ارتكاب أي عمل سيء لأول مرة، ولكن ما أن يقوم بتنفيذها ويسقط الحاجز النفسي الذي كان يقف أمامه حتى تصبح مسألة تنفيذ جريمة أخرى وأخرى بالنسبة له كمسألة شرب الماء وتناول الطعام إن لم تكن أسهل، وهذا ما حصل بالضبط مع رفاق الزعيم. فمن يقوم بقتل عائلة بريئة بأكملها كالعائلة المالكة جُلّها من الأطفال والنساء بالطريقة الوحشية التي حصلت في 14 تموز/يوليو 1958 لن يتوانى عن قتل شخص واحد بالطريقة الوحشية التي حصلت للزعيم عصر 8 شباط/فبراير 1963 فالمجرمون هم نفس المجرمون والدوافع هي نفسها فلما الغرابة في ذلك!!

ولكن مهما يكن وبعيداً عن اختلافنا مع الزعيم الراحل فقد سقط وبشجاعة شهيداً عصر الثامن من شباط/فبراير عام 1963 بعد أن قاوم الانقلابيين الذين كان هدفهم الوصول إلى السلطة بأي شكل من الأشكال حتى ولو كان ذلك على حساب مئات الأرواح العراقية التي سقطت في ذلك اليوم وما تلاه من الأيام في معارك دموية قُتِل فيها الرجل جارَه وأخاه وابن عمه لخلاف بينهم في الأفكار بدلاً من الجلوس إلى طاولة الحوار والاحتكام إلى لغة العقل والمنطق التي تَمَيَّزَ بها الإنسان عن غيره من الكائنات الحية.

**ـ مميزات عبد الكريم قاسم:**

أجد غبطة عارمة حين أُعرّف بشخصية كتب عنها العدو قبل

الصديق. شخصية تكلمت عن نفسها من خلال العمل، لا الدعايات الحزبية أو المهاترات التنظيمية الضيقة أو الأهواء الشكلية. فشخصية الزعيم عبد الكريم قاسم أثبتت أنه كان على درجة من علو الهمة والشأن بحيث أصبح العراقيون يقارنون كل رئيس يأتي بعبد الكريم قاسم. وبذلك أصبح الزعيم المغدور مقياساً للوطنية والنزاهة والعفة والضمير الحي النابض بالوطنية والإحساس بالمسؤولية.

محور التعريف بأي شخصية مهما كانت هو المناقب والأعمال الإنسانية التي تركتها قبل ولوج روحها إلى بارئها. ولن يكون الزعيم قاسم شاذاً عن تلك القاعدة. به نبدأ مقالنا وبه نختمه.

كان زاهداً في ملبسه، لم يكن مدخناً ولا محباً للمظاهر والحفلات الماجنة. بدا في أغلب الأحايين رسمياً وجاداً حتى في علائقه الإجتماعية. لم يتورع عن النصح والإرشاد للمحتاج. أغاث الملهوف ونصح المعتدي. أسقط حقه حينما اعتدى عليه القتلة وطالب بإطلاق سراحهم وكافؤوه بتكرار الجريمة فقتلوه ظلماً وعدواناً.

تزوج عبد الكريم قاسم كل العراق ومن قبله قضية فلسطين، فلم يجد متسعاً من الوقت لحياته الخاصة. جاء إلى الدنيا وحيداً ورحل كما جاء. فرح بمجيئه الأهل والأحبة، وخلّف رحيله حسرة وحرقة في قلوب محبيه وكل الشرفاء. شخصية عصامية لم تتجاوز على الآخرين ولا تميل إلى التصنع. لا تستهويه المظاهر الخدّاعة ولا الشعارات الكذّابة والبهرجات الإعلامية. عامله الناس بلطف وقلب رحيم فلم يشأ أن يكسر خاطرهم ولو بكلمة. لم يستغل

منصباً ولا جاهاً، فالمناصب الحكومية في عهده موزعة بطريقة عادلة على الجميع وكل حسب كفاءته. لم يخضع للابتزاز والمحسوبيات ولا الهرطقات والتهديدات.

التسامح صفته والعفو من خلقه فكان يردد دوماً «عفا الله عما سلف» حتى التصقت به تلك المقولة لدرجة أن ما من أحد يقولها حتى يفهم المقابل أن المعني بها هو الزعيم عبد الكريم قاسم. نالته نقمة؟ نعم، من أولئك الذين لم يكن لهم نصيب من النفط العراقي! نقموا عليه لأنه كان عادلاً، ولأنه لم تستهويه الدعايات الصحفية والأقلام الرخيصة أسوة برؤوساء الدول العربية لذلك جاء سقوطه سريعاً. وفي الوقت الذي كان ينفق الزعيم المصري الراحل جمال عبد الناصر جزءاً من قوت الشعب المصري على الإطاحة بحكم الزعيم عبد الكريم قاسم، كان الأخير يبني المساكن للفقراء ويشيد المصانع لشعبه. أحبه الفقراء والمعدمين والبائسين بعد أن أعاد لهم البسمة والكرامة، ونقم عليه أصحاب المنافع الفئوية الشرسة وأتباع الأجنبي المغرض والعربي الجبان.

لم يتاجر بالشعارات كغيره ويتخذها طريقاً للشهرة والخلود، ولم يأتِ على ظهر دبابة أميركية أو بريطانية، ولم يرفع علم الدعارة أو المتاجرة بالدين، بل اتخذ من سنبلة القمح شعاراً له وللعراق. وهو بذلك يعكس مدى حبه للخير وتفانيه من أجل أرض العراق.

حرر العراقيين والأرض من سلطة الإقطاع والنهب وسدل ستار النسيان على إمتيازات شركات النفط الامبريالية. أثبت من خلال ذلك مدى تعلقه بتلك الأرض الطيبة ومدى حبه لإنسانها.

خرج قاسم بالعراق بعيداً عن الأحلاف المشبوهة مزهواً بعراق قوي وعُملة دولية ناصعة تاركاً بذلك الإسترليني يتخبط مع شركات النفط العالمية باحثين عن طريق لإزاحة الرجل وبأي ثمن. استثمر قاسم الأموال والعائدات العراقية في تحديث البنى التحتية فربط شمال الوطن بجنوبه عن طريق شبكة طرق عملاقة. شيّد مدينة الطب، وبنى الثورة والزعفرانية وغيرهما. ولا زالت مناقب الرجل وأعماله الوطنية شاهدة إلى يومنا هذا، شاهقة إلى السماء تردد أنشودة العرفان. فهو بذلك ليس بحاجة إلى مجد آخر نختلقه له، لكننا بحاجة إلى الإنصاف وتحكيم الضمير ما أسعفنا الوقت.

ساهم الزعيم عبد الكريم قاسم مساهمة فعالة في تأسيس منظمة أوبك، وقيل أنه مؤسسها. وهذا ليس بغريب عن وطنية الرجل واندفاعه نحو التحرر والانعتاق من التبعية والعبودية للأجنبي المحتل، فقد أسس حركة الضباط حينما كان يدافع عن جزء من الأرض العربية المحتلة في فلسطين عام 1948. وعاد من مقارعة الإحتلال إلى العراق ليعلن ولادة جمهورية وطنية في أرض الرافدين من رحم الاستبداد والظلم، مكرساً كل حياته لضمان سلامتها وقوتها. لم يشيد قاسم القصور له أو لذويه، بل بقي كما كان قبل تسلمه رئاسة الجمهورية، مستأجراً. لم يقف ببابه شرطي لحراسته، ولم تطرأ أية تعديلات على محلته ومرتع صباه حتى لا يُتهم بالمناطقية أو الانحياز فضلاً عن أنها طريقته وعدله.

تميز القضاء بالنزاهة في عهد قاسم، فالمحاكمات السياسية مثلاً كانت تُبث علناً على الملأ وعبر التلفزيون العراقي. وبذلك لم يدع

للقاضي أو الشهود أي مجال للتلاعب أو العمل خلف الكواليس أو أي مجال للظلم والتنكيل.

المبكي حقاً أن أعداء الزعيم عبد الكريم قاسم كتبوا عنه بعد موته أكثر مما تعرضوا له في حياته، بل وأصبحوا من أشد المدافعين عنه. وإن رحل قاسم مخلفاً جرحاً لن يندمل في قلوب العراقيين فإنه لم ينسهم حتى آخر لحظات في حياته، فكانت آخر كلمة ينطق بها قبل أن ينهال على جسده وابل الرصاص، كانت كلمات ستبقى مدوية في سماء العراق. وعدم إكماله للكلمة دليل حبه وعشقه للعراقيين وأرض العراق، وليعطي الراية من بعده لمن يكمل الشعار، ويثبت في الوقت ذاته مدى حقد وخوف القتلة من إكمالها. رددت حنجرة قاسم «عاش الشعـ...»، وردد القتلة لا رحمة بعد اليوم ولتذهب مقولة قاسم «الرحمة فوق القانون» معه ولترتفع كلمة «أنت بعثي وإن لم تنتمِ». وليتهم توقفوا عند هذا الحد، بل طمسوا كل أثر يفضي إلى قبر المظلوم المغدور ظناً منهم أنه مات وأنهم قتلوه!

**ـ نص البرقية التي أرسلها عبد الكريم قاسم إلى شيخ الكويت في العشرين من حزيران/يونيو عام 1961.**

سيادة الأخ الجليل عبد الله السالم الصباح،

علمت بسرور بأن الإنكليز اعترفوا في يوم 19 ـ 6 ـ 1961 بإلغاء الإتفاقية المزورة غير الشرعية وغير المعترف بها دولياً والتي سموها إتفاقية 1899 بعد أن عقدوها بالباطل مع الشيخ مبارك الصباح قائمقام الكويت التابع لولاية البصرة دون علم إخوته في

الكويت ودون علم السلطات الشرعية في العراق آنذاك، وقد سبق للشيخ محمود أن رفض التوقيع عليها أو تنفيذها الأمر الذي اضطر الإنكليز إلى تهيئة شهود الزور من عملائهم للتصديق على توقيعها. وفعلاً فقد وقع البريطاني ويكهام هور الرئيس في خدمة الطبابة الهندية مع العميل الممثل البريطاني في البحرين آغا رحيم بصفتهما شاهدين على صحة توقيع شيخ الكويت الجليل.

فالحمد لله الذي هو وحده ينقذ العالم من التبعية والاستعماريين ومن جريمة الكفر بحق العرب في كل مكان وحذار من دسائس الانكليز المستعمرين ومكائدهم لتفرقة الصفوف داخل الوطن وبين الأشقاء ليضمنوا بقاءهم من وراء الستار يتلاعبون بمصالح العرب والمسلمين وبقاء سيطرة الاستعمار، وأعوانه على أوطاننا.

ونؤكد لكم بأننا سنبقى، ونحن إخوانكم في الجمهورية العراقية الخالدة. لا تنطلي علينا خدعة الاستعمار، وسنظل نعمل بقوة وعزم لنصرة العرب والمسلمين والنصر من عند الله.

وختاماً، فإننا نرجو لشخصكم الكريم بالذات ولإخواننا أهل الكويت الشقيق كل خير وتقدم ورفاه.

**عبد الكريم قاسم**

**بغداد 20 حزيران سنة 1961**

# أديب الشيشكلي
# (1909 ـ 1963)

أديب بن حسن الشيشكلي، ولد عام 1909 في مدينة حماه في سورية، من عائلة كبيرة ومعروفة، نشأ فيها وتخرج بالمدرسة الزراعية في سلمية، ثم بالمدرسة الحربية في دمشق، تطوع في جيش الشرق الفرنسي، ثم انتقل مع غيره من الضباط إلى الجيش السوري. شارك في معركة تحرير سورية من الفرنسيين سنة 1945، ثم كان على رأس لواء اليرموك الثاني بجيش الإنقاذ في فلسطين سنة 1948، واشترك مع حسني الزعيم في الانقلاب الأول في 30 آذار/ مارس 1949، لكنهما اختلفا فصرفه الزعيم من الخدمة، كما اشترك مع الحناوي في الانقلاب الثاني في 14 آب/ أغسطس 1949 والذي عينه قائداً للواء الأول برتبة عقيد، لكن الشيشكلي لم يحقق في الانقلابين طموحه الشخصي، فهو مغامر يتطلع إلى السلطة ويبحث عن سلم يوصله إلى قمتها بأسلوب بارع ومقبول من الجماهير. له شقيق هو النقيب صلاح الشيشكلي، وكان عضواً في الحزب القومي السوري الإجتماعي، وبحكم هذا الواقع ارتبط الشيشكلي بصلات قريبة مع العقيد أمين أبي عساف والنقيب فضل الله أبي منصور اللذين ساهما في اعتقال سامي الحناوي،

ومهدا الطريق لأديب الشيشكلي المسيطر على مجلس العقداء، لمنازعة رئيس الدولة هاشم الأتاسي على السلطة، حيث أصدر الشيشكلي في صباح 19 كانون الأول/ ديسمبر 1949 بلاغاً بتوقيعه، أكد فيه إقصاء سامي الحناوي وأسعد طلس عن القيادة، لتآمرهما على سلامة الجيش وكيان البلاد ونظامها الجمهوري.

عُرف عهد الانقلاب الثالث بعهد الحكم المزدوج أديب الشيشكلي وهاشم الأتاسي، ولما كان الشيشكلي عضواً في مجلس العقداء ومسيطراً عليه فقد حل هذا المجلس وألّف بديلاً عنه مجلساً أسماه المجلس العسكري الأعلى.

وهكذا دخلت البلاد في عهد الانقلاب الرابع. ففي ليل 30 تشرين الثاني/ نوڤمبر 1951 تمت خطوة الشيشكلي الحاسمة في الطريق إلى الحكم إذ اعتقل رئيس الوزراء معروف الدواليبي وزج به وبمعظم أعضاء وزارته في السجن، واعتقل رئيس مجلس النواب وبعض النواب، فما كان من رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي إلا أن قدم استقالته. بعد ذلك أذيع البلاغ العسكري رقم 1 بتاريخ 2 كانون الأول/ ديسمبر 1951 جاء فيه «إن المجلس الأعلى بناء على استقالة رئيس الجمهورية وعدم وجود حكومة في البلاد يأمر بما يلي:

يتولى رئيس الأركان العامة ورئيس المجلس العسكري الأعلى مهام رئاسة الدولة، ويتولى كافة الصلاحيات الممنوحة للسلطات التنفيذية.

تصدر المراسيم إعتباراً من 2 كانون الأول/ ديسمبر1951 من رئيس الأركان رئيس المجلس العسكري الأعلى».

كتب مراسل مجلة «آخر ساعة» المصرية محمد البيلي بتاريخ 10شباط/ فبراير 1951 مقالاً جاء فيه: «... شيء واحد يجب أن لا يغيب عن البال: أن العقيد أديب الشيشكلي هو الرجل الحديدي في سورية، لقد استطاع أثناء هيمنته على المدنيين أن يتخلص من مناوئيه، فدبر اغتيال العقيد محمد ناصر قائد سلاح الطيران على يد العقيد إبراهيم الحسيني، ثم اغتيل سامي الحناوي في لبنان، وأخيراً نفي العقيد إبراهيم الحسيني رئيس المكتب الثاني إلى باريس. و. و...». وهكذا فرط الزعيم عقد مجلس العقداء، وبات يحكم البلاد عبر حفنة من الملازمين الأوائل، بينما فُرضت الرقابة العسكرية على جميع الضباط المناهضين للشيشكلي.

انصب اهتمام الشيشكلي نحو ترسيخ جذور الانقلاب الرابع في البلاد عبر حكم عسكري مباشر، حيث أصدر مرسوماً بحل البرلمان، وآخر بتولي الأمناء العامين في الوزارات صلاحية الوزراء، ريثما يتم تشكيل حكومة جديدة. كما أصدر مرسوماً آخر بإلغاء جميع الأحزاب السياسية، وآخر بتوحيد الصحف وجعلها أربعة صحف تصدر في دمشق وحمص وحلب والجزيرة.

استمر الحكم العسكري المباشر بقيادة العقيد أديب الشيشكلي مدة ستة أشهر، وخلال هذه المدة أراد الشيشكلي الرد على الحملات العربية، ومعارضة الأحزاب والسياسيين لانقلابه بتحقيق إصلاحات سياسية وإقتصادية وإجتماعية في البلاد، للبرهان على أن ما حققه العسكريون خلال ستة أشهر لم يحققه السياسيون خلال ست سنوات منذ الجلاء. فقد صدر عن رئيس الدولة 257 مرسوماً،

تناولت تنظيم الحياة الداخلية في البلاد، فبدأت هذه المراسيم بقانون إلغاء الأحزاب وقانون جمع الصحف، وقانون منع انتماء الطلاب والمعلمين والموظفين والعمال إلى الأحزاب السياسية أو الاشتغال بالسياسة، وصدر قانون لتنظيم الشؤون المالية اعتمد على مبدأ فرض الضرائب التصاعدية والتخفيف قدر الإمكان من الضرائب غير المباشرة التي تقع على كاهل ذوي الدخل المحدود، وأُلغيت الرقابة على النقد الأجنبي فسمح باستيراده بينما منع خروج النقد المحلي، وصدر قانون الإصلاح العقاري لتنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر، وآخر للإصلاح الزراعي يقضي بتوزيع أملاك الدولة على الفلاحين ممن لا أرض لهم، وباشرت الدولة بتوزيع 5 ملايين هكتار على 50 ألف أسرة فلاحية بهدف توطين ربع مليون نسمة.

وبدأت الدولة خططاً لتنفيذ مشاريع الري الكبيرة في البلاد، وأبرزها مشروع تجفيف الغاب، ومشروع اليرموك، وبدأت مفاوضات مع مصرف الإنشاء والتعمير الدولي الذي تسيطر عليه الولايات المتحدة لتمويل خطة الدولة لري 120 ألف دونم، وتوطين 25 ألف أسرة، وقطعت الدولة شوطاً في تنفيذ مشروع مرفأ اللاذقية لتفريغ 800 ألف طن من البضائع سنوياً، ووضعت خطة خمسية لإنجازه، بالإضافة إلى مشاريع الكهرباء وإنارة الريف.

كما أولت الدولة اهتماماً خاصاً بالجيش لزيادة قدراته وتزويده بالأسلحة الحديثة. فاشترت ثلاث سفن حربية فرنسية، وعقدت صفقة لشراء طائرات نفاثة مقاتلة بريطانية، وأجرت اتصالات مع

الولايات المتحدة للحصول على الدبابات والمدفعية، وشجعت أجهزة الإعلام التي تنادي بتجنيد النساء في صفوف القوات المسلحة.

وعلى الصعيد الأمني، شهدت البلاد حالة من الهدوء والطمأنينة، انخفضت معها نسبة الجرائم وحوادث السرقة والسطو، بينما سارت أمور وزارات الدولة بإشراف الأمناء العامين سيراً حسناً، وأعلم الشيشكلي مندوبي الدول العربية والأجنبية أن لا حاجة لحصول انقلابه على اعتراف جديد وأنه يكتفي بالاعتراف القائم.

حقق الشيشكلي استقراراً داخلياً لم تشهده البلاد من قبل، ولإزالة طوق العزلة العربي الذي فُرض على نظامه، شن سلسلة من التصريحات ضد إسرائيل، وصلت حد التهديد بشن حرب ضدها، وقال في أحد تصريحاته: «إن الطريق من دمشق إلى الخليل سيكون سالكاً أمام الجيش السوري».

عندما شعر الشيشكلي بتعاظم المعارضة الداخلية لنظامه العسكري، أصدر مرسوماً بتشكيل وزارة في 6 حزيران/يونيو 1952، أعلن بعدها بأن الجيش سيدعم مشاريع الحكومة دون التدخل بشؤونها، وأكد بأن هذه الحكومة مؤقتة، مهمتها إيصال البلاد إلى الانتخابات النيابية في إطار قانون جديد للانتخابات يفتح السبيل أمام تمثيل حقيقي للشعب.

اعتمد الشيشكلي على أنصاره من الحزب القومي السوري، ودعا إلى تأسيس حزب جديد باسم «حركة التحرير العربي» حتى يكون الحزب الوحيد في البلاد استعداداً لخوض الانتخابات، وبعد

الإعلان عن تأسيسه، بدأ الشيشكلي عقد إجتماعات جماهيرية لإلقاء الخطب الطنانة التي تلهب حماس الجماهير وتجعل تحرير فلسطين في متناول اليد. ولما اطمأن إلى قاعدته الجماهيرية وجهازه الإعلامي، التفت إلى تنظيم جهاز القمع، وبدأت حملة الاعتقالات والتعذيب ضد كل من يعارض العقيد، شملت الطلاب والمدرسين ورجال السياسة وقادة الأحزاب والأقلام الحرة، وعندما شعر الشيشكلي بأن الساحة خلت له ولحزبه دعا إلى إجراء الانتخابات النيابية في 10 تموز/يوليو 1953، وفاز «حزب التحرير العربي» بـ 83 مقعداً. وبعد أن وضع دستوراً جديداً للبلاد، انتخب رئيساً للجمهورية طبقاً لأحكام هذا الدستور، وهكذا مهد لمرحلة فرض الديمقراطية من خلال الديكتاتورية العسكرية. أما قيادة الأحزاب السياسية المعارضة فقد ألّفت جبهة شعبية معارضة تصدت لسياسة الشيشكلي عبر المظاهرات الطلابية والعمالية والفلاحية، وبدأت معركة المعارضة في دمشق بإلقاء المتفجرات، وأعلن العصيان في جبل الدروز، فقاومه الشيشكلي بالدبابات والطائرات، فزاد من النقمة على النظام، ثم تنادى السياسيون من الأحزاب والهيئات إلى عقد إجتماع في حمص لعقد ميثاق وطني فيما بينهم، ووجهوا إنذاراً إلى الشيشكلي لإعادة الأوضاع الدستورية والإفراج عن المعتقلين السياسيين ووقف الحرب الأهلية في جبل العرب. وكان رد العقيد على الإنذار باعتقال كل من وقّع عليه، وشهدت البلاد حالة من الاضطراب والمظاهرات الطلابية، قاومها رجال الأمن بالعنف والقنابل المسيلة للدموع، وعطلت الدراسة في المدارس، وعمت المظاهرات المدن السورية وهي تنادي بسقوط الديكتاتورية

وإلغاء البرلمان، وعودة الحياة الدستورية إلى البلاد، فكانت التمهيد الشعبي المناسب لإسقاط الشيشكلي وبدء الانقلاب الخامس.

ولما شعر الشيشكلي بأن زمام الأمور أفلت من يده، كلف أحد أعوانه بالاتصال مع الحكومة اللبنانية لقبوله كلاجئ سياسي، ثم اتخذ ترتيبات مغادرته لسورية وسطر كتاب استقالته وسلمه للزعيم شوكت شقير، وتوجه إلى بيروت في 25 شباط/فبراير 1954 ناجياً بنفسه إلى المملكة العربية السعودية حيث ظل لاجئاً إلى أن توجه سنة 1957 إلى فرنسا، وحُكم عليه غيابياً بتهمة الخيانة فغادر باريس سنة 1960 إلى البرازيل حيث أنشأ مزرعة وانقطع عن كل اتصال سياسي، إلا أن شخصاً من رجال الدروز فاجأه في أحد شوارع بلدة سيريس في البرازيل وأطلق عليه النار فقتله.

**ـ قصة اغتيال أديب الشيشكلي كما رواها منفذها:**

هذه القصة تتناول عملية اغتيال أديب الشيشكلي على يد الرجل الشجاع نواف غزالة، الذي حمل على عاتقه عملية الثأر للدماء العربية السورية التي هُدرت على يد أديب الشيشكلي العقيد في الجيش السوري والذي قام بحركته الانقلابية عام 1949، وقد حكم دمشق أربع سنوات كانت حافلة بالأحداث الدموية.

وعن الشعب السوري كان الشيشكلي يقول: «إن هذا الشعب لا يستحق الاهتمام، فهو يحب الكلام، أما الأفعال فلا يفكّر بها».

«لذلك تخلى عنه الناس والجيش والأصدقاء في السنة الأخيرة من حكمه، ولم يبق معه أحد». ومن هذا المنطلق أراد إذلال

الشعب في جبل العرب وإبادته، ولا فرق عنده بين طفل وامرأة وشيخ. وعندما رفض «أب الثوار» في جبل العرب سلطان، أن يذل لطاغية كالشيشكلي، التجأ إلى منطقة الأزرق والجزيرة العربية ليعاني الجوع وشظف العيش مفضّلاً الموت على الذل والإذلال. وفي عهد الشيشكلي أيضاً أغلقت الحدود مع لبنان والأردن والعراق أكثر من مرة.

وفوق ذلك كله، أعطى أوامره بتدمير جبل العرب وعاصمته السويداء، وإزالتها من الوجود لكي يعمر مكانها كما قال ـ جامعاً يمارس فيه الصلاة ـ وكأن كل جوامع دمشق وحماه وحمص وحلب لم تكفه لممارسته صلواته... وعندما يدرك الجميع بأن أديب الشيشكلي خطف خطيبة ابنه من فرنسا وتزوجها في البرازيل، يؤكدون أنه لن يتورع عن القيام بكل الرذائل والمساوئ بحق الآخرين، وخصوصاً نساء جبل العرب.

وفي الوقت الذي صمّم فيه على تنفيذ قراره القاضي بتدمير الجبل وإزالة السويداء، أرسل دباباته لتحقيق ذلك. وما إن وصلت إلى مدينة شهبا حتى سقط الثلج الذي وصل ارتفاعه للمرة الأولى في تاريخها حتى المتر ونصف المتر، وأقفلت الطرق.

ويعتبر سكان الجبل أن سقوط الثلج وقطع الطريق على الدبابات والحملة الشيشكلية، هو عمل رباني، لأن الله حق، ولن يتخلى عن المظلومين مطلقاً، ولا يريد الذل والإذلال لأبناء الجبل العربي على يد سفاح ومجرم وفاسد كالشيشكلي.

أما لماذا اغتال نواف غزالة أديب الشيشكلي، فإنه يقول: «إنني

ابن الشعب، وقد أصدر هذا الشعب قراره بإعدام السفاح الشيشكلي، وكان لي شرف تنفيذ هذا الحكم لإنقاذ البشرية أينما كان. ورغم أن الكثيرين من جبل العرب حاولوا اغتياله ولحقوا به إلى دول عديدة، وكان من بين هؤلاء زيد الأطرش المشهور برمي المسدس، ولقد التقى به مرات عديدة، إلا أن المجال لم يسمح له بتحقيق هدفه. فقد كان حظي أوفر من حظ هؤلاء جميعاً، وكان الله إلى جانبي، فنجحت.

ولكن لا بد من الإشارة إلى نقطة جوهرية، وهي أنني لم أثأر لكرامة شخصية، ولا لكرامة طائفية فقط. بل كان عملي يتمحور حول الكرامة العربية والإنسانية بأجمعها، باعتبار أن الشيشكلي أساء إلى الإنسان العربي في جبل العرب، وإلى كل إنسان أينما كان، وبعد أن مثل أداة في يد الاستعمار والرجعية، معادياً لكل ما هو تقدمي ووطني وعروبي وإنساني...

عندما كنت في البرازيل، كنت أتابع الأحداث المتعلقة برجالات سوريا المكرّمين، وبالشعب السوري المحترم. كنت أستقي هذه الأخبار بدقّة. وكنت من الجماعات التي تطّلع على كل ما يجري وتراقبه عن كثب، باعتبار أن دمنا العربي لم يتغيّر ولن يتغيّر بين ليلة وضحاها، ولو كانت المسافة بعيدة جداً بين الوطن العربي والبرازيل.

ولما هرب الشيشكلي من سوريا، التجأ إلى المملكة العربية السعودية، التي لم تقبل به ولم تستقبله على أراضيها، فذهب إلى فرنسا حيث كانت خطيبة ولده «موّفق» تتلقى علومها هناك، أخبرها

أن خطيبها في البرازيل ويريد اصطحابها إليه، إلا أن خطيبها لم يكن هناك وإنما كان في سوريا.

صدّقت خطيبة ابنه قوله وذهبت معه، فتزوجها بعد وصوله، وهذا دليل ساطع على استمراريته في الرذائل والمساوئ، والبعيدة كل البعد عن العادات والتقاليد العربية النبيلة والشريفة. وعندما علِم ولده «موفق» بالأمر، ترك سوريا إلى البرازيل وحصل خلاف كبير بين الاثنين بسبب المرأة، بعد أن رأى موفّق خطيبته قد أنجبت من والده ولداً. وقد تمكّن الوالد من طرد ولده إلى خارج الولاية.

كان الشيشكلي عند وصوله إلى البرازيل، قد سكن في منطقة تدعى «سيرس». وبقي ما لا يقل عن سبع سنوات يتردّد إلى برازيليا التي تبعد حوالي ألف كلم، أي ما يعادل عشر ساعات في الباص. كان يتردد إلى منزل أحد أخواننا المسيحيين الذي يتمتع باحترام وتقدير الجميع نظراً لمكانته وسلوكه ومعاملته اللائقة. وكان صاحب هذا المنزل قد دخل إلى برازيليا بعد وصولي إليها بفترة قصيرة، ومن بعدنا بدأ رجال العرب بالدخول إليها.

وفي هذا البيت كان الشيشكلي يلتقي بكثير من أبناء الجالية السورية واللبنانية، حتى أنه يلعب الورق معهم وكثيراً ما كنت ألتقي به هناك، إلا أنني لم أكلمه مرة ولم أرضَ مجالسته مطلقاً، مما دفعه أن يسأل صاحب البيت بهذا الصدد قائلاً: غريب أمر هذا الرجل، فإنه لم يكلمني مرة ولم يرض بالجلوس معنا، مع أننا من بلد عربي واحد، والكثير من جماعته الذين نلتقي بهم يختلفون عنه كثيراً. فهم يتحدثون ويلعبون ويسهرون معي بكل سرور فأجابه صاحب

البيت: إن نواف هو رجل أعمال ولا يفكّر إلا بعمله ويضيف نواف قائلاً: لقد مضى ست أو سبع سنوات ولم يكترث أحد لأمر الشيشكلي، ولم يتعرّض خلالها لأي سوء. بعد ذلك، صدر عفو من قبل السلطات السورية عن كل السياسيين السوريين المنفيين في الخارج، وكان من بينهم بالطبع أديب الشيشكلي. ونقلت صحافة العالم بأجمعها هذا النبأ. وقد قرأته شخصياً في بعض الصحف.

كنت منزعجاً إزاء ذلك، ولم ترتسم في مخيلتي ساعتذاك إلاّ الإضطهادات والتنكيل الذي تعرض له الشعب السوري عامة وأبناء جبل العرب خاصة على يد هذا المجرم السفاح الذي خرَّب بيوت الناس وقتل الأبرياء وأذل الشعب السوري، ولطخ يديه بدم الشرفاء، وأساء مع عملائه إلى نساء جبل العرب وأطفاله. لقد تأثرت جداً لذلك، إلاّ أن شغلي وعملي كان يأخذ مني كل الوقت والجهد.

وعندما مررت بعد مدة إلى منزل صاحبنا في برازيليا فاجأني أثناء الحديث بقوله: «هل علمت أن أديب الشيشكلي جهَّز أمتعته وعزم على ترك البرازيل والسفر إلى سوريا بين يوم وآخر؟ عندها شعرت بأن دواراً أصابني، ولم تعد الأرض تسعني، إلا أنني تماسكت نفسي دون أن أشعره بقلقي واضطرابي وأجبته بقولي: «إذا عاد إلى سوريا فإنه يعود إلى بلده».

وأول ما خطر في بالي تلك اللحظة هو أن سوريا وجبل العرب قادمة على أخطر مرحلة في تاريخها، لم تشهدها حتى في ظل الأتراك والفرنسيين، وليست أقل سوءاً من تلك التي عرفتها أثناء

حكم الشيشكلي. إذ أن الحكومة السورية لم تصدر قرار العفو هذا لو لم تكن راضية عنه وبالتالي عن ممارساته السابقة. وماذا سيكون مصير الأطفال والنساء إذا وصل الشيشكلي إلى سوريا؟ وهل سيبقى أطفال ونساء في جبل العرب بعدئذ؟ إزاء ذلك صممّت على قتله مهما كان الثمن، ولم أتأسف على شيء. وعزمت على أن أقصده مهما بلغت المسافة، والاقتصاص منه، دون أن أعلم أحداً بالموضوع حتى أقرب المقربين، ولو كان أخي (الذي هو من أمي وأبي) هناك، فقررت أن لا أخبره حتى لا يخفف من عزيمتي ويثنيني عما أنا عازم على القيام به. ولكي يكون لي بالتالي شرف اغتياله...

في صباح يوم السبت الموافق في السادس والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1963. تركت العاصمة برازيليا إلى سيرس لتنفيذ الحكم القاضي بإعدام السفاح الشيشكلي، إلا أن الحظ لم يحالفني في ذلك اليوم ولم ألتق به، حتى كان مساء اليوم التالي، الأحد في 27 أيلول/ سبتمبر، في الساعة الخامسة والنصف من بعد الظهر، وعندما التقيته ناديته عن بعد عشرين متراً تقريباً وقلت له: «يا أديب... مجهز شنتاتك وبدّك ترحل على سوريا. أنا من رأيي إنو تضل في ها البلاد. أما إذا ما ردت إنو تسمع هذا الحديث، فهذي الساعة يا إلنا يا إلك. وانقدّر الله ما بترجع على سوريا وأنا طيب.

كان أديب الشيشكلي يحمل على وسطه مسدسين. فشهر مسدس الجانب الأيمن وهمّ بإطلاق النار عليّ إلا أنني كنت أسرع منه، ورميته طلقة أولى من مسدسي في كتفه، فوقع مسدسه من

يده، ثم رميته بطلقتين أخريين في صدره فسقط أرضاً. عندها تقدمت نحوه وقلت له: «خذ هذه بعد هدية من أبو طلال سلطان باشا الأطرش» وأفرغت في صدره الطلقتين الباقيتين. مع أن المسدس يتسع لأكثر من طلقات خمس، إلا أن حشوه بخمس رصاصات كان سراً هاماً يرتكز على إيمان عميق وعقيدة راسخة. كما كنت مصمماً إن كان لا يحمل سلاحاً، سأرمي مسدسي وأقتله عراكاً.

ويتابع نواف غزالة كلامه قائلاً: «يا سيدي، إن الذي يخاف لا يخرج من بيته، لقد شعرت في تلك اللحظة بأنني أسعد إنسان في الدنيا، والأرض بمساحتها الواسعة ليست أكبر مني، ويكفي أنني شعرت براحة ضمير لم أشعر بها مرة في حياتي».

لقد تجمع حولي ما لا يقل عن ألف شخص يريدون تطويقي ريثما يصل البوليس، ورغم أنه لم يعد هناك أية طلقة في المسدس، فإني شهرته عليهم صارخاً ومهدداً حيث تمكنت بعدها من الفرار إلى أحد الأحراج القريبة، حتى هبط الليل وخف التجول. وقبل وصولي إلى الفندق مررت إلى دكان صغير وحيد في البلد وسلمت المسدس إلى صاحب هذا الدكان الذي هو صديقي - لبناني من بلدة عين عطا - بعد أن أخبرته بالحادث، وضرورة إخبار البوليس عن إسمي وبأنني أنا القاتل إذا حاول ضربك أو إهانتك. وعندما استقليت الباص في اليوم الثاني إلى برازيليا بعد أن أمضيت تلك الليلة في أحد الفنادق، حضر البوليس والمباحث البرازيلية إلى صديقي اللبناني صاحب الدكان الذي أودعت عنده مسدسي باعتبار

أن السلطات البرازيلية كانت تظن بأن الدروز هم وحدهم وراء عملية اغتيال الشيشكلي. وعندما أنكر أمر الاغتيال عمدوا إلى ضربه وإهانته، حيث لم يبقَ أمامه إلا تنفيذ ما اتفقنا عليه، وبالتالي إبلاغ البوليس بأن القاتل هو نواف غزالة وليس أي شخص آخر. وكان مصرع الشيشكلي في الشارع العمومي في مدينة سيرس بالقرب من نهر داس الماس الذي يربط مدينة سيرس ببلدة ريالما. وقد نُقلت جثته فيما بعد إلى دمشق.

وقبل أن أصل إلى برازيليا كانت الأخبار قد انتشرت في طول البلاد وعرضها، كذلك في جميع أنحاء العالم. بالإضافة إلى أن الإذاعة البرازيلية كانت قد ذكرت في نشراتها الإخبارية اسم القاتل بالذات. كما أنها حدّدت مسكنه في العاصمة برازيليا.

وفي الوقت الذي وصلت فيه إلى منزل أحد أقاربي في برازيليا وهو معروف غزالة وجدت عنده عدداً من الشباب المجتمعين، وقد أنكرت في البداية حقيقة الأمر ثم اعترفت لهم بعدئذ أثناء انتقالنا في السيارة إلى ولاية أخرى بقصد تهريبي، بعد أن شهروا علي السلاح. إلا إنني ادعيت في المحكمة بأنني أنا الذي شهرت عليهم مسدسي حتى لا يصيبهم أي مكروه من قبل السلطات أو تحميلهم أية مسؤولية. والتجأت في الولاية الأخرى إلى مزرعة تخص أحد أقاربي ريثما أقضي فيها عدة أيام بعيداً عن تحريات البوليس ومضايقاته.

في هذه الأثناء كان البوليس البرازيلي قد حضر إلى منزل معروف غزالة حيث وجد أولاده الصغار يلعبون، فسألهم عن

والدهم، أجاب كبيرهم بأن أبي أخذ عمي نواف إلى بيلوروزنتي في ولاية ميناس-وذهب معه عمي نواف الشريطي ومرهج هلال.

وفور عودة الشباب في اليوم التالي كانت المباحث البرازيلية بانتظارهم واعتقلتهم على الفور، ونقلتهم إلى ولاية أخرى تدعى غوايانا حيث سجنوا هناك. وبعد خمسة أيام، عندما فتحت جهاز الراديو، ذكرت نشرة الأخبار بأن قاتل الشيشكلي ما زال فاراً، إلا أن الذين قاموا بعملية تهريبه ألقي القبض عليهم ويقبعون الآن في أحد سجون ولاية غوايانا ريثما يلقى القبض على القاتل. وبعدما سمعت بهذا الأمر كان من الطبيعي أن أسلم نفسي للعدالة، رغم معارضة بعض الشباب والأقارب، ولكن قمت بتوكيل محام قدير للدفاع عن قضيتي حتى لا يبقى الآخرون في السجن ولا علاقة لهم مطلقاً بالحادث.

وعندما سلمت نفسي للعدالة جئت إلى بيلوروزنتي في ولاية ميناس، حيث كان الشباب قلقين جداً والأخبار تلاحق بعضها البعض، أثناء ذلك كان الصحفيون يتواجدون كالهواء في كل مكان حتى أن القاضي سألني أثناء المحاكمة: هل أنت نادم على ما فعلت؟ فكان جوابي له بالطبع لا يا سيدي فإن مثل هذا المجرم لا يستحق الحياة، ووجوده عبء ثقيل على كامل البشرية والإنسانية بأجمعها، ولا يجب إعتباره إنساناً مطلقاً لأنه لا ينتمي إلى طبيعة البشر، وهو خارج عن كل ما يمت إلى الإنسان والإنسانية بصلة. وتأكد يا حضرة القاضي أنه لو قام عشرين مرة من الموت سأقتله، ولن أكتفي بذلك بل سأشرب دماءه أيضاً حتى لو كانت دماؤه فاسدة، لأنه يستمد

وجوده وحياته من فسادها. فهو مجرم وسفاح وعميل، اغتصب النساء وسفك دم الأطفال وحلّل إبادتهم. كما ذلّ الشعب السوري وشوّه صورة العرب أمام العالم وفي قلب الوطن العربي. لقد طعن العروبة في قلبها وهو يدّعي حمايتها والتكلم باسمها.

بعد ذلك نقلني البوليس إلى السجن في ولاية غوايانا حيث يتواجد فيه المعتقلون من أقاربي الذين تولوا تهريبي من برازيليا. وكم كانت دهشتي كبيرة عندما وجدت الفرق واسعاً وكبيراً جداً بين غرفتي النظيفة المرتبة في ذلك السجن، وبين غرف رفاقي الآخرين الذين وضع البوليس كل واحد منهم في غرفة منفردة لكي ينعدم أي اتصال بينهم. وهذا ما دفعني إلى السؤال قائلاً: لماذا تضعوني في هذه الغرفة النظيفة بينما تضعُون أقاربي الآخرين في غرفة مختلفة وتفتقر كثيراً إلى ما هو متوفر في غرفتي؟ أجابني مسؤول البوليس قائلاً: «لأنك سياسي عالمي» أجبته بقولي: «أنا سياسي عالمي»؟ والله كتر خيركم يا عمي وضعتمونا في هذه الغرفة على ما يبدو لأن ثيابنا نظيفة.

في نفس اليوم، أطلق سراح أقاربي الذين برئت ساحتهم، وأخلي سبيلهم بعد أن رأى البوليس صدق الإفادة التي جاءت مطابقة مع إفادتي بناء على إتفاق مسبق بيننا.

بقيت في السجن مدة أربع سنوات أفرج عني بعدها عن طريق أحد المحامين البرازيليين الكبار الذي أوكلته للدفاع عن قضيتي وإسمه باولو باشيكو.

خلال هذه الفترة كان الأقارب والأصدقاء يقومون بزيارتي

بشكل دائم ومستمر في السجن، وكانوا يكتبون إلى الأخوة الآخرين في فنزويلا وفي جميع الدول الأخرى من أميركا اللاتينية، يعلمونهم بوجودي في السجن، ويجب أن يكونوا على إطلاع كامل على كل الأمور والأخبار، والعمل بكل الوسائل لمساعدتي وإطلاق سراحي. وقد تجاوب الجميع، إلا أن شباب فنزويلا كان لهم اليد الطولى في هذا المجال بينما استغل البعض الآخر قضيتي، وفقدت كل شيء كنت أملكه هناك، حيث أن المحلات كانت من خشب، وهي بحاجة إلى أن يبقى صاحبها دوماً فيها للاعتناء بها والمحافظة عليها.

يضاف إلى ذلك أن العمال أصبحوا يتصرّفون دون حسيب أو رقيب بعد أن علموا بوجودي في السجن، ومِن الصعب أن أخرج منه في وقت قريب.

إلا أن معاملتي في السجن كانت ممتازة جداً حيث سلمتني إدارة السجن الصيدلية الخاصة به. بمعنى أنني كنت ممرّضاً ومشرفاً من الناحية الصحية على المساجين وحراس السجن.

وقد لعب الصحفيون دوراً هاماً فيما بعد، عبر الكتابة المتواصلة عن قضيتي وبشكل إيجابي. حتى أن حاكم الولاية زارني عدة مرات في السجن، وكذلك بعض كبار الشخصيات.

إلا أن نقطة جوهرية شغلت تفكيري فترة من الزمن، تلك التي كانت تتمثل بالمحامي المدافع عن قضيتي. فقبل المحاكمة بوقت قصير، كنت أفكر بما سيقوله المحامي في مرافعته، خاصة عن الشيشكلي. وهل سيركز على خطفه لخطيبة إبنه موفّق ثم زواج إبنه

منها. مع أن الاثنين لهما منها أطفال أم لا؟ لم يكن أمامي إلا أن استدعيت المحامي إلى السجن وسألته عن النقاط التي سيدرجها في المرافعة، فأجابني بأنه حصل على الإضبارة (السجل الشخصي) الخاصة بالشيشكلي من سوريا، وكذلك من منطقة سكنه في سيرس وسيركّز على قضية خطف خطيبة ابنه بشكل أساسي باعتباره رئيس سوريا الأسبق.

عندها جاوبته بغضب وانفعال، إذا أردت التركيز على هذه النقطة، فلن أعتبرك من الآن وصاعداً محامي الدفاع عني. فأول ما سيتبادر إلى أذهان الرأي العام العالمي بهذا الصدد، التفكير بأنه إذا كان رئيس سوريا يتصرف بهذا الشكل ويقوم بهكذا أعمال، فلن يُلام الشعب إذا قام بأعمال مشينة ومنافية للآداب والسلوك العامة. فلذلك يجب أن تسلخه عن أصله العربي لأن ما قام به مناف تماماً للعادات والتقاليد العربية الأصيلة، ولم يخدم القضية العربية بأي عمل قام به، بل كانت أعماله كلها معادية للعرب والعروبة وتخدم بشكل رئيسي مصلحة الإمبريالية والاستعمار. عندها فهم المحامي هذه الحقيقة، واعترف بنوع من التقدير والاحترام قائلاً: «في الواقع يا نواف، بعد تعب عشرين سنة في ممارسة المحاماة تفوّقت علي بعد عامين من وجودك في السجن. إنك أقدر مني فعلاً في هذه المهنة، ولقد غلبتني في تقديرك هذا».

وأثناء المحاكمة، وكان ابن الشيشكلي موجوداً في قاعة المحكمة، برهن المحامي باولو باتشيكو للشعب أن والد هذا الإنسان قام بأعمال لا تمت إلى الإنسانية بصلة، ثم أشار إلى موفق

ابن أديب الشيشكلي قائلاً: إن هذا الملعون أيضاً تزوج امرأة أبيه والتي كانت خطيبته في السابق. وأصبح لهما منها أطفال، ويجب أن يطرد من قاعة المحكمة لأن العرب أشراف، وصفاتهم نبيلة وعاداتهم شريفة، بينما هؤلاء يمتون إلى الأتراك والبرابرة ومعادون لكل ما هو عربي، ولن أرضى ببقائه في قاعة المحكمة بين البشر لأنه غير بشري. وشهر عليه مسدسه، فما كان من العسكر إلا أن اقتاده إلى خارج القاعة بعد عملية التصويت التي انتهت بست أصوات لصالحنا من قبل المحلفين مقابل صوت واحد ضدنا، باعتبار أن لجنة الحكم كانت تضم قضاة سبعة، كان ذلك في الجلسة الأولى. أما في الجلسة الثانية فقد استأنف محامي الشيشكلي، سابا، الحكم... حيث حكم علي ست سنوات، أخلي سبيلي على أثرها قبل انقضاء المدة المحدّدة نظراً لسلوكي ومعاملتي الحسنة وأعمالي البيضاء التي ساهمت في تخفيف مدة الحكم.

يضاف إلى ذلك أن الجنرال ديغول، رئيس فرنسا، كان قد أعطى شهادته بالعشيرة المعروفية أثناء زيارته للبرازيل خلال فترة المحاكمة رداً على سؤال طرح عليه. وكانت في الواقع شهادة حق لها تأثيرها وفعاليتها، حيث قال بالحرف الواحد: «إن هذه العشيرة من أشرف العرب وأكرمهم، بيوتها ومضافاتها فنادق مجّانية ومقاهي مجّانية. إنها تحب الحق وتموت في سبيله. لا تعتدي على أحد، ولا تنام على ضيم. تحمي الضيف والدخيل بالدم وتبذل الغالي والرخيص فداء كرامته، وحمايته واجب مقدّس عندها، عاداتها وتقاليدها من أشرف العادات... حاربناها ولكنها هزمتنا، ولم يذلّ

الجيش الفرنسي إلا أمام العشيرة المعروفية فقط، ورغم كل الإنتصارات التي حققها في أكبر المعارك المصيرية» هذه هي شهادة الرئيس ديغول، رحمه الله، فقد كان رجلاً صادقاً في شهادته أمام نفسه وأمام العالم (وتحشرجت الغصّة في حنجرة نواف غزالة قبل أن يتابع كلامه قائلاً): إلا أن الدور الكبير والمهم هو ذلك الذي لعبه الرجل العظيم جمال عبد الناصر. هذا الرجل العظيم هو الوحيد في العالم كله. هو الذي أعطى صورة واضحة وتفصيلية عن أعمال السفّاح أديب الشيشكلي. وكيف أذل شعبه وارتكب المظالم وانتهك الحرمات... لقد حطّمه في جميع اللغات هذه هي الفائدة الكبرى والهامّة التي عرّفت العالم على تاريخ هذا السفاح. كما أعطى صورة واضحة بالمقابل عن جبل العرب وأبنائه. لقد كان واضحاً في شهادته وضوح الشمس.

لقد تأثرت كثيراً بالرئيس عبد الناصر حتى منذ صغري منذ الطفولة. وصمّمت أنه إذا جاءني ولد ذكر سأسميه خالد نسبة إلى ابن عبد الناصر. فهو أول رجل نزيه منذ أن خرج إلى العالم وقاد ثورته الكبرى في مصر ضد الظلم والطغيان والملكية، واستمر بنزاهته حتى ما بعد وفاته، وكنت أنوي زيارته في مصر، وأشكره إلا أن الظروف وخاصة الظروف المادية حالت دون تحقيق أمنيتي.

وهنا لا بد من الإشارة إلى حدث هام له دلالته الكبيرة ويستحق التسجيل فعندما كانت كل سفارات العالم تتواجد في برازيليا ومن ضمنها بالطبع السفارات العربية. ولأننا مواطنون من الجالية السورية التي هي مع الجالية اللبنانية من أكبر الجاليات العربية... فقد كنا

من المدعوين دوماً إلى كل الاحتفالات والمناسبات التي تحييها هذه السفارات.

وأخيراً رجعت إلى أرض الوطن بعد أن مزّق الحنين إليه شراييني. وزحف الجبل كله لتهنئتي بسلامة العودة... إلا أن الغصّة التي تشارك فرح نواف غزالة، هي عدم لقائه بالباشا سلطان الذي سُئل مرة عن رأيه بنواف غزالة فقال: «ولدنا نواف وفّقه الله. صحيح أننا نحن قمنا بثورة كبيرة وحاربنا وقاتلنا وتشرّدنا وجعنا وكسبنا شرفاً كبيراً. إلا أن نواف حصل على كل هذا في لحظة واحدة، هي لحظة قتل (الشيشكلي)»...[1].

هذا هو مفهوم الثأر الحقيقي. حيث تنتفي الأنا الفردية، والمصالح الشخصية الضيقة، وحيث يصبح معها الثأر رسالة مقدّسة.

---

(1) «أسرار من التاريخ» د. صالح زهر الدين. المجلد الثاني صفحة 525.

# جون كينيدي
# (1917 ـ 1963)

## ـ نشأة وتاريخ الولايات المتحدة الأميركية:

في العام 1722 نُشرت رواية «مول فلاندرز» للكاتب الإنكليزي دانييل ديفو. تجري حكاية الرواية على لسان بطلتها «مول»، التي تذكر أن أمها ولدتها في سجن نيوغيت بلندن، حيث كانت تنتظر تنفيذ حكم الإعدام بها إثر إدانتها بجريمة سرقة. لكنها تنجو من الشنق لأنها حامل، ويُستبدل بحكم الإعدام حُكم بالنفي إلى مستعمرة بريطانية في العالم الجديد، أصبح اسمها اليوم الولايات المتحدة الأميركية. بعد ولادة مول تم تنفيذ حكم النفي بأمها، فتتبنى الطفلة قبيلة من الغجر، ومع بداية مراهقتها تخوض سلسلة من المغامرات العاطفية والزيجات، وأخيراً تتزوج مزارعاً وتذهب معه إلى حيث يقيم في مستعمرة فرجينيا الأميركية، لكنها تكتشف أن أم زوجها هي أمها المنفية.

خلال إقامة «مول» في فرجينيا، تخبرها أم زوجها أو أمها بأن غالبية سكان المستعمرة أتوا إليها من إنكلترا في ظروف مشابهة لظروفها، وأنهم على نوعين:

**الأول**: الذين أحضرهم ربابنة السفن ليُباعوا خدماً.

**الثاني**: الذين نُقلوا نفياً من السجون بعد إدانتهم بجنايات وجرائم عقوبتها الإعدام. وتتابع الحماة أو الأم قائلة: «ولهذا يا طفلتي، فإن العديد من طيور نيوغيت أصبحوا رجالاً عظاماً، ولدينا العديد من قضاة الصلح، والضباط، وحكام المدن الذين وُسمت أيديهم».

ثم تتابع قولها: «إن بعض أفضل رجال هذه البلاد موسومون في أيديهم وليسوا خجلين من ذلك. فهناك الميجور... الذي كان نشالاً بارزاً، وهناك القاضي... الذي كان لصاً للسلع المعروضة في المتاجر، وكلاهما موسوم في يده، ويمكنني أن أسمّي لك العديد ممن هم على هذا الشكل».

وأخيراً تقول لها: «إن ذلك المكان اللعين، سجن نيوغيت، هو الذي جعل نصف هذه المستعمرة آهلة بالسكان».

صدرت هذه الرواية، كما ذكرت، عام 1722، أي قبل 54 عاماً من إستقلال تلك المستعمرات، التي أصبح اسمها «الولايات المتحدة الأميركية». ففي 4 تموز عام 1776 أصدر «طيور نيوغيت»، كما دعتهم والدة مول فلاندرز، وأبناؤهم وأحفادهم إعلان إستقلال ثلاث عشرة مستعمرة، خاضوا معها حرباً ضد البريطانيين عام 1783 انتهت بإنتصارهم، وعقد معاهدة رسخت حدود الدولة الناشئة، أعقبها إحداث دستور جديد عام 1787، ووضعه قيد التنفيذ عام 1789، ثم استلام قائد قوات حرب الإستقلال، جورج واشنطن، منصب أول رئيس للولايات المتحدة.

تبلغ مساحة الولايات المتحدة حالياً تسعة ملايين وستمئة وثلاثين ألف كيلو متر مربع، وعدد سكانها مئتان وسبعون مليوناً. وتتميز بين دول العالم كلها، بأنها مزيج غريب من الأعراق والقوميات والأديان. ويتألف ثلاثة أرباع سكانها من خليط أوروبي غالبيته من إنكلترا وأيرلنده وألمانيا وإيطاليا واسكندنافيا وبولونيا، ويرجع 8٪ من سكانها إلى أصل أميركي لاتيني، و3٪ إلى أصل آسيوي، و13٪ إلى أصل أفريقي، كما يشكل السود 30٪ من سكان خمس ولايات جنوبية اليوم.

تميزت الولايات المتحدة، سواء في الفترة التي سبقت نشوءها، أو التي عاصرته، أو التي تلته، بمعالم أساسية، لا يزال معظمها يسيطر حتى الآن على أدق تفاصيل حياتها الإجتماعية العامة، وتركيبتها الداخلية، وسياستها الخارجية. ومن أبرز هذه المعالم:

**1 ـ حملات إبادة سكان أميركا الأصليين:**

كان ما يُعرف الآن باسم الولايات المتحدة موطن شعوب جاءت من آسيا قبل نحو عشرين أو خمسة وثلاثين ألف سنة. ويُقدر عددهم في القارة الأميركية عند بداية الاستيطان الأوروبي بما يزيد على 90 مليون نسمة. وقد أطلق المستعمرون الأوروبيون على هذه الشعوب اسم الهنود الحمر. كان الإسبان أول من أسس المستوطنات الأوروبية في أميركا الشمالية خلال القرن السادس عشر، ثم بدأ الإنكليز يستوطنون الساحل الشرقي على نطاق واسع، بعد إبادة سكانه الأصليين أو طردهم. ومع بداية القرن السابع عشر أصبحت المستوطنات الإنكليزية تشكل الأكثرية السكانية. وقرب نهاية القرن

الثامن عشر انطلق المستوطنون الأوروبيون نحو المناطق الوسطى. وبعد سلسلة من المعارك أُجبر السكان الأصليون في هذه المناطق على توقيع معاهدة غرينفيل «Greenville» عام 1795، التي ثبتت الحدود بين ما دُعي باسم الأقاليم الهندية وبين المستوطنات الأوروبية. وبقوة قانون الترحيل الهندي الصادر عام 1830، تم اقتلاع قبائل بأكملها من السكان الأصليين خارج موطنها وإجبارها على الاستيطان غرب نهر الميسيسيبي. وقد نشأت عدة حروب بسبب هذا الترحيل، ونتيجة رفض بعض السكان الأصليين إعادة التوطين هذه. ومع انتهاء هذه المرحلة في خمسينات القرن التاسع عشر لم يبق منهم سوى بضع مجموعات متناثرة في المناطق الشرقية للولايات المتحدة.

عند إستقلال المستعمرات الثلاث عشرة لم تكن مساحة الدولة الجديدة تتعدى شريطاً ضيقاً جداً على الساحل الشرقي. ومنذ إعلان تلك الدولة انطلقت سياسة التوسع المبرمج المتواصل نحو الغرب، باستخدام الأسلحة الأوروبية المتطورة، وعلى شكل حملات إبادة شاملة منظمة ضد سكان الأرض الأصليين المسلحين بأسلحة بدائية جداً، أو بحصارهم والاستيلاء على أراضيهم بالقوة، وتحجيم أماكن إقامتهم. وقد صورت مئات من أفلام الغرب الأميركي هذه البطولات، التي تظهر «الأبطال الأميركيين المتحضرين» وهم يقضون على الهنود الحمر «الوحوش الأشرار» الذين يعرقلون انتشار الحضارة في العالم الجديد.

وبالإضافة إلى حملات إبادة السكان الأصليين المنظمة تلك شهدت القارة الأميركية انخفاضاً مريعاً في عددهم وصل إلى حد

الكارثة بسبب الأمراض السارية التي جلبها المستوطنون الأوروبيون معهم ونقلوها إليهم، مما قلص عدد السكان الأصليين بصورة متسارعة جداً، حتى بلغت نسبتهم حالياً نحو 1٪ من التعداد العام للسكان.

مع بداية نشوء الولايات المتحدة جرى تحديد مناطق منعزلة متباعدة من الأرض لإقامة السكان الأصليين. وحاولت الحكومة تجنب وقوع اصطدام بينهم وبين المستوطنين الأوروبيين، وذلك بحصرهم في مناطق يمكن ضبطها والسيطرة عليها. ومع التوسع المتواصل للسكان الأصليين مركز جذب متزايد للمستوطنين الأوروبيين، مما دفعهم إلى تقليص المناطق المنعزلة للسكان الأصليين أو نقلها إلى مناطق أبعد. وبحلول ثمانينات القرن التاسع عشر تناقصت تلك المناطق المنعزلة إلى حد كبير، وأصبح سكانها يلاقون صعوبة في كسب معيشتهم من الأرض.

وحاولت الحكومة إجبارهم على الانصهار داخل المجتمع الأميركي، بتقسيم مناطقهم المنعزلة إلى حصص، وتوزيع هذه الحصص على الأفراد للزراعة، لكن العديد من السكان الأصليين باعوا حصصهم أو قاموا بتأجيرها إلى البيض. ومع تضخم تدفق الأوروبيين باتجاه الغرب قررت الحكومة إقامة حصار عسكري على السكان الأصليين، وتحديد إقامتهم في مناطق أكثر عزلة بالقوة. وكان ذلك الحصار العسكري سبباً مباشراً في نشوب حروب السهول الهندية، التي بدأت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وانتهت عام 1890.

في عام 1871 قرر الكونغرس الأميركي إلغاء معاهدة غرينفيل «Greenville» التي جرى توقيعها عام 1795 وإصدار تشريع يفرض توزيع أراضي الملكية العامة على أساس فردي. وترك هذا التقسيم كثيراً من السكان الأصليين بدون أرض، وبلغ عددهم أدنى حدوده مع بداية القرن العشرين.

في العام 1924 حصل السكان الأصليون بصورة شكلية على حقوق المواطنين في الولايات المتحدة، وتزايد عددهم حتى بلغوا عام 1990 ما يزيد قليلاً عن المليونين، أو نحو 1٪ من التعداد الكلي للسكان. ويقيم أكثر من ثلثهم بقليل في مناطق منعزلة، وحوالي النصف في المدن.

تُظهر إحصاءات الصحة والتعليم ونسبة البطالة ومستويات الدخل في الولايات المتحدة أن السكان الأصليين يعيشون في أوضاع بائسة بالمقارنة مع السكان البيض بشكل عام. وأدت سياسة الحكومة الأميركية في ثمانينات القرن العشرين إلى تخفيض الميزانية المتعلقة بالخدمات الإجتماعية وخدمات الرفاهية في مناطق السكان الأصليين. وقد تزايد عددهم في الولايات المتحدة، وفقاً لمكتب الإحصاء السكاني الأميركي، أكثر من 20٪ بين عامي 1980 و1990. ويعاني أغلبيتهم الآن من أقصى درجات الفاقة في المناطق الريفية البعيدة حيث يحصلون على أدنى مورد للمعيشة من الأرض.

**2 ـ الرقيق الأسود:**

انتشرت تجارة الرقيق الأسود، في المستعمرات البريطانية التي

أُطلق عليها فيما بعد اسم الولايات المتحدة، والتي كانت أول من استخدم الأفارقة المخطوفين، على نطاق واسع، للعمل في حقول القطن الممتدة عبر الولايات المتحدة الأميركية الجنوبية.

بدأت تجارة الرقيق الأسود هذه في القرن السابع عشر، ولعبت دوراً أساسياً في تاريخ الولايات المتحدة بشكل خاص. فقد اختطف تجار الرقيق الأوروبيون ملايين السود من أفريقيا، وشحنوهم في سفن عبرت بهم المحيط الأطلسي في أكبر هجرة قسرية حدثت عبر التاريخ. وكانت السفن تنقلهم في ظروف مناخية قاسية، تختلف كثيراً عن التي اعتادوا عليها في بلادهم، وبأساليب أسوأ من المتبعة في شحن البضائع، ولم يكن يُقدم لهم من الطعام والماء سوى مقادير قليلة جداً غير كافية، مما أدى إلى وفاة 13٪ منهم وفق التقديرات. وقد بلغت حصة الولايات المتحدة من هؤلاء السود الأرقاء المختطفين ما للحدود الأميركية نحو الغرب، أصبحت أراضي السكان يزيد على 650 ألفاً، استقر نحو 90٪ منهم في الولايات الجنوبية.

سيطرت تجارة الرقيق وتفاعلاتها ونتائجها بصورة متزايدة على السياسة الأميركية، وأثارت العديد من النزاعات بين الولايات الجنوبية ذات الإقتصاد الزراعي الذي اعتمد على جهود السود، وبين الولايات الشمالية التي حاولت تقليص انتشار العبودية، حتى استلم أبراهام لنكولن منصب الرئاسة عام 1860 وأعلن بتأييد من حزبه منع الرق، مما دفع ببعض الولايات الجنوبية إلى إعلان انفصالها عن الإتحاد، وأدى إلى بدء حرب أهلية امتدت من عام

1861 إلى العام 1865 كانت حصيلتها أكثر من ستمئة ألف قتيل، وتدمير ممتلكات تصل قيمتها إلى خمسة مليارات دولار، وانتهت بإنتصار الشماليين، والمحافظة على الإتحاد، وإصدار قانون يمنع الرق حرر نحو أربعة ملايين رقيق أسود. لكن خطط لنكولن توقفت مع اغتياله في 14 نيسان/أبريل عام 1865، خلال حضوره إحدى المسرحيات في مدينة واشنطن، حيث اندفع ممثل متعاطف مع الجنوبيين إلى مقصورته وأطلق رصاصة على رأسه. واستمر السود حتى اليوم في معاناة فعلية تُعتبر من أضخم المشاكل الإجتماعية والإقتصادية التي عرفها التاريخ الأميركي. ويشكل السود حالياً نحو 13٪ من التعداد العام للسكان في الولايات المتحدة الأميركية، وتعيش غالبيتهم في حالة بائسة مذلة مستمرة من الفقر والتخلف والفصل العنصري.

أفرزت مشكلة السود في الولايات المتحدة العديد من الأفعال وردود الأفعال، كانت لها آثار إجتماعية لا تزال مستمرة حتى اليوم. فقد تأسست في الولايات المتحدة منظمتان إرهابيتان سريتان باسم «كو كلاكس كلان» «Ku Klux Klan» الذي انطلقت الأولى بعد انتهاء الحرب الأهلية، واستمرت حتى سبعينات القرن التاسع عشر، وبدأت ظاهرياً على شكل نادٍ للمحاربين القدماء، لكنها تحولت إلى أداة بيد المقاومة السرية العنيفة التي يشنها البيض الجنوبيون ضد السود، مستخدمين القتل وإحراق المنازل المأهولة بسكانها دون تمييز للجنس أو العمر. وبدأت المنظمة الثانية نشاطها عام 1915 ولا تزال مستمرة حتى اليوم. وقد بلغت ذروة نشاطها في عشرينات القرن العشرين، ووصل عدد أعضائها إلى أكثر من أربعة ملايين،

وتميزت بعنفها في جَلْد السود وإطلاق النار عليهم وإلقاء القنابل على منازلهم وإحراقها.

أدى هذا الوضع الشاذ إلى عدة مصادمات بين السود والبيض. ومن أشهرها أن امرأة سوداء رفضت في نهاية عام 1955 التنازل عن مقعدها في الحافلة لامرأة بيضاء، ونتيجة ذلك تم اعتقالها بتهمة انتهاك قانون الفصل العنصري، مما أدى إلى قيام الناشطين السود بتشكيل جمعية لمقاطعة نظام النقل الأميركي وانتخبوا مارتن لوثر كنغ (Martin Luther King) رئيساً لها.

أدت أعمال العنف إلى ظهور قائد أميركي أسود آخر عام 1934، وهو إليجا محمد «Elijah Muhammad» الذي قاد جماعة «المسلمين السود»، من أجل نيل حريات سياسية وإقتصادية للسود الأميركيين. ازدهرت هذه الجماعة في أواخر الستينات، واستمر إليجا محمد في قيادتها حتى وفاته عام 1975. وكان من أشهر تلاميذه مالكولم إكس «Malcolm X» الذي برز مع بداية الستينات، وهو ابن كاهن أسود قتله أفراد منظمة كوكلاكس كلان الإرهابية. اهتم مالكولم إكس بتعاليم إليجا محمد، وأصبح متحدثاً بارزاً باسم جماعة «المسلمين السود». وفي عام 1964 انفصل عن تلك الجماعة، وشكل مجموعة علمانية، باسم منظمة الوحدة الأفريقية ـ الأميركية. لكنه تعرض للاغتيال بعد سنة، عام 1965، خلال تجمع سياسي في حي هارلم بمدينة نيويورك، حيث أطلق الرصاص عليه شخص زعم أنه من جماعة «المسلمين السود»، وكان في الأربعين من عمره.

وفي عام 1966 تأسس حزب «الفهد الأسود» في مدينة أوكلاند

بولاية كاليفورنيا، بهدف حثّ السود الأميركيين على الدفاع عن أنفسهم. وألح الحزب على موضوع تسليح السود لحمايتهم من وحشية رجال الشرطة البيض والقيام بعصيان مسلح إذا اقتضى الأمر، لتحقيق طموحات السود. بلغ الحزب ذروة نشاطاته في عامي 1967 و1968، ومع نهاية الستينات بدأ الصراع بين أعضاء الحزب ورجال الشرطة، وشنت سلطات الولايات المتحدة حملة ضد الحزب، وقامت بإثارة صراعات بينه وبين مجموعات سوداء أخرى، انتهت بانشقاق الحزب عام 1972، واعتقال العديد من السود، وتعرضهم للضرب العنيف والتعذيب، ثم توقف الحزب عن ممارسة نشاطه عملياً في آخر الثمانينات، وتحول بعد ذلك إلى تقديم الخدمات الإجتماعية للمناطق الآهلة بالسكان السود.

**3 ـ اليهود الأميركيون:**

بدأت نواة المجتمع اليهودي في شمال قارة أميركا عام 1654 بوصول مركب إلى مرفأ مدينة نيو أمستردام، التي تُعرف اليوم باسم مدينة نيويورك، يضم حمولة من اليهود الذين هربوا في نهاية القرن السادس عشر من إسبانيا إلى البرتغال ومنها إلى البرازيل الهولندية، ثم فروا إلى أميركا الشمالية أمام جيوش البرتغال التي غزت البرازيل. وتلت هؤلاء مجموعات أخرى جرى إبعادها من لندن وغيرها من المدن الأوروبية. وفي عام 1820 كان عدد اليهود في الولايات المتحدة لا يتجاوز أربعة آلاف شخص أخذوا يتزايدون بسرعة حتى وصلوا عام 1840 إلى خمسة عشر ألفاً، وعام 1850 إلى خمسين ألفاً، وعام 1860 إلى مئة وخمسين ألفاً.

جرى أول اعتراف رسمي من الحكومة الأميركية بالمجتمع اليهودي الأميركي في صيف عام 1790، بعد سنة من تولي جورج واشنطن منصب رئيس الجمهورية الجديدة. فقد قرر قادة المعابد اليهودية الصغيرة الخمسة في أميركا أن يبعثوا إلى الرئيس الجديد برسالة تهنئة. لكنهم أمضوا مدة سنة ونصف وهم يتنازعون حول من سيوقع الرسالة. وفي النهاية بعثوا بثلاث رسائل منفصلة، وكان على الرئيس أن يرد على الرسائل الثلاث كلها. وقد أرسل الرسالة الأولى إلى أعضاء المعبد اليهودي المحلي في إحدى المدن خلال زيارته لها، ذكر فيها: «إن حكومة الولايات المتحدة الأميركية، التي لا تجيز أي تعصب، ولا تساعد أي اضطهاد، تفرض فقط على الذين يعيشون تحت حمايتها تصرف المواطنين الصالحين في منحها دعمهم الفعال دائماً». ولا تزال هذه الرسالة تدرّس حتى اليوم في المدارس الدينية اليهودية. وقد تزايد عدد المعابد اليهودية منذ ذلك الوقت بمعدل كبير جداً، إذ ارتفع عددها من خمسة في عهد الرئيس جورج واشنطن إلى أكثر من ثلاثة آلاف معبد الآن.

ويشكل اليهود في الولايات المتحدة اليوم نحو 3٪ من تعداد السكان، إلا أن دورهم الإجتماعي والسياسي والإقتصادي يتجاوز عددهم بكثير. وفي مسح أجرته عصبة مقاومة الافتراء اليهودية «ADL» عام 1990 تم سؤال عيّنة من الأميركيين لتخمين نسبة اليهود بين مواطني الولايات المتحدة الأميركية، وذكر خمساهم أن النسبة هي 20٪ أو أكثر، أي أنهم اعتقدوا أن أميركياً واحداً على الأقل من كل خمسة هو يهودي. كما ذكر خمسان آخران أن النسبة تتراوح بين 5٪ و20٪ من التعداد العام. وسبب هذا التقدير المبالغ فيه أن

اليهود تمكنوا خلال وجودهم في الولايات المتحدة من السيطرة على قسم ضخم من الميادين السياسية والصناعية والإقتصادية والمصرفية والتجارية، والعقارات، وشؤون الهجرة والتعليم.

يشكل اليهود الآن نسبة عالية جداً من أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب، ويُعتبرون من أهم قواعد السياسة اليهودية المنظمة في الولايات المتحدة، والتي هي جوهر النشاط المؤيد للدولة العبرية في واشنطن. وقد أتاح هذا لهم المحافظة على المساعدات المالية والعسكرية للكيان الصهيوني في فلسطين وزيادتها، ومجابهة أي إدارة أميركية تحاول الضغط على الكيان الصهيوني، وأصبحوا هيئة تشريعية مستقلة داخل الهيئة التشريعية الأميركية. كما يشكل اليهود أكثر من ربع عدد الكتّاب والمحررين ومقدمي البرامج في النخبة الأوسع انتشاراً من وسائل الإعلام الأميركية المرئية والمسموعة والمقروءة، بما فيها أقسام شبكات الأخبار، وفي أهم المجلات الإخبارية الأسبوعية والصحف اليومية الرئيسية مثل «New York Times» و«Los Angeles Times» و«Washington Post» وصحيفة «Wall Street Journal»، ويشكلون أيضاً نحو نصف متعهدي وسائل الترفيه والاتصالات والكمبيوتر الحديثة. ويهيمن اليهود تماماً على صناعة السينما الأميركية في هوليوود، فجميع الموظفين الكبار في الاستوديوهات الرئيسية من اليهود، ويشكلون أكثرية كتّاب السيناريو والمنتجين، مما يمنح يهود هوليوود قوة سياسية كبيرة، بالإضافة إلى قوتهم الإعلامية، لأنهم مصدر رئيس لتمويل المرشحين اليهود أو المؤيدين لهم. ويمارس زعيم صناعة السينما الأميركية غير الرسمي «ليو واسرمان» «Lew Wasserman» نفوذاً

سياسياً شخصياً هائلاً على مستوى الولاية والدولة، وقد حصل عام 1995 على ميدالية الحرية التي يمنحها رئيس الولايات المتحدة شخصياً. كما قامت الولايات المتحدة بإنتاج العديد من الأفلام السينمائية المشتركة مع الكيان الصهيوني، من أبرزها فيلم ملف القدس «The Jerusalem File» عام 1972 ويحكي قصة تعرض طالب أميركي إلى «الإرهاب العربي في إسرائيل»، وفيلم وداعاً نيويورك «Goodbye, New York» عام 1985، الذي يعرض «الملامح المشرقة للحياة في إسرائيل»، وفيلم الحافة المزدوجة «Double Edge» عام 1992، الذي يتحدث عن الصراع العربي ـ الصهيوني، من وجهة نظر صهيونية طبعاً.

يضم المجتمع الأميركي اليوم أكثر من ثلاثمائة منظمة يهودية وعدداً ضخماً من منظمات محلية تمارس العديد من الخدمات للمجتمع اليهودي الأميركي، وتجمع التبرعات لصالح الكيان الصهيوني، وتضغط بجميع الوسائل على صانعي القرار في الولايات المتحدة. ومن أبرزها منظمة بناي بريث «Bnai Brith» أي أبناء الميثاق، وهي أكبر منظمة يهودية في العالم، وتشرف على برنامج واسع للخدمات التعليمية والإجتماعية ومراكز الشباب. وقد تأسست عام 1843 في مدينة نيويورك، وتتفرع عنها عصبة التحالف ضد الافتراء (Anti-Defamation League) التي تحارب التمييز الديني والعنصري ضد اليهود، وتسعى إلى زيادة حقوقهم المدنية. ومن المنظمات اليهودية البارزة الأخرى: لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية، آيباك «AIPAC»، التي تعتبر الذراع الضاغطة للمجتمع اليهودي الأميركي المنظم. وتتجلى فعاليتها بقدرتها على تعبئة

أعضائها بصورة جيش من الضاغطين في جميع أنحاء الولايات المتحدة، وتمارس نشاطها في معسكر كل مرشح أميركي يسعى للحصول على مقعد في الكونغرس، وتخرج فائزة في كل انتخاب تقريباً. وتعتبر هذه المنظمة أن هدفها الوحيد هو دعم الكيان الصهيوني، وأن كل من يعاديه هو عدو لها بدون نقاش.

ومن المنظمات البارزة الأخرى جمعية العمل على إعادة التأهيل (ORT) وهي شبكة مدرسية مهنية يهودية تأسست عام 1880 في روسيا، واتخذت اسم منظمة إعادة التأهيل عبر التدريب (Organization for Rehabilitation by Training) بعد انتقال مقرها الرئيسي عام 1924 إلى الولايات المتحدة، وتدير الآن مدارس مهنية على نطاق عالمي، وبخاصة في الكيان الصهيوني. ومن أشهر المنظمات الأخرى كذلك لجنة ضبط تقارير الشرق الأوسط في أميركا (CAMERA)، ومجلس الإتحادات اليهودية (CJF)، ولجنة العلاقات الإجتماعية (CRC)، وجمعية مساعدة المهاجر العبري (HIAS)، وإتحاد الطوائف اليهودية الأميركية (UAHC)، والنداء اليهودي المتحد للإعانة عبر البحار (UJA)، واللجنة اليهودية الأميركية أو المؤتمر اليهودي الأميركي (AJC)، وغيرها...

**4 ـ الجريمة المنظمة:**

تُعرّف الجريمة المنظمة بأنها مجموعة مشاريع ضخمة تأسست للقيام بنشاطات غير مشروعة على نطاق واسع، مثل القتل، والدعارة، وتجارة المخدرات، والسرقة والسطو، وألعاب القمار غير القانونية. ويميز الجريمة المنظمة أنها توجد ضمن تنظيم ذي

قيادة مركزية صارمة، تسيطر تماماً على نشاط المنظمة.

وقد ميزت ظاهرة الجريمة المنظمة الحياة العامة في الولايات المتحدة مع بداية القرن العشرين، وبلغت عملياتها درجة من الضخامة تفوق نشاطات أكبر الشركات التجارية المشروعة. وقد ذكرت دراسة جرت برعاية الحكومة الأميركية عام 1975 أن الحجم الكلي للنشاطات التي تسيطر عليها الجريمة المنظمة في الولايات المتحدة يزيد على خمسين مليار دولار سنوياً.

بلغت الجريمة المنظمة ذروة نشاطها في الولايات المتحدة مع بداية القرن العشرين. ففي عام 1919 أقر الكونغرس تعديلاً للدستور حظَّر بموجبه المشروبات الكحولية التي تزيد نسبة الكحول فيها عن نصف بالمئة، وبدأ تطبيقه عام 1920، مما أدى إلى إنطلاق موجة واسعة من النشاط السري المنظم، اعتمد على التصنيع والبيع غير المشروعين للمشروبات الكحولية، مما دفع الكونغرس عام 1933 إلى إصدار تعديل آخر يبطل بموجبه ذلك الحظر. وأدى هذا الإبطال بدوره إلى تزايد النشاط الإجرامي المنظم، وتحوله عن مجال المشروبات الكحولية إلى نشاطات غير مشروعة أخرى، وعلى مستويات أعلى من السابقة وأكثر تنظيماً. وقد اتبعت المنظمات الإجرامية تسلسلاً هرمياً دقيقاً ضمن عصابات مختلفة، أُطلق عليها اسم «العائلات»، تقوم بعملياتها في المدن الكبرى الرئيسية. وعلى رأس كل «عائلة» يوجد رئيس يملك سلطة التحكم المطلق بحياة جميع أعضاء هذه العائلة وموتهم.

تمكنت الجريمة المنظمة من الاستمرار والازدهار في الولايات

المتحدة نتيجة عدة عوامل، أهمها التهديد وممارسة العنف الجسدي والاغتيال، مما يضمن «للعائلة» منع الضحايا أو الشهود، بمن في ذلك أفرادها أنفسهم، من تقديم التقارير أو الشهادات ضد نشاطاتها. ويُعتبر تغيير قرار هيئة المحلفين ورشوة القضاة من الوسائل المألوفة التي تستخدم لمنع المحاكمات النظيفة، بالإضافة إلى استخدام الرشوة لضمان تساهل الشرطة مع نشاطات «العائلات». وبشكل عام، حيثما توجد الجريمة المنظمة في الولايات المتحدة فهي تسعى لنيل الحماية بطرق متنوعة من تدخل الشرطة والمحاكم. ولذلك ينفق رؤساء «العائلات» مبالغ مالية كبيرة لضمان الحصول على تأثير سياسي داخل الحكومة نفسها.

كذلك يعتمد دخل «العائلات» الأساسي، بالإضافة إلى الدعارة وتجارة المخدرات وألعاب القمار غير القانونية، اختطاف سيارات الشحن المحملة بالبضائع الثمينة التي يسهل تصريفها، وهو من النشاطات الهامة في مجال الجريمة المنظمة. كما تمارس «العائلات» العمل في مشاريع ذات طابع قانوني ظاهرياً، مثل شركات إقراض الأموال، لكنها تفرض أسعاراً كبيرة من الفائدة وتحصل أموال القروض من المدينين المقصرين باستخدام التهديد والعنف. ويجري استثمار أرباح العديد من هذه المشاريع غير القانونية في أعمال مشروعة أخرى بقصد التغطية. كما تمارس «العائلات» عمليات ابتزاز تمكنها من السيطرة على قيادة إتحاد نقابي، وبذلك تستطيع استخدام مستحقات هذا الإتحاد ومصادره المالية الأخرى في مشاريع غير قانونية.

وعندما تدير «العائلة» أعمالاً مشروعة ظاهرياً، وذات طابع قانوني، مثل الشركات العقارية، ومؤسسات تنظيف الملابس، وشركات تصريف القمامة، وآلات البيع، فإنها تتضمن بشكل تلقائي إلغاء منافسة الآخرين عن طريق الإكراه والتهديد والقتل. ويعتبر أحد خبراء الجريمة في الولايات المتحدة أن أحد أهم الأسباب التي ساهمت أيضاً في ازدهار عمليات «العائلات» واستمرارها هو أن عمليات الابتزاز وألعاب القمار غير القانونية، التي تشكل القاعدة الإقتصادية لبعض أشكال الجريمة المنظمة، هي نشاطات لا يعتبرها العديد من المواطنين الأميركيين فاسدة أخلاقياً أو مفسدة إجتماعياً، ولذلك فإنها تستحق بعض التساهل الخفيف من قبل هيئات تنفيذ القانون.

ظهر في تاريخ عالم الجريمة الأميركي العديد من المجرمين، الذين ساهمت السينما الأميركية إلى حد كبير في شهرتهم بإنتاج أفلام تحكي عن حياتهم وأعمالهم. ومن أبرز هؤلاء «آل كابوني»، وهو مؤسس إحدى إمبراطوريات الجريمة المنظمة الضخمة، وقد بدأ نشاطه خلال فترة حظر المشروبات الكحولية في مدينة شيكاغو خلال العشرينات.

ولد آل كابوني في مدينة نيويورك، لكنه جعل من مدينة شيكاغو عاصمة لأعماله غير القانونية. وقد عُرف بقسوته ووحشيته في القضاء على منافسيه، الأصدقاء منهم والأعداء على حد سواء، بالإضافة إلى موظفيه الذين تظهر منهم أقل بادرة من عدم الولاء. ألقي القبض على كابوني عام 1931، وحُكم عليه بالسجن عشر

سنوات بتهمة التهرب من الضرائب، وهي التهمة الوحيدة التي أمكن إثباتها ضده. وأُطلق سراحه عام 1939 لأسباب صحية، وأمضى بقية حياته في مزرعة يمتلكها بولاية فلوريدا.

كذلك برز مجرمون في عالم الجريمة الأميركي، عملوا لحسابهم الخاص. ومن هؤلاء ثلاثة مجرمين تشابهوا في كثرة عدد ضحاياهم، وفي عدم تمكن السلطات من التعرف على هويتهم والقبض عليهم، وتم تقييد جرائمهم ضد مجهول. أولهم قاتل البروج السماوية (Zodiac Killer) الذي نشط في مدينة سان فرانسيسكو بين عامي 1966 و1975، وعُرف بهذا الاسم لأنه كان يترك إشارة البروج السماوية على ضحاياه، ويقدر عدد ضحاياه بحوالي خمسين ضحية.

والثاني حمل اسم قاتل نهر غرين (The Green River Killer) وقتل ثمان وأربعين امرأة بين عامي 1982 و1984، تم العثور على جثثهن على ضفة نهر غرين في ولاية واشنطن. وكانت ضحاياه من المومسات أو الفارات من أسرهن أو اللواتي يوقفن السيارات للسفر مجاناً. والثالث هو قاتل توين سيتيز (Twin Cities Killer) الذي قتل في مدينتي مينيابوليس وسانت بول المتجاورتين في ولاية مينيسوتا الأميركية، وذلك بين عامي 1986 و1994، ما يزيد على 34 ضحية، وكانت أغلب ضحاياه من العاهرات.

ومن الجرائم الجماعية في التاريخ الأميركي اشتهرت جريمتان أيضاً، حدثت الأولى في 18 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1978، عندما قام الأميركي جيم جونز (Jim Jones) وهو زعيم طائفة زعم أنها ذات طابع ديني، بإجبار 913 شخصاً من أتباعه، وأغلبهم من الأميركيين،

بينهم 276 طفلاً، على ارتكاب عملية انتحار جماعي بتناول مادة السيانيد السامة، فيما دعاه معبد الشعب، بمدينة جونستاون، في دولة غويانا.

وحدثت الثانية في نيسان/ أبريل 1995 عندما انفجرت قنبلة خارج مبنى في أوكلاهوما، وقتلت 169 شخصاً، بينهم 19 طفلاً، وجرحت أكثر من 400 شخص. وفي ذلك اليوم ألقي القبض على الأميركي «تيموثي ماك في» (Timothy McVeigh) بتهمة قيادة سيارته بسرعة زائدة، وفيما بعد دارت الشكوك حوله في أنه من ألقى القنبلة. وفي 31 آذار/ مارس 1997 جرت محاكمته، وفي 2 حزيران/ يونيو اعتُبر مذنباً وحُكم عليه بالإعدام في 13 حزيران/ يونيو من ذلك العام.

**5 ـ وكالة المخابرات المركزية (CIA):**

تتبع وكالة المخابرات المركزية الأميركية مباشرة المكتب التنفيذي للرئيس الأميركي، ويُعيّن رئيسها رئيس الجمهورية بعد موافقة مجلس الشيوخ. تأسست الوكالة عام 1947 مع مجلس الأمن القومي، وهي مسؤولة عن تزويد الحكومة بالمعلومات عن النشاطات الخارجية التي تؤثر على المصالح الأميركية، وذلك بالتعاون مع عملاء موزعين في جميع أنحاء العالم. وقد قامت الوكالة بالعديد من نشاطات التجسس غير القانونية وعمليات الاغتيال الخارجية، لتحقيق مصالح الولايات المتحدة بغض النظر عن مصالح الآخرين. ومن الأعمال التي ارتكبتها الوكالة على سبيل المثال، تدبير انقلاب عام 1973 في تشيلي ضد سلفادور ألّيندي (Salvador Allende) الرئيس المنتخب بصورة ديمقراطية عام 1970، وقتله، وتنصيب عميل الوكالة الجنرال أوغوستو بينوشيه

(Augusto Pinochet) مكانه، وقد قُتل خلال أحداث ذلك الانقلاب وحدها أكثر من 2500 شخص.

وفي عام 1986 تم الكشف عن تورط الوكالة في صفقات أسلحة سرية إلى إيران بترتيب من إدارة رونالد ريغان، وتحويل أموالها إلى عصابة الكونترا المتمردة ضد حكومة الساندينيستا الشرعية في نيكاراغوا. وفي خطاب ألقاه الرئيس الأميركي رونالد ريغان عام 1985 أمام أحد المؤتمرات في واشنطن، قال عن متمردي الكونترا «إنهم إخوتنا، هؤلاء المقاتلين من أجل الحرية.. إنهم المعادل الأخلاقي لآبائنا المؤسسين وللرجال والنساء الشجعان في المقاومة الفرنسية، ونحن لا نستطيع التخلي عنهم، لأن الصراع هنا ليس صراعاً لليمين ضد اليسار، بل هو صراع للحق ضد الظلم».

وفي عام 1983 تولى مانويل أنطونيو نورييغا (Manuel Antonio Noriega)، وهو تاجر مخدرات وعميل للوكالة، منصب قائد الحرس الوطني في بنما، ورقى نفسه إلى رتبة جنرال واستولى على الحكم. وفي عام 1986 اتُهم بعمليات ابتزاز وتهريب للمخدرات وغسيل للأموال. وفي كانون الأول/ ديسمبر عام 1989 غزت القوات الأميركية بنما واعتقلت نورييغا من مقره الرئاسي وقدمته إلى إحدى المحاكم الأميركية، التي حكمت عليه عام 1992 بالسجن لمدة أربعين عاماً.

وفي عام 1994 تم اكتشاف عملية بيع أسرار الدولة إلى الإتحاد السوفياتي قام بها أحد كبار ضباط الوكالة وهو ألدريتش إيمز (Aldrich Ames) وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة. وفي عام 1995

كشفت التحقيقات عملية اغتيال رجلين في غواتيمالا، وهما صاحب فندق أميركي وناشط يساري غواتيمالي، وذلك بأمر من ضابط غواتيمالي عميل لوكالة المخابرات المركزية.

وفي كانون الأول/ديسمبر عام 1998 انتُخب هوغو تشافيز (Hugo Chavez) رئيساً لجمهورية فنزويلا. وفي 13 نيسان/أبريل عام 2002 أطاح به انقلاب عسكري بتدبير من وكالة المخابرات المركزية الأميركية، وأعلنت الولايات المتحدة ورئيسها جورج بوش ترحيبهما على الفور بذلك الانقلاب، لكنهما أصيبا بخيبة أمل مريرة عندما تمكن شافيز من العودة إلى الحكم بعد يومين من الانقلاب.

**6 ـ تجارة الأسلحة والحروب الأميركية:**

من الصعب تخمين حجم تجارة الأسلحة العالمية لأن الحكومات المعنية تخفي هذه المعلومات لأسباب أمنية. لكن «معهد الأبحاث الدولية من أجل السلام في ستوكهولم» أصدر عام 1993 دراسة اعتبر فيها أن حجمها في ذلك العام بلغ 22 مليار دولار. أما التجارة غير القانونية للأسلحة فمن الصعب أكثر تخمينها. وتُقدّر قيمة الأسلحة التي تباع في السوق السوداء بأكثر من تسعة مليارات دولار سنوياً. وتسعى الحكومات الأميركية المتتابعة إلى التحكم بتجارة الأسلحة العالمية لحماية مصالحها الإقتصادية والسياسية. وخلال السنوات الأخيرة أصبح التحكم الفعال أكثر صعوبة، فالطلب المحلي قد تناقص، مما دعا منتجي الأسلحة إلى البحث عن المزيد من الأسواق الخارجية، وهكذا توسعت تجارة الأسلحة لتشمل بلاداً جديدة في مختلف أنحاء العالم.

ويحسب معهد ستوكهولم المذكور فإن أكبر دولة مصدرة للأسلحة في العالم هي الولايات المتحدة، بحجم مبيعات بلغ عام 1995 وحده 15,6 مليار دولار، وهو ثلاثة أضعاف حجم مبيعات بريطانيا. وبالمناسبة فقد ذكر المعهد المذكور أن السعودية هي أكبر دولة مستوردة للأسلحة في العالم، بحجم بلغ 15,6 مليار دولار عام 1995، تليها مصر بمبلغ 1,9 مليار دولار. وتحتل صناعة الأسلحة في الولايات المتحدة سبع مراتب من بين العشر الأولى في العالم، بحجم يتجاوز 71٪ من تجارة الأسلحة العالمية. وفي طليعة المصانع الأميركية يأتي مصنع لوكيد (Lockeed) وماك دونيل (McDonnell) وجنرال موتورز (General Motors) وبوينغ (Boeing).

ترتبط تجارة الأسلحة ارتباطاً وثيقاً بتورط الولايات المتحدة في حروب خارجية، سببت كوارث هائلة للمجتمع الأميركي، لم تكن غايتها دفاعية، وإنما لفرض هيمنتها على العالم. وأبرزها أربع حروب كبيرة خاضتها خلال القرن العشرين، بلغ عدد ضحاياها أكثر من 640 ألفاً.

### 7 ـ المجتمع الأميركي اليوم:

في إحصاءات لمكتب التحقيقات الفيدرالي الأميركي يبلغ متوسط عدد الذين يُلقى القبض عليهم لارتكاب جرائم مختلفة في الولايات المتحدة نحو 17 مليون شخص في السنة، أي 59 في الألف من التعداد العام للسكان، ـ للمقارنة تبلغ هذه النسبة في سورية 0,7 في الألف ـ. منهم نحو عشرين ألفاً بجريمة قتل، ومئة ألف بجريمة اغتصاب، ومئة ألف بجريمة دعارة، ومليون وستمئة

ألف بجريمة تتعلق بالمخدرات، ومليون ونصف بجريمة قيادة سيارة بحالة سكر، وخمسمائة ألف بجريمة نشل، ومليون بجريمة اعتداء عنيف على الأشخاص، ومليونان ونصف المليون بجريمة سطو على المنازل، وثمانية ملايين بجريمة سرقة، ومليون ونصف المليون بجريمة سرقة سيارات، والباقي بجرائم أخرى متنوعة. وتعتبر الولايات المتحدة من أكثر دول العالم تناولاً للمخدرات. ويوزع تقرير لوزارة الصحة الأميركية نسبة متناولي المخدرات في الولايات المتحدة كما يلي: الحشيش 30٪، الكوكايين 11٪، الهيرويين 1٪، كما تصل نسبة متناولي المشروبات الكحولية إلى 84٪. ومن الطريف ذكره أن ماريون باري، عمدة العاصمة الأميركية واشنطن، أُلقي القبض عليه عام 1990 بعد تصويره في غرفة أحد الفنادق وهو يتناول الكوكايين، وحُكم عليه بالسجن ستة أشهر بتهمة حيازة الكوكايين.

كما يعتبر تفسخ الحياة الأسرية من أهم الملامح التي تميز المجتمع الأميركي، حيث تنتهي نصف الزيجات إلى الطلاق، كما تصل نسبة المواليد غير الشرعيين إلى 25٪ من المجموع العالم للمواليد، أي أن واحداً من بين كل أربعة مواليد أميركيين مولود غير شرعي.

هذا هو مجتمع أحفاد طيور نيوغيت، الذي تحدثت عنه «مول فلاندرز»، قبل نحو ثلاثة قرون، والذي أصبح يشكّل أكبر قوة في العالم، ويُجبر بعصاه كل شعوب الأرض، ما عدا الشعب اليهودي طبعاً، على طاعته بدون نقاش، والتجاوب مع رغباته ومخططاته

ومطامعه، والموافقة على مفاهيمه وأخلاقه وازدواجيته، وتقبّل سياسته وإرادته ومبادئه، التي يصدّرها غير قابلة للرد أو التبديل، لأنها مختومة بالعبارة السحرية: «صُنع في الولايات المتحدة».

**8 ـ اغتيال الرؤساء الأميركيون:**

اغتيالات وفضائح، وللرؤساء الأميركيين حصتهم في العنف أو الفساد، التي طالت واحداً من كل أربعة، فقد تعرض أربعة منهم للاغتيال، وأربعة لمحاولة اغتيال، وواحد لفضيحة سياسية، وواحد لفضيحة أخلاقية، وهم:

- أبراهام لنكولن (Abraham Lincoln) الرئيس السادس عشر، اغتيل عام 1865.
- جيمز غارفيلد (James Garfield) الرئيس العشرون، اغتيل عام 1882.
- وليم ماكنلي (William McKinley) الرئيس الخامس والعشرون، اغتيل عام 1901.
- تيودور روزفلت (Theodore Roosevelt) الرئيس السادس والعشرون، جُرح عام 1912 خلال محاولة لاغتياله.
- فرانكلن روزفلت (Franklin Roosevelt) الرئيس الثاني والثلاثون، جرت محاولة لاغتياله عام 1933 برصاصات لم تصبه لكنها قتلت عمدة مدينة شيكاغو.
- هاري ترومان (Harry Truman) الرئيس الثالث والثلاثون، جرت محاولة لاغتياله عام 1950.

## ـ روايات حول اغتيال جون كينيدي:

إن الرئيس الأميركي جون كينيدي يُعتبر في نظر العديد من المؤرخين والمراقبين من أشهر وأقدر الرؤساء الذين تعاقبوا على هذا البلد المهيمن على شؤون نصف مساحة العالم تقريباً.

جاء اغتيال الرئيس الخامس والثلاثين للولايات المتحدة في مدينة دالاس بولاية تكساس في مرحلة من أحلك مراحل الحرب الباردة مع الإتحاد السوفياتي السابق وكتلته الشيوعية التي كانت تحزِّم العالم وقتذاك.

من هنا جاء اغتياله وسط دهشة عالمية ما زالت تحير الأميركيين العاديين والناس في جميع أرجاء المعمورة، مما أثار موجة من التساؤلات ونظريات المؤامرة لم تهدأ حتى اليوم.

وشرعت التكهنات والإشاعات توجه أصابع الاتهام إلى الروس والشيوعيين والكوبيين، وحتى إلى المافيا ووكالة الاستخبارات المركزية الأميركية «سي آي أيه» ومكتب التحقيقات الإتحادي «أف بي آي» بأنها كانت وراء عملية الاغتيال، لكن لم يبرز حتى اليوم دليل قاطع حاسم واحد يبرر ذلك.

ومما زاد في حدة هذه الاتهامات أن قاتل كينيدي لي هارفي اوزوالد كان شيوعياً سابقاً وعاش فترة من حياته في الإتحاد السوفياتي السابق حيث تزوج هناك من روسية رافقته لدى عودته إلى الولايات المتحدة.

وهناك حتى نظرية أخرى طلع بها المخرج السينمائي أوليفر ستون تقول إن عصابة يمينية سرية قتلت كينيدي حتى يتولى ليندون جونسون نائب الرئيس آنذاك السلطة في البلاد.

ليس هذا فحسب، بل أن شريكاً سابقاً في مكتب للمحاماة كانت له علاقة بالبيت الأبيض، يدعى بار مكسيلان، طلع بكتاب أيضاً تحت عنوان «دم ومال وسلطة»، يقع في 480 صفحة من القطع المتوسط، اتهم فيه جونسون بأنه ضالع في الجريمة، وإن شخصيات أخرى سياسية وأمنية وعسكرية ساندته وخططت للعملية ونظمتها.

ومهما كانت الدوافع التي تقف وراء بار مكسيلان لكي يوجه مثل هذه الاتهامات، ربما بعضها بدافع الانتقام من جونسون، الذي لم يكن محبوباً من قبل قطاع واسع من السياسيين والشعب، إلا أن كتابه زاد من حدة النار التي ما زالت تتأجج حتى اليوم في نفوس الأميركيين.

صحيح إن نظرية المؤامرة هي عنصر كامن في الطبيعة البشرية منذ الخليقة حتى اليوم، لكنها في اغتيال كينيدي أخذت أبعاداً عميقة جداً، خاصة إن قاتل كينيدي قُتل هو الآخر على يد جاك روبي صاحب ملهى ليلي يُقال إن له صلات بالمافيا والعالم السفلي، قبل أن تكر السبحة ويقضي هو الآخر مع آخرين في ظروف غامضة، مما عزز عامل الإثارة والتوتر.

لقد تحولت عملية اغتيال كينيدي والعثور على أجوبة شافية لها إلى صناعة واسعة تدر أرباحاً طائلة، تماماً كما حدث، ولو على نطاق أضيق، بعد انتحار مارلين مونرو وألفس بريسلي، وقبلهما هتلر ونابليون، وحتى اسكندر المقدوني أيضاً في التاريخ القديم.

ثم لا ننسى أيضاً أحداث أيلول/سبتمبر في الولايات المتحدة التي أطلقت موجة هائلة من التكهنات والافتراضات ونظريات المؤامرة.

كذلك فإن تاريخنا العربي القديم والحديث لا يخلو من هذه الحكايات، منها مقتل الملك غازي ملك العراق في حادث سيارة، لكن للمرة الأولى اليوم، وبناء على استخدام أحدث تقنيات الكومبيوتر، يقوم الخبراء بتحليل فيلم سينمائي قياس 8 مليمترات التقطه أبراهام زابرودر، وهو مصمم أزياء من دالاس، لواقعة الاغتيال مكون من نحو 486 لقطة ملونة للوصول إلى الحقيقة الساطعة وإسدال الستار نهائياً على حادث مؤسف كاد أن يودي بالعالم إلى أتون حرب نووية طاحنة لا تبقي ولا تذر، رغم التساؤلات حول سبب ظهور الفيلم الآن، وليس قبل 40 سنة.

## - نظرية المسيح الدجال هو قاتل الرئيس الأميركي جون كينيدي:

تقول أحدث رواية وأغربها عن حادث اغتيال الرئيس الأميركي جون كينيدي إن الذين اغتالوه في دالاس عام 1963 هم مخلوقات فضائية كانت قد وصلت إلى الأرض حسب ما أوردت صحيفة «ترود» البلغارية. وتؤكد الصحيفة البلغارية أن هذه الرواية معروفة في المستويات العليا في البيت الأبيض والبنتاغون ولم يجر تفنيدها حتى الآن وأن سياسيين وعسكريين كباراً وخبراء في الفضاء والأطباق الطائرة يؤمنون بهذه الرواية تماماً.

أما عن سبب قيام المخلوقات الفضائية باغتيال الرئيس الأميركي فتقول صحيفة «ترود» إن كينيدي كان ينوي في نفس يوم اغتياله إطلاع الرأي العام الأميركي على وجود اتصالات أميركية مع غرباء قادمين من الفضاء الخارجي مما كان يترتب على ذلك عواقب وخيمة على الولايات المتحدة.

وتنقل الصحيفة البلغارية عن البروفسور الأميركي لورنس مريك أن الرئيس كينيدي كان قد عقد العزم على الكشف عن ذلك السر في يوم اغتياله بالذات غير أن القتلة سبقوه في إسكاته إلى الأبد. ويضيف البروفسور مريك أنه لم يمض وقت طويل على اغتيال كينيدي حتى قتل أو مات في ظروف غامضة كل من كان مطلعاً على سر المخلوقات الفضائية واتصالاتها مع أهل الأرض.

وتعيد الصحافية البلغارية نينا اندونوفا جذور هذه الرواية إلى سنوات الخمسينات وتؤكد في الصحيفة نفسها أن العالِم المشهور في شؤون الإطباق الطائرة تشارلز بيرلتم يشير إلى زيارة في غاية السرية قام بها الرئيس الأميركي الأسبق أيزنهاور يوم 20 شباط/ فبراير 1954 إلى قاعدة ادواردز الجوية في كاليفورنيا لرؤية مخلوقات فضائية كانت هبطت هناك في خمسة أطباق طائرة قادمة من برج الجوزاء. وتواصل الصحافية اندونوفا أن الرئيس أيزنهاور اجتمع بتلك المخلوقات الغريبة وأبرم معها إتفاقاً يحق لها بموجبه الإقامة على كوكب الأرض والاطلاع على مستندات وأوراق أميركية وأن الجانبين اتفقا أيضاً على تبادل 16 شخصاً من الطرفين لإجراء فحوصات عليهم.

وأكد العميل السابق لجهاز المخابرات المركزية ويليام كوبر عام 1989 إن مثل هذه الفحوصات جرت على أشخاص من الطرفين فعلاً في ذلك الحين.

## ـ ظروف اغتيال جون كينيدي:

في الخمسينات كانت كوبا ترزح تحت نظام حكم فولخانسيو باتيستا الذي سمح لمجموعة من الشركات الأميركية مثل «جنرال موتورز» و«ستاندرد أويل» و«شيراتون» و«هيلتون» و«جنرال إلكتريك» بالسيطرة على ثروات البلاد... في ذلك الوقت نجحت مجموعة من الثوار بقيادة الرئيس فيدل كاسترو في قلب نظام الحكم واستلام مهام السلطة في البلاد... دفع هذا التحول المفاجئ تلك الشركات الأميركية التي خافت على مصالحها في الجزيرة إلى محاولة إقناع الرئيس الأميركي بالتخلص من نظام الحكم الجديد في كوبا.

في السابع عشر من آذار/ مارس 1960 أصدر الرئيس الأميركي أيزنهاور مرسوماً يقضي بضرورة التخلص من نظام كاسترو... وكان الهدف الأول والأخير لهذا القرار هو تغيير نظام كاسترو إلى نظام آخر أكثر ملائمة للمصالح الأميركية الكبيرة في الجزيرة الكوبية...

بعد تولي جون كينيدي لمقاليد الرئاسة في أميركا بفترة قصيرة قامت سلطات الاستخبارات الأميركية بتجنيد مجموعة من المنفيين والمرتزقة الكوبيين من أجل القيام بانقلاب ضد كاسترو... وفي السابع عشر من نيسان/ أبريل 1961 قامت هذه المجموعة بعملية إنزال في خليج الخنازير ولكن المحاولة باءت بالفشل، الأمر الذي

فاجأ السلطات الأميركية فعلاً كان رفض جون كينيدي أن تقوم القوات الجوية الأميركية بدعم المرتزقة الكوبيين خلال عملية الإنزال وقيامه بعزل مدير الـ (سي. أي. إيه) ألان داليس ومساعده تشارلز كابل وإصداره الأوامر بإجراء تحقيق داخلي لتحديد المسؤولين عن العملية ومن بينهم هيئة الأركان المشتركة وقائدها الجنرال لايمان لمنيتزر.

اتهمت السلطات السياسية والعسكرية العليا في أميركا الرئيس الأميركي جون كينيدي بالجبن لرفضه توفير الدعم للمرتزقة الكوبيين. بعد تفكير عميق توصل مجموعة من القادة المتطرفون والذين يشغلون مناصب عليا في القطاعين السياسي والعسكري إلى فكرة مخيفة... أساس هذه الفكرة هو تقديم حجة سياسية وعسكرية أو عذر سياسي وعسكري إلى الرئيس كينيدي من أجل أن يوافق على عملية تدخل عسكري شاملة في الجزيرة الكوبية...

تولى مهمة التخطيط لهذه الحجة العميد ويليام كريغ والجنرال ليمنيتزر رئيس هيئة الأركان المشتركة. وفي الثالث عشر من آذار/ مارس 1962 قام ليمنيتزر بعرض المخطط أو الحجة التي أطلق عليها اسم «الغابات الشمالية» على من يهمه الأمر من المسؤولين وذلك خلال إجتماع عقد في مكتب وزير الدفاع روبرت ماكنمارا في البنتاجون.

لم تكن نهاية الإجتماع سعيدة بالنسبة لأصحاب المخطط فقد رفض وزير الدفاع ماكنمارا المخطط بأكمله وتم إبعاد الجنرال ليمنيتزر عن البلاد وتعيينه قائداً للقوات الأميركية في أوروبا. ورغم

أن ليمنيتزر أمر بتدمير كل نسخ المخطط قبل رحيله إلى أوروبا إلا أن وزير الدفاع ماكنمارا احتفظ بنسخة منه.

## ـ من أسباب اغتيال جون كينيدي:

رفض الرئيس الأميركي جون كينيدي أن تتورط بلاده في حرب ضد كوبا. ويجمع معظم المؤرخين أن هذا هو السبب الرئيسي لاغتياله.

في العام 1992 أطلق المخرج الأميركي الشهير أوليفر ستون فيلماً سينمائياً يختص بإظهار التناقضات العديدة التي تضمنتها الرواية الرسمية للسلطات الأميركية حول حادثة اغتيال جون كينيدي. سبّب هذا الفيلم ضجة كبرى في الولايات المتحدة والعالم وحرك الرأي العام العالمي بقوة والذي بدأ يتساءل بإلحاح عن الأسباب الحقيقية وراء اغتيال كينيدي. دفع هذا الضغط والإلحاح العالمي الرئيس بيل كلينتون إلى إصدار أوامر بفتح الملفات القديمة المحفوظة في البيت الأبيض والبنتاغون منذ عهد كينيدي.

وبفتح هذه الملفات القديمة عثر بين أوراق وزير الدفاع في عهد كينيدي روبرت ماكنمارا على تلك النسخة من مشروع الغابات.

كان هدف عملية «الغابات الشمالية» إقناع المجتمع الدولي بأن فيدل كاسترو يشكل خطراً على العالم بأفكاره الثورية لذلك يجب التخلص منه. ولتحقيق هذا الهدف ولإعطاء الولايات المتحدة حجة للتدخل العسكري في كوبا كان لابد من القيام بتمثيلية كبرى بحيث يتم إلحاق أضرار كبيرة بمصالح أميركية وإلصاق التهمة بكوبا.

تضمنت عملية «الغابات الشمالية» العديد من المقترحات نذكر منها:

- قيام مجموعة من المرتزقة الكوبيين المتخفين بملابس قوات فيدل كاسترو بالهجوم على القاعدة الأميركية في كوبا «غوانتنامو» وإحداث قدر كبير من التخريب والتفجيرات والتسبب بخسائر مادية وبشرية كبيرة.
- تفجير وإغراق سفينة أميركية في المياه الإقليمية لكوبا على أن تكون السفينة في حقيقة الأمر خالية ومتحكم بها عن بعد. ويكون الانفجار من الشدة بحيث يشاهد في العاصمة هافانا وذلك للحصول على شهود عيان. وتكون هناك عمليات إنقاذ موسعة ولائحة بأسماء الضحايا ومراسم جنائزية وذلك لإثارة الرأي العام العالمي. وتجري العملية في الوقت الذي تتواجد فيه سفن وطائرات كوبية في المنطقة حتى يتسنى نسب المسؤولية إليها.

ملاحظة: في عام 1898 كانت كوبا مستعمرة إسبانية وتم في ذلك الوقت تدمير السفينة الأميركية مما أدى إلى مقتل 276 شخصاً فاستخدمت أميركا هذا العذر لإحتلال إسبانيا.

- ممارسة الإرهاب ضد المنفيين الكوبيين في الولايات المتحدة من خلال استخدام العبوات الناسفة والسيارات الملغومة. وبعد ذلك يتم إلقاء القبض على عملاء وجواسيس كوبيين مزيفين للحصول على اعترافات. يتم توثيق هذه الاعترافات وتوزيعها على وسائل الإعلام المختلفة.

- إيهام الدول المجاورة لكوبا بخطر نظام فيدل كاسترو الثوري ذو الأهداف التوسعية. وتقوم طائرة كوبية مزيفة بقصف ليلي لجمهورية الدومينيكان المجاورة مع الأخذ في الاعتبار أن تكون الصواريخ المستخدمة سوفياتية الصنع - كان الإتحاد السوفياتي هو مصدر السلاح الأول لنظام فيدل كاسترو -.
- إثارة الرأي العام العالمي وذلك عن طريق تفجير طائرة مدنية أميركية. ولإحداث أكبر قدر ممكن من التأثير يؤخذ في الاعتبار أن يكون على متن الطائرة شخصية أميركية مؤثرة ومشهورة مثل جون غلين أول أميركي يدور حول الأرض. ويكون تنفيذ هذه العملية كما يلي: تقوم مجموعة من المتواطئين - طلاب مثلاً - باستئجار طائرة تابعة لإحدى الشركات. في الجو تلتقي هذه الطائرة مع طائرة أخرى شبيهة بها تماماً ولكنها خالية من الركاب ومتحكم بها عن بعد بينما يعود المتواطئون بطائرتهم للهبوط في إحدى قواعد الـ «سي. أي. إيه». تكمل الطائرة الأخرى مسارها وتصدر نداءات استغاثة وإشارات تدل على قرصنة جوية بواسطة مختطفين كوبيين ثم تنفجر في الجو.

كما يتضح من بنود العملية فإن إنجاز هذا المخطط يتطلب مقتل العديد من المواطنين الأبرياء سواءً مدنيين أو عسكريين. ولكن في نظر من خطط لـ «الغابات الشمالية». فإن مقابل موت هؤلاء ستحصل أميركا على أدوات سيطرة مطلقة وفعالة على العالم وهذا هو الهدف الأساس.

## ـ سيرة جون كينيدي الذاتية:

رجل الدولة والرئيس الأميركي الخامس والثلاثون (1961 ـ 1963)، ولد في 29 أيار/مايو عام 1917، في Brookline، ولاية ماسوشوستس. وهو الولد الثاني ليوسف وروز كينيدي التسعة.

كان جون كينيدي أصغر رئيس انتخب في الولايات المتحدة الأميركية.

تلقى جون كينيدي دروسه الإبتدائي في مدرسة «Canterbury» الخاصة في ميلفورد الجديدة، كونيكتيكت، وتابع دراسته الثانوية في مدرسة «Choate» في والينجفورد، كونيكتيكت.

في العام 1935 دخل جامعة «Princeton» في لندن لدراسة الإقتصاد. لكنه أُجبر على ترك الجامعة في بداية السنة بسبب تفشي مرض اليرقان بين الطلاب.

في خريف عام 1936 دخل جامعة «هارفارد»، في قسم Cum Laude.

وأثناء الحرب العالمية الثانية، أصيب المركب الذي كان يقوده في المحيط الهادي من قِبل مدمرة يابانية، وعلى الرغم من الإصابات القوية، قاد الطاقم الباقي على قيد الحياة إلى شاطئ الأمان.

في العام 1945 وبعد الحرب، عمل كينيدي لعدة أشهر مراسلاً لصحيفة «Hearst»، وقد غطى أخبار مؤتمر سان فرانسيسكو الذي بموجبه أسس الأمم المتحدة.

في العام 1947، أصبح عضواً في الكونجرس الأميركي عن الحزب الديمقراطي في بوسطن، وفي العام 1952، شَنَّ حملة انتخابية ضدّ هنري كابو في ولاية ماسوشوستس ودخل إلى مجلس الشيوخ.

في 12 أيلول/سبتمبر عام 1953 تزوج من جاكلين بوفيار، ورزقا ثلاث أطفال، كارولين ولدت عام 1957 وجون فيزجيرالد ولد عام 1960، وباتريك في العام 1963، ولكنه مات بعد فترة قليلة من الولادة.

في العام 1956 ترشح لمقعد نائب الرئيس عن الحزب الديمقراطي وفاز بالانتخابات، وبعد أربع سنوات كان المرشح الأول لمنصب الرئيس، أي مرشح وسيم وصغير السن مع زوجة جميلة، وتمتع كينيدي بدعم العديد من أبرز مشاهير هوليود، الذين ساعدوه على جمع المال لتمويل حملته الانتخابية.

بعد مناظرته التلفزيونية الشهيرة مع المرشح الجمهوري ريتشارد نيكسون، والتي شاهدها الملايين فاز بالرئاسة بهامش ضيّق، وأصبح كينيدي رئيس الولايات المتحدة الأميركية الخامس والثلاثون، وهو الرئيس الأصغر والكاثوليكي الأول في تاريخ أميركا.

أطلق كينيدي أوسع وأطول برامج إقتصادية في البلاد منذ الحرب العالمية الثانية. وروّج للتشريع الإجتماعي، وألغى التمييز العنصري في المدارس والجامعات، وتوازى ذلك مع إصلاح الحقوق المدنية.

دعا كينيدي إلى تشكيل تحالف من أجل التقدم والسلام في

العالم، وحضّ الأميركيين على مساعدة الدول النامية.

في فترة الحرب الباردة، أمر كينيدي بالاعتدال في السياسة الخارجية. وفي نيسان/أبريل عام 1961 عارض كينيدي استعمال القوة ضد فيدال كاسترو في كوبا، والتي كانت قد بدأت هذه الأزمة بإدارة وكالة المخابرات المركزية الأميركية قبل انتخابه رئيساً للجمهورية، وفشل إحتلالهم كوبا في خليج الخنازير. وتحمّل كينيدي مسؤولية هذه العثرة السياسية، والتي اعتبرت نكسة هائلة في العلاقات الخارجية الأميركية.

في تشرين الأول/أكتوبر عام 1962 أوقف كينيدي الخطر من اندلاع حرب نووية شاملة مع الإتحاد السوفياتي والتي اندلعت بعد تجهيز كوبا بصواريخ بالستية، وأدت في النهاية إلى سحب تلك الصواريخ من قبل السوفيات.

في العام 1963 حاول كينيدي الحد من سباق التسلح، ووقع معاهدة منع التجارب النووية الجزئية مع الإتحاد السوفياتي.

في 22 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1963، اغتيل الرئيس كينيدي بإطلاق النار عليه بينما كان يقود سيارة مكشوفة في دالاس.

القاتل المزعوم هو لي هارفي أوزوالد الذي يبلغ من العمر 24 عاماً، والذي قتل بعد أيام من ارتكابه الجريمة وهو مخفوراً من قبل الشرطة الأميركية أثناء نقله إلى سجن الولاية!!!. ولا تزال عملية اغتياله، وقتل المتهم باغتياله يحيط بهما الغموض حتى اليوم.

# داغ همرشولد

# (1905 ـ 1964

اليوم وفي ظل الاصطفاف الدولي الجديد، يتذكر الناس الدبلوماسي السويدي داغ همرشولد، الذي ظهر على المسرح السياسي العالمي في نيسان/ أبريل عام 1953 كثاني أمين عام للأمم المتحدة خلفاً للنرويجي تريغف هالفدان لي.

في التاسع والعشرين من شهر تموز/يوليو عام 1905 ولدت هذه الشخصية التي أسهمت، حسب شهادة الكثيرين في وضع أسس لحماية السلم العالمي، من خلال اقتراحه سياسة نشر قوات للسلام تابعة للأمم المتحدة في بؤر التوتر والنزاعات التي باتت اليوم إحدى الإجراءات الثابتة في سياسة الأمم المتحدة، والمساهمة الجادة في حل الخلافات المسلحة بالطرق السلمية، والتي ولسوء الحظ، كلفت داغ همرشولد حياته، حيث أسقطت الطائرة التي كان يقلها وهو في طريقه إلى الكونغو لحل نزاع أهلي فيها.

ومثلما ظل مقتل رئيس الوزراء الأسبق أولف بالمه لغزاً لم يحل بعد، فلم يعرف المعنيون إلى الآن كيف أسقطت طائرة أمين عام

الأمم المتحدة في العام ألف وتسعمائة وأربعة وستين داغ همرشولد، مع إن بعض شهود العيان ومنهم الضابط في المنظمة السويدي بيورن أغ الذي يقول أنه شاهد ثقوب رصاصات على جبين همرشولد.

رئيس تحرير صحيفة «سفينسكا داغ بلادت» السابق ماتس سفي فوش ألف كتاباً عنه بعنوان، «داغ همرشولد، أول سويدي معاصر» يتحدث عنه بالقول:

«لقد كان داغ همرشولد أول سويدي عرف على نطاق العالم، وهو أول قائد سويدي سلطت عليه كاميرا التلفزيون وبشكل دائم، منذ أن وافق على قبول منصب أمين عام الأمم المتحدة، والأمل كبير في أن نعود إلى تلك الروحية اليومية على صعيد العالم، وأن لا يتم الانعزال عما يجري، وهذا أساس لكل ما نعمل، وهذا كان في زمن همرشولد، هو لم يكن يرغب بتغيير العالم، ولكنه حصل على الإلهام لتعزيز إيمانه».

هذا ويشهد التاريخ لداغ همرشولد موقفه كأمين عام للأمم المتحدة إبان أزمة قناة السويس بإشرافه على أول وجود لقوات طوارئ متعددة الجنسيات في مصر عام ستة وخمسين، حيث أصر همرشولد على أخذ موافقة مصر ولقائه جمال عبد الناصر على انتشار القوات على أراضيها. وعلى أثر العدوان الثلاثي على مصر هدد همرشولد بالاستقالة إذا لم يتخذ مجلس الأمن قراراً بإدانة العدوان، وحصل على ما أراد وأدى القرار إلى إدانة كل من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، وهذا ما أدى إلى اغتياله.

## ـ الإرهاب الإسرائيلي على ممثلي الأمم المتحدة:

كان من أبرز أدوات الإرهاب الإسرائيلي، قبل وبعد قيام الدولة اليهودية، الهجوم على الشخصيات العامة التي لا تستجيب لرغباتها وابتزازها. وحين لا ينجح الأمر يكون الاغتيال هو النهاية.

### أ ـ كورت فالدهايم:

كان سكرتيراً عاماً للأمم المتحدة (1972 ـ 1982). وقد حاول أن يكون منصفاً بين أطراف النزاع في الشرق الأوسط فرفض استمرار الإحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية، وأوضح موقفه إبّان التحضير للقرار رقم «338»، وبعد ذلك جرى الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية دولياً ودعي عرفات لإلقاء خطابه الشهير في الأمم المتحدة. إثر ذلك وجّهت رئاسة المؤتمر اليهودي العالمي تهمة النازية للسكرتير العام للأمم المتحدة. وتساءلت الصحافة العالمية: ترى لماذا سكتت الحركة الصهيونية عن ملاحقة فالدهايم طوال سنوات رئاسته السابقة للأمم المتحدة ولم تحرّك ساكناً إلا بعد أن قام حزب الشعب في بلاده بترشيحه لانتخابات الرئاسة؟

والجدير بالذكر أن النمسا كانت مركزاً لتهجير يهود شرق أوروبا إلى إسرائيل بعد الحرب العالمية الثانية واستمرت تقوم بخدمة الهجرة، وكان تولي فالدهايم رئاستها يزعج المؤتمر اليهودي العالمي.

ورغم مساندة الولايات المتحدة الأميركية لإسرائيل في هذه الهجمة الإرهابية الشرسة ضد فالدهايم، فإنه قاوم ونجح وقال قولته المشهورة أنه «لا يخوض المعركة ضد الإشتراكيين النمساويين بل

يخوضها ضد أطراف دولية عديدة تجمع بينها الأقنعة الصهيونية»، وقد وقف الرأي العام النمساوي مع فالدهايم وأبدى دهشته من وقاحة الصهيونية التي تريد أن تختار للنمسا رئيسها المقبل.

**- داغ همرشولد:**

مثال آخر هو داغ همرشولد السويدي الذي انتخب سكرتيراً عاماً للأمم المتحدة عام 1953 ثم أعيد انتخابه لمدة خمس سنوات أخرى عام 1958، وقد خلف السكرتير العام السابق النرويجي الأصل تريغفلي الذي خضع لتأثير الصهيونية.

قام بن غوريون بتهديد همرشولد بشكل أقرب إلى التصريح منه إلى التلميح ليدفعه إلى تعديل مواقفه والتغاضي عن الاعتداءات الصهيونية وإهمال تنفيذ قرارات الأمم المتحدة. وقد انتهز فرصة لقائه بهمرشولد فقدّم له يهوشا كوهين الذي كان قد اغتال الوسيط الدولي الكونت برنادوت، على أساس أنه آخر الإرهابيين في إسرائيل، كما قال متصنّعاً المزاح، إلا أن همرشولد فهم الإشارة لكنه لم يغير أسلوبه.

بعد هذه الحادثة بوقت قليل اغتيل داغ بإصابة طائرته في الجو فوق الكونغو.

# مالكوم إكس
# (1925 ـ 1965)

مالكوم إكس أو الحاج مالك شباز من الشخصيات الأميركية المسلمة البارزة في منتصف القرن العشرين، التي أثارت حياته القصيرة جدلاً لم ينته حول الدين والعنصرية، حتى أطلق عليه اسم «أشد السود غضبا في أميركا». كما أن حياته كانت سلسلة من التحولات، حيث انتقل من قاع الجريمة والانحدار إلى تطرف الأفكار العنصرية، ثم إلى الاعتدال والإسلام، وعندها كُتبت نهايته بست عشرة رصاصة.

## ـ اللون.. قبل الإنسان:

ولد مالكوم في 29 أيار/مايو 1925، وكان والده أورلي ليتل قسيساً أسود من أتباع ماركوس كافي الذي أنشأ «جمعية بنيويورك» ونادى بصفاء الجنس الأسود وعودته إلى أرض أجداده في أفريقيا. أما أمه فكانت من جزر الهند الغربية لكن لم تكن لها لهجة الزنوج، وكان مالكوم المولود السابع في الأسرة، فقد وضعته أمه وعمرها ثمانية وعشرون عاماً، كانت العنصرية في ذلك الوقت في الولايات المتحدة ما زالت على أشدها، وكان

الزنجي الناجح في المدينة التي يعيش فيها مالكوم هو ماسح الأحذية أو البواب!!

كان أبوه حريصاً على اصطحابه معه إلى الكنيسة في مدينة لانسينغ حيث كانت تعيش أسرته على ما يجمعه الأب من الكنائس، وكان يحضر مع أبيه إجتماعاته السياسية في «جمعية التقدم الزنجية» التي تكثر خلالها الشعارات المعادية للبيض، وكان الأب يختم هذه الإجتماعات بقوله: إلى الأمام أيها الجنس الجبّار، بوسعك أن تحقق المعجزات. وكان أبوه يحبه للون بشرته الفاتح قليلاً عنه، أما أمه فكانت تقسو عليه لذات السبب، وتقول له: «أخرج إلى الشمس ودعها تمسح عنك هذا الشحوب».

وقد التحق بالمدرسة وهو في الخامسة من عمره، وكانت تبعد عن مدينته ثمانية أميال، وكان هو وعائلته الزنوج الوحيدين بالمدينة، لذا كان البيض يطلقون عليه الزنجي أو الأسود، حتى ظن مالكوم أن هذه الصفات جزء من اسمه.

## ـ الحق والصراخ:

كان الفتى الصغير عندما يعود من مدرسته يصرخ مطالباً بالطعام، ويصرخ ليحصل على ما يريد، ويقول في ذلك: «لقد تعلمت باكراً أن الحق لا يُعطى لمن يسكت عنه، وأن على المرء أن يحدث بعض الضجيج حتى يحصل على ما يريد».

وعندما بلغ مالكوم سن السادسة قتلت جماعة عنصرية بيضاء أباه وهشمت رأسه، فكانت صدمة كبيرة للأسرة وبخاصة الأم التي

أصبحت أرملة وهي في الرابعة والثلاثين من عمرها وتعول ثمانية أطفال، فترك بعض الأبناء دراستهم، وعملت الأم خادمة في بعض بيوت البيض، لكنها كانت تُطرد بعد فترة قصيرة لأسباب عنصرية.

وتردت أحوال الأسرة، وكانت الأم ترفض وتأبى أن تأخذ الصدقات من مكتب المساعدة الإجتماعية، حتى تحافظ على الشيء الوحيد الذي يمتلكونه وهو كرامتهم، غير أن قسوة الفقر سنة 1934 جعلت مكتب المساعدة يتدخل في حياتهم، وكان الموظف الأبيض فيه يحرّض الأبناء على أمهم التي تدهورت حالتها النفسية وأصيبت بمرض عقلي سنة 1937، وأودعت في المستشفى لمدة 26 عاماً.

وأصبح الأطفال السود أطفال الدولة البيضاء، وتحكّم الأبيض في الأسود بمقتضى القانون. وتردت أخلاق مالكوم، وعاش حياة التسكع والتطفل والسرقة، ولذلك فُصل من المدرسة وهو في سن السادسة عشرة، ثم أُلحق بسجن الأحداث.

## ـ بوادر العنصرية:

كان مالكوم شاباً يافعاً قوي البنية، وكانت نظرات البيض المعجَبة بقوته تشعره بأنه ليس إنساناً بل حيواناً لا شعور له ولا إدراك، وكان بعض البيض يعاملونه معاملة حسنة، غير أن ذلك لم يكن كافياً للقضاء على بذور الكراهية والعنصرية في نفس الشاب الصغير، لذلك يقول: «إن حسن المعاملة لا تعني شيئاً ما دام الرجل الأبيض لن ينظر إليّ كما ينظر لنفسه، وعندما تتوغل في أعماق نفسه تجد أنه ما زال مقتنعاً بأنه أفضل مني».

وتردد مالكوم على المدرسة الثانوية وهو في سجن الإصلاح، وكانت صفة الزنجي تلاحقه كظله، وشارك في الأنشطة الثقافية والرياضية بالمدرسة، وكانت صيحات الجمهور في الملعب له: «يا زنجي يا صدئ» تلاحقه في الأنشطة المختلفة. وأظهر الشاب تفوقاً في التاريخ واللغة الإنجليزية.

**ـ الأسود.. والمستقبل:**

في العام 1940م رحل إلى أقاربه في بوسطن، وتعرف هناك على مجتمعات السود، ورأى أحوالهم الجيدة نسبياً هناك، وبعد عودته لاحظ الجميع التغير الذي طرأ عليه، غير أنه احتفظ بتفوقه الدراسي، وفي نهاية المرحلة الثانوية طلب مستر ستراوسكي من طلابه أن يتحدثوا عن أمنياتهم في المستقبل، وتمنى مالكوم أن يصبح محامياً، غير أن ستراوسكي نصحه ألا يفكر في المحاماة لأنه زنجي وألا يحلم بالمستحيل، لأن المحاماة مهنة غير واقعية له، وأن عليه أن يعمل نجاراً، وكانت كلمات الأستاذ ذات مرارة وقسوة على وجدان الشاب، لأن الأستاذ شجع جميع الطلاب على ما تمنوه إلا صاحب اللون الأسود، لأنه في نظره لم يكن مؤهلاً لما يريد.

وبعد انتهاء المرحلة الثانوية قصد مالكوم بوسطن وأخذته الحياة في مجرى جديد، وأصيب بنوع من الانبهار في المدينة الجميلة، وهناك انغمس في حياة اللهو والمجون، وسعى للتخلص من مظهره القوي، وتحمل آلام تغيير تسريحة شعره حتى يصبح ناعماً، وأدرك أن السود لو أنفقوا من الوقت في تنمية عقولهم ما ينفقونه في تليين شعورهم لتغير حالهم إلى الأفضل.

ثم انتقل إلى نيويورك للعمل بها في السكك الحديدية، وكان عمره واحداً وعشرين عاماً، وكانت نيويورك بالنسبة له جنة، وتنقَّل بين عدة أعمال، منها أن يعمل بائعاً متجولاً، وتعلم البند الأول في هذه المهنة وهو ألا يثق بأحد إلا بعد التأكد الشديد منه.

وعاش فترة الحرب العالمية الثانية، وشاهد ما ولدته الحرب من فساد خلقي وإجتماعي وانغمس هو نفسه في هذا الفساد، وغاص في أنواع الجرائم المختلفة من سرقة ودعارة وفجور، وعاش خمس سنوات في ظلام دامس وغفلة شديدة، وفي أثناء تلك الفترة أُعفي من الخدمة العسكرية، لأنه صرّح من قبيل الخديعة أنه يريد إنشاء جيش زنجي.

## ـ السجن.. وبداية الحرب:

ألقت الشرطة القبض عليه وحكم سنة 1946م بالسجن عشر سنوات، فدخل سجن «تشارلز تاون» العتيق، وكانت قضبان السجن ذات ألم رهيب على نفس مالكوم، لذا كان عنيداً يسبّ حرّاسه حتى يحبس حبساً انفرادياً، وتعلم من الحبس الانفرادي أن يكون ذا إرادة قوية يستطيع من خلالها التخلي عن كثير من عاداته، وفي عام 1947 تأثر بأحد السجناء ويدعى بيمبي الذي كان يتكلم عن الدين والعدل فزعزع بكلامه ذلك الكفر والشك من نفس مالكوم، وكان بيمبي يقول للسجناء: إن من خارج السجن ليسوا بأفضل منهم، وإن الفارق بينهم وبين من في الخارج أنهم لم يقعوا في يد العدالة بعد، ونصحه بيمبي أن يتعلم، فتردد مالكوم على مكتبة السجن وتعلم اللاتينية.

وفي العام 1948 انتقل إلى سجن كونكورد، وكتب إليه أخوه فيلبيرت أنه اهتدى إلى الدين الطبيعي للرجل الأسود، ونصحه ألا يدخن وألا يأكل لحم الخنزير، وامتثل مالكوم لنصح أخيه، ثم علم أن إخوته جميعاً في دترويت وشيكاغو قد اهتدوا إلى الإسلام، وأنهم يتمنون أن يسلم مثلهم، ووجد في نفسه استعداداً فطرياً للإسلام، ثم انتقل مالكوم إلى سجن «ينورفولك»، وهو سجن مخفف في عقوباته، ويقع في الريف، ويحاضر فيه بعض أساتذة الجامعة من هارفارد وبوسطن، وفيه مكتبة ضخمة تحوي عشرة آلاف مجلد قديم ونادر.

وفي هذا السجن زاره أخوه ويجالند الذي انضم إلى حركة «أمة الإسلام» بزعامة إليجا محمد، التي تنادي بأفكار عنصرية منها أن الإسلام دين للسود، وأن الشيطان أبيض والملاك أسود، وأن المسيحية هي دين للبيض، وأن الزنجي تعلم من المسيحية أن يكره نفسه، لأنه تعلم منها أن يكره كل ما هو أسود.

وأسلم مالكوم على هذه الأفكار، واتجه في سجنه إلى القراءة الشديدة والمتعمقة، وانقطعت شهيته عن الطعام والشراب، وحاول أن يصل إلى الحقيقة، وكان سبيله الأول هو الاعتراف بالذنب، ورأى أنه على قدر زلته تكون توبته.

## ـ أمة الإسلام.. والعنصرية السوداء:

وراسل مالكوم إليجا محمد الذي كان يعتبر نفسه رسولاً، وتأثر بأفكاره، وبدأ يراسل كل أصدقائه القدامى في الإجرام ليدعوهم إلى الإسلام، وفي أثناء ذلك بدأ في تثقيف نفسه فبدأ يحاكي صديقه

القديم بيمبي، ثم حفظ المعجم فتحسنت ثقافته، وبدا السجن له كأنه واحة، أو مرحلة اعتكاف علمي، وانفتحت بصيرته على عالم جديد، فكان يقرأ في اليوم خمس عشرة ساعة، وعندما تُطفأ أنوار السجن في العاشرة مساءً، كان يقرأ على ضوء المصباح الذي في الممر حتى الصباح فقرأ قصة الحضارة وتاريخ العالم، وما كتبه الأسترالي مانديل في علم الوراثة، وتأثر بكلامه في أن أصل لون الإنسان كان أسود، وقرأ عن معاناة السود والعبيد والهنود من الرجل الأبيض وتجارة الرقيق، وخرج بآراء تتفق مع آراء إليجا محمد في أن البيض عاملوا غيرهم من الشعوب معاملة الشيطان.

وقرأ أيضاً لمعظم فلاسفة الشرق والغرب، وأعجب بسبينوزا، لأنه فيلسوف أسود، وغيّرت القراءة مجرى حياته، وكان هدفه منها أن يحيا فكرياً، لأنه أدرك أن الأسود في أميركا يعيش أصماً أبكماً أعمىً، ودخل في السجن في مناظرات أكسبته خبرة في مخاطبة الجماهير والقدرة على الجدل، وبدأ يدعو غيره من السجناء السود إلى حركة «أمة الإسلام» فاشتهر أمره بين السجناء.

## ـ الخروج من السجن:

خرج مالكوم من السجن سنة 1952م وهو ينوي أن يعمّق معرفته بتعاليم إليجا محمد، وذهب إلى أخيه في دترويت، وهناك تعلم قراءة الفاتحة وذهب إلى المسجد، وتأثر بأخلاق المسلمين، وفي المسجد استرعت انتباهه عبارتان: الأولى تقول: «إسلام= حرية، عدالة، مساواة»، والأخرى مكتوبة على العلم الأميركي، وهي: «عبودية= ألم، موت».

والتقى بإليجا محمد، وانضم إلى حركة «أمة الإسلام»، وبدأ يدعو الشباب الأسود في البارات وأماكن الفاحشة إلى هذه الحركة فتأثر به كثيرون، لأنه كان خطيباً مفوهاً ذا حماس شديد، فذاع صيته حتى أصبح في فترة وجيزة إماماً ثابتاً في مسجد دترويت، وأصبح صوته مبحوحاً من كثرة خطبه في المسجد والدعوة إلى «أمة الإسلام»، وكان في دعوته يميل إلى الصراع والتحدي، لأن ذلك ينسجم مع طبعه.

وعمل في شركة «فورد» للسيارات فترة ثم تركها، وأصبح رجل دين، وامتاز بأنه يخاطب الناس باللغة التي يفهمونها، فاهتدى على يديه كثير من السود، وزار عدداً من المدن الكبرى، وكان همه الأول هو «أمة الإسلام»، فكان لا يقوم بعمل حتى يقدر عواقبه على هذه الحركة.

وقد تزوج في العام 1958 ورُزق بثلاث بنات، أسمى الأولى عتيلة، على اسم القائد الذي نهب روما.

وفي نهاية عام 1959 بدأ ظهور مالكوم في وسائل الإعلام الأميركية كمتحدث باسم حركة «أمة الإسلام»، فظهر في برنامج بعنوان: «الكراهية التي ولدتها الكراهية»، وأصبح نجماً إعلامياً انهالت عليه المكالمات التلفونية، وكتبت عنه الصحافة، وشارك في كثير من المناظرات التلفزيونية والإذاعية والصحفية، فبدأت السلطات الأمنية تراقبه، خاصة بعد عام 1961. وبدأت في تلك الفترة موجة تعلم اللغة العربية بين أمة الإسلام، لأنها اللغة الأصلية للرجل الأسود.

كانت دعوة مالكوم في تلك الفترة تنادي بأن للإنسان الأسود حقوقاً إنسانية قبل حقوقه المدنية، وأن الأسود يريد أن يكرم كبني آدم، وألا يعزل في أحياء حقيرة كالحيوانات وألا يعيش متخفياً بين الناس.

### ـ الحج والتغير:

أدرك مالكوم أن الإسلام هو الذي أعطاه الأجنحة التي يحلِّق بها، فقرر أن يطير لأداء فريضة الحج في العام 1964، وزار العالم الإسلامي ورأى أن الطائرة التي أقلعت به من القاهرة للحج فيها ألوان مختلفة من الحجيج، وأن الإسلام ليس دين الرجل الأسود فقط، بل هو دين الإنسان. وتعلم الصلاة، وتعجب من نفسه كيف يكون زعيماً ورجل دين مسلم في حركة «أمة الإسلام» ولا يعرف كيف يصلي!!.

والتقى بعدد من الشخصيات الإسلامية البارزة، منها الدكتور عبد الرحمن عزام صهر الملك فيصل ومستشاره، وهزه كرم الرجل معه وحفاوته به.

وتأثر مالكوم بمشهد الكعبة المشرفة وأصوات التلبية، وبساطة وإخاء المسلمين، يقول في ذلك: «في حياتي لم أشهد أصدق من هذا الإخاء بين أناس من جميع الألوان والأجناس، إن أميركا في حاجة إلى فهم الإسلام، لأنه الدين الوحيد الذي يملك حل مشكلة العنصرية فيها». وقضى 12 يوماً جالساً مع المسلمين في الحج، ورأى بعضهم شديدي البياض زرق العيون، لكنهم مسلمون، ورأى أن الناس متساوون أمام الله بعيداً عن سرطان العنصرية.

وغيّر مالكوم اسمه إلى الحاج مالك شباز، والتقى بالمغفور له الملك فيصل الذي قال له: «إن ما يتبعه المسلمون السود في أميركا ليس هو الإسلام الصحيح»، وغادر مالكوم جدة في نيسان/أبريل عام 1964، وزار عدداً من الدول العربية والأفريقية، ورأى في أسبوعين ما لم يره في 39 عاماً، وخرج بمعادلة صحيحة هي: «إدانة كل البيض= إدانة كل السود».

وصاغ بعد عودته أفكاراً جديدة تدعو إلى الإسلام الصحيح، الإسلام اللاعنصري، وأخذ يدعو إليه، ونادى بأخوة بني الإنسان بغض النظر عن اللون، ودعا إلى التعايش بين البيض والسود، وأسس «منظمة الإتحاد الأفريقي ـ الأميركي»، وهي أفكار تتعارض مع أفكار أمة الإسلام، لذلك هاجموه وحاربوه، وأحجمت الصحف الأميركية عن نشر أي شيء عن هذا الاتجاه الجديد، واتهموه بتحريض السود على العصيان، فقال: «عندما تكون عوامل الانفجار الإجتماعي موجودة لا تحتاج الجماهير لمن يحرضها، وإن عبادة الإله الواحد ستقرب الناس من السلام الذي يتكلم الناس عنه ولا يفعلون شيئاً لتحقيقه».

### ـ اغتيال مالكوم إكس:

في إحدى محاضراته يوم الأحد 21 شباط/فبراير 1965 صعد مالكوم ليلقي محاضرته، ونشبت مشاجرة في الصف التاسع بين اثنين من الحضور، فالتفت الناس إليهم، وفي ذات الوقت أطلق ثلاثة أشخاص من الصف الأول 16 رصاصة على صدر هذا الرجل، فتدفق منه الدم بغزارة، وخرجت الروح من سجن الجسد.

وقامت شرطة نيويورك بالقبض على مرتكبي الجريمة، واعترفوا بأنهم من حركة «أمة الإسلام»، ومن المفارقات أنه بعد شهر واحد من اغتيال مالكوم إكس، أقر الرئيس الأميركي جونسون مرسوماً قانونياً أقرَّ فيه حقوق التصويت للسود، وأنهى الاستخدام الرسمي لكلمة «نجرو»، التي كانت تطلق على الزنوج في أميركا.

**ـ العقيدة الأليجية:**

هي إحدى الفرق الباطنية السائدة في الولايات المتحدة الأميركية التي مازالت تتبع منهج إليجا محمد.

**ـ التأسيس وأبرز الشخصيات:**

ولد مؤسسها لويس والكت من عائلة تشتغل بالتمثيل والغناء، وأصولها من جزر البحر الكاريبي.

في العام 1956 دخل فرقة إليجا محمد الذي ادعى النبوة، كما ادعى أن معلمه فرد محمد هو الله المتجسد. ولما فتح مالكوم معبد محمد للإسلام رقم 11 في بوسطن عين له لويس أكس واعظاً ومديراً.

ألَّف لويس أكس بعض الأغاني والمسرحيات التي عرضت في جميع المعابد لأهميتها في بيان تعاليم إليجا محمد مما أكسبه شهرة واسعة.

لما فصل إليجا محمد مالكوم أكس عين لويس في منصب الناطق الأول باسم الفرقة ولقبه بفراح خان ثم جعله واعظاً في أكبر

المعابد وأخطرها، معبد محمد للإسلام رقم 7 الذي كان يديره مالكوم قبل طرده.

ولكن بعد هلاك إليجا محمد وتولي ولاس الزعامة عزل فراح خان من جميع مناصبه وجعله في منصب صوري في شيكاغو، وأثناء هذه الفترة كان لويس ينكر نبوة إليجا محمد وألوهية فرد محمد تماشياً مع إنكار ولاس لهما.

ولكن فرح خان استقال من ذلك المنصب ومن الفرقة إثر انسحاب المتنبئ سايلس في عام 1977م.

عاد إلى نيويورك وجمع أتباعه السابقين تحت الدعوة إلى العودة إلى تعاليم إليجا الأصلية، وفتح له معابد في نيويورك وشيكاغو ولوس أنجلوس وجمع أتباعاً فيها. وجعل لويس فراح خان شيكاغو مركزاً رسمياً لفرقته، وأصدر جريدة «الفرقة» التي سماها «النداء الأخير»، لإعادة بناء أمة الإسلام بالعودة إلى تعاليم إليجا محمد.

أخذ فراح خان يتجول في الولايات المتحدة الأميركية لإلقاء المحاضرات في الجامعات والتحدث في جميع مناسبات السود وكثر ظهوره على التلفزيون والإذاعة.

ولما كانت دعوته إلى إعادة بناء منظمة إليجا «أمة الإسلام» وإحياء تعاليمه صافية خالية من دعاوى خاصة لنفسه ـ كما فعل المتنبئ سايلس فقد استجاب له معظم أفراد أسرة إليجا.

في العام 1981 أعاد نظام توزيع الأسماء المقدسة وافترض على الجميع أن يكتب كل شخص في الفرقة (رسالة المخلص) يشهد فيها أن لا إله إلا الله «الذي جاء في صورة السيد فرد محمد وأن المكرم إليجا محمد رسول الله». (على حسب زعمه).

اكتسب فراح خان شهرة كبيرة بمساندته للقس الأسود جاكسون في حملاته الانتخابية.

## ـ العقيدة الفراحانية:

ثبت فراح خان تعاليم إليجا محمد كلها، ما عدا تغييرات بسيطة، دأب أن يذكر في آخر صفحة من جميع أعداد جريدة الفرقة «النداء الأخير» بابين تحت عنواني ماذا يريد المسلمون وماذا يعتقد المسلمون؟!، يضمنها أهداف الفرقة الإليجية ومعتقداتها حرفياً كما كانت ترد في كل عدد من أعداد جريدة محمد يتكلم في عهد إليجا كما يذكر في كل عدد مقالات إليجا المنقولة من أعداد محمد القديمة.

## ـ بعض عقائد الإليجية الأساسية التي أحياها فراح خان:

ـ إن الله قد خلق نفسه.

ـ إن جميع السود آلهة ويولد بينهم إله مطلق كل 25 ألف سنة.

ـ أحد الآلهة السود المسمى يعقوب قد خلق الإنسان الأبيض نتيجة لبعض التجارب الوراثية.

ـ إن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم أرسل للعرب فقط وإليجا أرسله الله إلى سود أميركا وأنه آخر المرسلين.

- ويعتقد فراح خان أنه هو المقصود بالحواري بطرس المعروف في المسيحية ويعتقد أنه لا يملك قوة الإحياء ولكن بواسطة صوت إليجا محمد سوف يحيي الأمة بأسرها.
- الإنسان الأبيض شيطان.
- الإنسان الأسود هو الذي ألف جميع الكتب السماوية.
- معظم تعاليم القرآن موجهة إلى الرسول إليجا محمد والسود في أميركا.
- لا قيامة للأجساد بعد الموت، والبعث والقيام عبارة عن يقظة روحية لمن هم نيام من السود في قبور الأوهام ولا يتأتى ذلك إلا بمعرفة إليجا وإلهه والإيمان بهما.
- يقولون إذا كان العرب يعتقدون أن محمداً خاتم النبيين يقيناً، فيمكن نجتمع ونتناقش في الأدلة حتى نصل إلى كلمة سواء. إلا أنكم أيها العرب عنصريون ولم تتجاوزوا هذا الجانب من طبيعتكم التي تماثل طبيعة الإنسان الأبيض الذي هو شيطان، أنتم واليهود والبيض كلكم شياطين.

## - إضافات فراح خان:

أما معتقدات فراح خان الجديدة حول إليجا فإنه إله إليجا كما إله المسيحيين عيسى، بل ادعى فراح أن إليجا هو عيسى المسيح.

## - خطبة مالكوم إكس في الكنيسة المعمدانية الحبشية:

حضرات الضيوف الكرام، والأخوة والأخوات والأصدقاء بل والأعداء أيضاً، بصفتي إماماً ومن أتباع المبجل إليجا محمد،

وهو مبعوث الله إلى من يسمون بالزنوج الأميركيين. أعرب عن سعادتي التامة لتلبية الدعوة للحضور إلي هذه الأمسية في الكنيسة المعمدانية الحبشية لكي أعرض أراء المبجل محمد حول هذا الموضوع الملح ألا وهو: ثورة السود.

لكن هناك أولاً بعض الأسئلة التي علينا أن نضعها أمامكم. لما كانت جماهير السود هنا في أميركا منخرطة الآن في تمرد مفتوح ضد نظام الفصل العنصري الأميركي، فهل ستتوجه هي ذاتها إلى الاندماج العرقي أم إلى الانفصال الكامل؟

هل ستطالب جماهير السود المستضعفة هذه بالاندماج في مجتمع البيض الذي استبعدهم، أم ستطالب بالانفصال الكامل عنهم؟

تلك هي فقط بعض الأسئلة السريعة التي اعتقد أنها تستثير بعض الأفكار في عقولكم وفي عقلي، فكيف يستطيع من يسمونه بقائد الزنوج والذين يدعون أنفسهم قادة متنورين أن يتوقعوا من النعاج السوداء الفقيرة أن تندمج في مجتمع الذئاب البيضاء المتعطشة للدماء، والتي ما انعكفت تمتص دمنا ما يزيد من أربعمائة عام هنا في أميركا؟

هل ستثور هذه النعاج السوداء أيضاً ضد الراعي الزائف أو القائد الزنجي المختار الشبيه بالعم توم، وتسعى إلى الانفصال الكامل لكي ننجو من وكر الذئاب بدلاً من أن نندمج مع هذه الذئاب في وكرها ذاك؟

ولأننا موجودون الآن في كنيسة، وأكثرنا هنا يقرون في الإيمان بالله، فثمة سؤال آخر: حين يأتي الراعي الصالح - أي المسيح - هل سيدمج نعاجه الضالة منذ زمن بعيد في الذئاب البيض؟

فوفقاً للكتاب المقدس لن يدع الرب حين يأتي إلى الأرض نعاجه تندمج مع الماعز، ولئن لم تكن النعاج آمنة بالاندماج في الماعز فإنها لن تكون آمنة بالاندماج في الذئاب إن المبجل إليجا محمد يعلمنا أن ليس هناك شعب في الأرض تنطبق عليه الصورة الرمزية عن النعجة الضالة في الكتاب المقدس بأكثر مما تنطبق علي ما يسمى بالزنوج العشرين مليوناً في أميركا، كما لم يكن في التاريخ قط ذئب أكثر شراسة وتعطشاً للدم من الرجل الأبيض الأميركي.

لقد نظر المسيح قبل ألفي عام إلى ما وراء الزمن ورأى بلاءكم وبلائي هنا اليوم وعلم أن قرارات الدمج العنصري الخادعة وقرارات المحكمة العليا المخادعة سوف تهددكم لكي تذهبوا في سبات أعمق، وعلم أن الوعود المخادعة للسياسيين المنافقين حول تشريعات الحقوق المدنية لن تكون مصممة إلا لكي تجعلكم تتقدمون من عبودية قديمة إلى عبودية عصرية.

ولكن يسوع تنبأ حينها حقاً بأنه عندما يأتي إيليا بقوة الحقيقة وروحها فإنه سيعلمكم الحقيقة، ويقودكم بالحقيقة، ويحميكم بالحقيقة، ويجعلكم أحراراً بالفعل. ويا أيها الإخوة والأخوات، إيليا ذاك الذي قال يسوع أنه سيأتي قد أتى وهو اليوم في أميركا في شخص المبجل إليجا محمد.

## ـ الانفصال ودور الحكومة:

يقول المبجل إليجا محمد إن الحل الدائم الوحيد هو الانفصال الكامل على قطعة من الأرض يمكننا أن نقول أنها تخصنا.

ولهذا يقول أن من الممكن حل هذه المشكلة، وحلها إلى الأبد بمجرد إعادتنا إلى وطننا الأصلي أو إلى شعبنا، ولكن على هذه الحكومة أن تؤمن لنا الانتقال بالإضافة إلى كل ما نحتاجه لكي نتمكن من البدء من جديد في بلدنا الخاص بنا على هذه الحكومة أن تزودنا بكل ما نحتاجه من آلات ومواد وتمويل يكفينا عشرين أو خمسة وعشرين عاماً حتى نصبح شعباً مستقلاً وأمة مستقلة على أرضنا الخاصة بنا.

وهو يقول إنه إذا كانت الحكومة الأميركية خائفة من إعادتنا إلى بلادنا وإلى شعبنا فعليها أن تحجز لنا منطقة مفصولة هنا في النصف الغربي من الكرة الأرضية، حيث يستطيع العرقان العيش منفصلين واحدهما عن الآخر، إذ أنه لا يمكننا العيش بسلام ما دمنا معاً. ويقول المبجل إليجا محمد إن مساحة هذه المنطقة يمكن أن تحدد بناءً على تعدادنا السكاني فإذا كان سبع سكان هذا البلد من السود كان عليكم إعطاؤنا سبع الأرض، سبع البلد، ونحن بهذا لا نطلب الكثير، إذ أننا قد عملنا للرجل الأبيض أربعمائة عام ويقول كذلك إنها يجب ألا تكون في الصحراء، بل حيث يكون المطر الغزير والكثير من الثروات المعدنية.

فنحن نريد أرضاً خصبة ومنتجة يمكننا أن نزرعها بحيث تزود شعبنا بالغذاء والكساء والمسكن.

وخلاصة لما سلف فإنني أكرر: لا نريد أي شكل من الاندماج في هذا العرق الشرير من الشياطين.

ويقول إليجا محمد أيضاً إنه يجب ألا يتوقع أحد منا أن نغادر أميركا صفر اليدين.

فبعد أربعمائة عام من العبودية هناك دفعات مستحقة لنا: فاتورة هم (البيض) مدينون لنا بها ويجب أن تدفع.

فإذا كانت حكومة أميركا نادمة حقاً على ذنوبها ضد شعبنا وتريد أن تكفر عن ذنوبها بإعطائنا حصتنا الحقيقية من الأرض والثروات لاستطاعت أميركا أن تنقذ نفسها، ولكن إذا انتظرت أن يأتي الله ويجبرها على تسوية عادلة، فإن الله سيأخذ هذه القارة بكاملها من الرجل الأبيض، ويقول الكتاب المقدس إن الله حينها سيعطي المملكة لمن يشاء!

**ـ بلاغ إلى القاعدة الشعبية، ديترويت 1963:**

نريد أن نتحدث معكم حديثاً من غير تكلف، حديثاً علمياً وبلغة يستطيع أي كان أن يفهمها بسهولة. لقد اتفقنا جميعاً في هذه الليلة على أن لدى أميركا مشكلة خطيرة جداً. وليست أميركا وحدها من يعاني مشكلة بل شعبنا أيضاً لديه مشكلة خطيرة جداً.

إن مشكلة أميركا هي نحن، والسبب الوحيد في أن لديها مشكلة هو أنها لا تريدنا هنا. نحن جميعاً رجال سود، أو ما يسمى بالزنوج. ونحن كلنا مواطنون من الدرجة الثانية، سابقون.

أنت لست سوى عبد سابق، أنت لا ترغب في سماع هذا، ولكن ماذا تراك تكون غير ذلك؟

أنتم عبيد سابقون. أنتم لم تأتوا إلى هنا على متن «ماي فلاور» بل على متن سفينة عبيد، مغللين بالسلاسل مثل حصان أو بقرة أو دجاجة.

وجُلبتم بواسطة الناس الذين أتوا على متن «ماي فلاور» جلبتم إلى هنا بواسطة ما يسمى بالحجاج أو «الآباء المؤسسين»! نحن لدينا عدو مشترك: لدينا مضطهد مشترك مستغل مشترك مميز عنصري مشترك.

ولكن ما أن نتبين كلنا أن لدينا عدواً مشتركاً فسنقوم بالإتحاد على أساس ما هو مشترك بيننا. وأهم ما نشترك فيه ذلك العدو، الرجل الأبيض، فهو عدو لنا جميعاً.

أنا أعلم أن بعضكم يعتقد أن بعضهم ـ البيض ـ ليسوا أعداء لنا، ولكن الزمن سيكشف خطأ هذا الاعتقاد.

في باندونغ، وأعتقد أن ذلك كان في العام 1954 حدث أول إجتماع توحيدي منذ قرون للشعوب السوداء وعندما تدرسون ما حدث في مؤتمر باندونغ، ونتائج مؤتمر باندونغ، فإن ذلك سيشكل نموذجاً للمنهج الذي نستطيع أنا وأنتم أن نتبعه من أجل حل مشكّلتنا.

ففي باندونغ اجتمعت كل الأمم والشعوب السمراء من أفريقيا وآسيا، وكان بعضهم بوذيين، وبعضهم مسلمين، وبعضهم

مسيحيين، وبعضهم كونفوشيسيين، وبعضهم ملحدين، وبعضهم كانوا شيوعيين، وبعضهم إشتراكيين، وبعضهم رأسماليين. ولكنهم تآزروا رغم اختلافاتهم الإقتصادية والسياسية وكانوا كلهم سوداً أو سمراً أو حمراً أو صفراً.

## ـ العنف واللاعنف:

أرغب أن أطرح بضع ملاحظات تتعلق بالفرق ما بين السود وثورة الزنوج. فهل هما شيء واحد؟ وإن لم يكونا كذلك فما هو الفرق بينهما؟

أولاً: ما هي الثورة؟

أميل إلى الاعتقاد أحياناً أن الكثير من أفراد شعبنا يستخدمون كلمة ثورة برخاوة ودون تمعن دقيق في ما تعنيه هذه الكلمة فعلاً وما هي خصائصها التاريخية.

حين تدرس الطبيعة التاريخية للثورات، ودوافع الثورات، وأهداف الثورات، ونتائج الثورات، والأساليب التي اتبعت في الثورات، فإنك قد تغير من استخدامك لهذه الكلمة، وربما ابتكرت برنامجاً آخر، أو غيرت هدفك، أو غيرت رأيك. أنظر إلى الثورة الأميركية عام 1776.

لأي سبب كانت تلك الثورة؟ الأرض؟ لماذا أرادوا الأرض؟ لأجل الإستقلال.

وكيف تم تنفيذها؟ بسفك الدماء؟ والثورة الفرنسية علام استندت؟ هناك ثار المحرومون من الأرض ضد مالكي الأرض.

وما كان هدفها؟

الأرض.

وكيف حصلوا عليها؟

بسفك الدماء.

لم يكن هناك إعتبار للعواطف، ولم تكن هناك تسويات، ولم تكن هناك مفاوضات. ها أنا ذا أخبركم: أنتم لا تعرفون ما هي الثورة، لأنكم عندما تكتشفون ما هي فسترجعون إلى أزقتكم وتتنحون عن الطريق!

والثورة الروسية، علام استندت؟

على الأرض، المحرومون من الأرض ضد مالكي الأرض.

وكيف حققوا ثروتهم؟

بسفك الدماء. لم تحدث ثورة بدون سفك دماء.

وأنتم تخافون أن تنزفوا.

ها أنا ذا أقول: إنكم تخافون أن تنزفوا!

حين أرسلكم الرجل الأبيض إلى كوريا للحرب نزفتم.

وأرسلكم إلى ألمانيا فنزفتم، وأرسلكم على جنوبي المحيط الهادي لقتال اليابانيين فنزفتم.

أنتم تنزفون من أجل الشعب الأبيض! ولكن حين ترون كنائسكم تفجر بالقنابل وتقتل بنات سوداوات صغيرات، فإنكم لا تقدّمون أي نقطة دم!

أنتم تنزفون حين يقول الرجل الأبيض: انزفوا، وأنتم تعضون عندما يقول الرجل الأبيض عضوا، وأنتم تنبحون عندما يقول الرجل البيض انبحوا. أنا أكره أن أقول ذلك عنا، ولكن تلك هي الحقيقة.

كيف لكم أن تكونوا لاعنفيين في الميسيسيبي وقد كنتم عنفيين في كوريا؟

كيف يمكنكم أن تبرروا لاعنفكم في الميسيسيبي وألاباما عندما تفجر كنائسكم بالقنابل وتقتل بناتكم الصغيرات، وتكونون عنيفين في الوقت ذاته مع هتلر وتوجو وأشخاص آخرين قد لا تعرفونهم قط؟!

إذا كان العنف خطأ في أميركا، فهو خطأ أيضاً في الخارج، وإذا كان من الخطأ أن تكون عنيفاً في الدفاع عن النساء السوداوات والأطفال السود والرجال السود، فإن من الخطأ أن تجندنا أميركا وتجعلنا عنيفين في الخارج دفاعاً عنها. وإذا كان لأميركا أن تجندنا وتعلمنا كيف نكون عنيفين دفاعاً عنها، فإنه يحق لكم ولي أن نفعل كل ما هو ضروري لكي ندافع عن شعبنا هنا في هذا البلد!

ويذكر مالكوم بعد ذلك الثورة الصينية، والكينية، والجزائرية، وكلها انتصرت بحسب تأكيده، بالثورة والدم، ثم يقول: «لقد ذكرت تلك الثورات المختلفة، أيها الإخوة والأخوات، لأبين لكم أن ليس ثمة ثورة سلمية، وليس ثمة ثورة تدير فيها الخد الآخر.

لا وجود لشيء يدعى ثورة اللاعنفي الوحيد من الثورات هو ثورة الزنوج، الثورة الوحيدة التي تهدف على أن تحب عدوك هي ثورة الزنوج! إنها الثورة الوحيدة التي هدفها الاندماج العرقي

على طاولات المطاعم، والاندماج العرقي في المسارح، والاندماج العرقي في الحدائق والاندماج العرقي في المراحيض العامة. لك أن تجلس إلى شخص أبيض في مرحاض! ولكن هذا ليس بثورة، بل إن الثورة تستند إلى الأرض، والأرض هي أساس كل إستقلال، الأرض هي أساس الحرية والعدالة والمساواة.

كل الثورات التي تحدث الآن في آسيا وأفريقيا مستندة إلى ماذا؟

إلى قومية السود.

إن الثأر لهو قومي أسود لأنه يريد بناء أمة.

لقد كنت أقرأ كلاماً للقس كليج، وفيه أشار إلى أنه لم يستطع الإجتماع مع أحد في المدينة لأن الناس خافوا من أن يرتبط اسمهم بالقوميين السود.

إذا كنت خائفاً من قومية السود فأنت خائف من الثورة، وإذا كنت تحب الثورة فأنت تحب قومية السود.

## ـ زنجي المنزل وزنجي الحقل:

ولكي نفهم ذلك علينا أن نعود إلى ما ذكره المتحدث الشاب الذي سبقني، عن زنجي المنزل وزنجي الحقل أثناء فترة العبودية، فقد كان هناك نوعان من العبيد: زنوج المنازل وزنوج الحقول.

أما زنوج المنازل فقد كانوا يعيشون في منازل الأسياد، وكانوا يلبسون ملابس جيدة ويأكلون طعاماً جيداً لأنهم كانوا يأكلون طعام السيد، أي مما يتبقي منه. وكانوا يعيشون في علية البيت أو الطابق

التحتاني، ولكنهم كانوا يعيشون ـ مع ذلك ـ بالقرب من السيد، وقد أحبوا السيد أكثر مما كان السيد يحب نفسه.

وكانوا على استعداد للتضحية بحياتهم لإنقاذ منزل السيد، بل كانوا في ذلك أسرع من السيد نفسه.

إذا قال السيد: «لدينا منزل جديد هنا»، كان زنجي المنزل يقول: «نعم لدينا منزل جديد هنا».

إذا نشبت النيران في منزل السيد كان زنجي المنزل يكافح الحريق بأقوى مما يكافح السيد نفسه، وإذا مرض السيد كان زنجي المنزل يقول: «ما الأمر أيها السيد، أنحن مرضى؟».

إذاً نحن مرضى! لقد تماهى الزنجي مع السيد بأكثر مما تماهى السيد مع نفسه! وإذا أتيت إلى زنجي المنزل وقلت له:

«هيا نهرب ولننج بأنفسنا، فلننفصل بأنفسنا عن البيض نظر إليك وقال:

ويحك يا رجل! هل جننت؟ ماذا تعني بالانفصال؟ وأين نجد بيتاً أفضل من هذا؟

أين يمكنني أن ألبس ملابس خيراً من هذه؟ وأين أستطيع أن آكل طعاماً خيراً من هذا»؟

هكذا كان زنجي المنزل house negro، وكان يدعى في تلك الأيام «عبد المنزل house niger» إنه ازدراء، وهذا ما ندعوهم به لأنه ما زال بيننا عبيد منازل يركضون من حولنا!

زنجي المنزل العصري هذا يحب سيده ويرغب في أن يعيش

بالقرب منه، وهو على استعداد لأن يدفع ثمن منزل بثلاثة أضعاف ما يستحقه لكي يعيش بالقرب من سيده، وبعد ذلك يأخذ بالتباهي:

«أنا الزنجي الوحيد الذي يعيش هنا وأنا الزنجي الوحيد في عملي وأنا الزنجي الوحيد في تلك المدرسة»، لكنك لست إلا زنجي منزل!

وإذا أتاك أحدهم الآن وقال هيا ننفصل عن الأسياد البيض قلت ما كان يقوله زنجي المنزل في مزارع العبيد». وماذا تراك تعني بالانفصال؟

عن أميركا، عن هذا الرجل الأبيض الطيب؟ وأين لك أن تحصل لي على عمل أفضل من عملي هنا؟

ولقلت أيضاً أنا لم أترك خلفي شيئاً في أفريقيا. بلى يا صاح لقد تركت عقلك هناك!

في مزرعة العبيد ذاتها كان هناك أيضاً زنجي الحقل field negro وزنوج الحقول هؤلاء كانوا الجماهير. وكانوا يفوقون زنوج المنازل قهراً. كان زنوج الحقول يلقون العذاب، ويأكلون بقايا الطعام. حين تشب النيران في منزل السيد، لم يكونوا يحاولون إطفاء اللهب، بل كانوا يصلّون لكي تهب الرياح، وعندما يمرض السيد كان زنجي الحقل يصلي لموته، وإذا أتى أحدهم زنجي الحقل وقال له «هيا نهرب، فلننفصل عن البيض»، فإنه لم يكن ليقول لي أين نذهب؟ بل إن أي مكان لهوَ أفضل من هنا ونحن لدينا زنوج حقول.

في أميركا اليوم أنا زنجي حقل، الجماهير زنوج حقول، وعندما يرون بيت الرجل الأبيض يشتعل لا تسمعهم يقولون حكومتنا بل يقولون الحكومة. تخيلوا زنجياً يقول حكومتنا بل قد سمعت أحدهم يقول: «رجالنا ورواد الفضاء، هذا الزنجي لا يسمحون له بالاقتراب من المصنع لكنه يقول مع ذلك بحريتنا، إن الزنجي قد فقد عقله، إنه لزنجي مجنون.

وكما استخدم سيد العبيد في تلك الأيام زنجي المنزل، العم توم لضبط زنوج الحقل، فإن سيد العبيد ذاته في هذا العصر يمتلك زنوجاً ليسوا إلا أعمام توم العصريين، أعمام توم القرن العشرين، وغايتهم إبقاءنا تحت الرقابة وإبقاءنا تحت السيطرة، وإبقاءنا سلبيين وسلميين ولاعنفيين. إن العم توم هو الذي جعلكم لاعنفيين. إن الأمر ليشبه الذهاب إلى طبيب الأسنان، الطبيب يريد اقتلاع سنك فتبدأ أنت بمقاومته حين يبدأ بالشد، فيحقن شيئاً في فكك يدعى نوفوكين (وهو مخدر موضعي) ليحملك على الاعتقاد بأنه لا يفعل بك شيئاً، فتجلس هناك، وتعاني ـ بسلام ـ لأن كل ذلك النوفوكين يسري في فكك. الدم يجري على عرض وجهك وأنت لا تعلم ما يحدث، لأن ثمة من لقَّنك أن تعاني بسلام! إن الرجل الأبيض يفعل بكم في الشوارع المرّ عينه عندما يريد أن يضللكم ويستغلكم دون أن يخشى مقاومتكم. ولكي يفعل ذلك يأتيكم بأعمام توم، أولئك الشيوخ المتدينين، لكي يعلموني أن أعاني بسلام تماماً مثل النوفوكين. ليس هناك في كتابنا، القرآن الكريم شيء يعلمنا أن نعاني بسلام. بل إن ديننا يعلمنا أن نكون أذكياء، وأن نكون مسالمين وأن نكون صالحين، وأن نطيع القوانين، وأن نحترم كل

الناس. إن ديننا دين جيد، إنه دين الأيام السالفة الذي كانت أمي وكان أبي يتحدثان عنه، العين بالعين، والسن بالسن، والرأس بالرأس، والنفس بالنفس.

إن ذلك لدين جيد حقاً وليس ثمة من يمتعض من تعلم مثل هذا الدين سوى ذئب يعتزم أن يجعلك وجبة له! هذا هو واقع الحال مع الرجل الأبيض في أميركا إنه ذئب وإنكم لنعاج وكلما علمكم وعلمني راعٍ أو قس ألا نهرب من الرجل الأبيض وألا نقاتل الرجل الأبيض في الوقت ذاته فإنه يخونكم.

لا تهدروا حياتكم هباءً بل حافظوا عليها، فإنها أثمن شيء لديكم ولئن كان عليكم أن تضحوا بها فلتكن نفساً بنفس!

**ـ تآمر قادة اللاعنف:**

أرغب في أن أشير سريعاً إلى أمر آخر، وهو الوسيلة التي يستخدمها الرجل الأبيض، وكيف يستخدم الأسلحة الفتاكة أو قادة للزنوج ضد ثورة الزنوج. إن هؤلاء القادة ليسوا جزءاً من ثورة الزنوج، بل هم يستخدمون ضدها، فعندما أخفق مارتن لوثر كنغ الابن في دمج مدينة ألبنى في ولاية جورجيا عرقياً وصل النضال حركة الحقوق المدنية في أميركا إلى أدنى المستويات، وأفلس كنغ كقائد تقريباً، ووقّع «مؤتمر القادة المسيحية الجنوبية» في ضائقة مالية. وغداً قادة زنوج آخرون من حركة الحقوق المدنية، ممن يزعم أنهم ذوو مكانه على المستوى القومي، أوثاناً محطمة، وراحوا يفقدون هيبتهم وتأثيرهم، وأخذ قادة الزنوج في الأحياء الشعبية يثيرون الجماهير في أجزاء كثيرة من البلاد. وهذا ما لم يفعله

قادة الزنوج ذوو المكانة على المستوي القومي، إن هؤلاء القادة يسيطرون عليكم ولكنهم لم يحرضونكم أو يستثيروكم أبداً، إنهم يسيطرون عليكم ويحتوونكم لقد أبقوكم في مزرعة العبيد! ما إن أخفق كنغ في بيرمنجهام حتى نزل إلى الشوارع، ثم ذهب إلى كاليفورنيا للمشاركة في مسيرة حاشدة، وجمع التبرعات التي بلغت الألوف من الدولارات لا أعلم مقدارها، ثم ذهب إلى ديترويت وأقام مسيرة أخرى وجمع ألوفاً أخرى من الدولارات.

تذكروا أنه بعد المسيرة مباشرة قام روي ويلكنز بمهاجمة كنغ واتهمه هو و«مجلس المساواة العراقية» بإثارة المشاكل في كل مكان ومن ثم حمل «المؤسسة القومية لتقدم الملونين» على إخراجهم من السجن وصرف الأموال الطائلة لهذا الغرض، ثم اتهم كنغ ومنظمته بأنهم يجمعون التبرعات ولا يصرفونها في أعمال النضال.

لقد حدث هذا وأستطيع أن أقدم لكم أدلة موثقة من الصحف. فقد بدأ روي بمهاجمة كنغ، وأخذ كنغ بمهاجمة روي، ثم قام فارمر بمهاجمتهما كليهما. وما أن أخذ قادة الزنوج هؤلاء ذوو المكانة على المستوى القومي بمهاجمة واحدهم الآخر حتى راحوا يفقدون سيطرتهم على الجماهير الزنوج.

نزل الزنوج إلى الشوارع، وأخذوا يتحدثون عن الذهاب إلى واشنطن. وفي ذلك الوقت كانت بيرمنجهام قد انفجرت وانفجر الزنوج في بيرمنجهام أيضاً، تذكروا ذلك!

وحينها أرسل الرئيس كينيدي جنوداً إلى بيرمنجهام، ثم ظهر على شاشة التلفزيون وقال: «هذه قضية أخلاقية» وقال أنه سيقدم

تشريعاً للحقوق المدنية. وحين ذكر تشريع الحقوق المدنية وبدأ العنصريون الجنوبيون يتحدثون عن عزمهم على مقاطعة التشريع أو تعطيله، بدأ الزنوج يتحدثون. . عن ماذا؟

عن أنهم سيسيرون إلى واشنطن، ويسيرون إلى الكونغرس ليعطلوه ويمنعوا الحكومة من العمل. بل إنهم تحدثوا عن عزمهم على الذهاب إلى المطار والاستلقاء على المدرجات ومنع الطائرات من الهبوط. ها أنا ذا أخبركم بما كانوا يتحدثون عنه. لقد كانت حقيقة، تلك كانت ثورة السود الحقيقية.

لقد نزلت القاعدة الشعبية إلى الشوارع، وأخافت الرجل الأبيض خوفاً مميتاً وأخافت هيكل السلطة البيضاء في واشنطن خوفاً مميتاً. لقد كنت هناك وشهدت الأمور بأم العين. وعندما علموا أن قوة السود الساحقة قد ذهبت إلى واشنطن، قاموا بدعوة ويلكنز ودعوا راندولف وقادة الزنوج أولئك الذين تحترمونهم، وقالوا لهم: «أوقفوا هذا» وقال كينيدي «انظروا، أنتم جميعاً تنحون بالأمور منحىً خطيراً».

وعندما قال العم توم العجوز: «يا سيادة الرئيس، أنا لا أستطيع إيقاف ما حدث، لأنني لست أنا من بدأه». ها أنا أخبركم بما قالوه. لقد قال توم العجوز أنا لست مشاركاً في الأمر أصلاً، وأنا لست بالتأكيد على رأس التحركات، وقال هؤلاء الزنوج يفعلون ما يحلو لهم، وهم يتقدموننا. وحينها قال الثعلب الداهية كينيدي: إذا كنتم جميعاً غير مشاركين في الأمر، فأنا سأدخلكم فيه، بل أنا سأضعكم على رأسه، وسأؤيده وأرحب به، وأدعمه وأنضم إليه.

ولم تمض ساعات حتى عقدوا إجتماعاً في مدينة نيويورك، وفي فندق كارلايل الذي تمتلكه عائلة كندي، وهناك قامت جمعية خيرية يرأسها رجل أبيض يدعى ستيفن كوريير بدعوة كل كبار قادة حركة الحقوق المدنية إلى الإجتماع في فندق كارلايل، وقال لهم: إنكم بشجاركم تدمرون حركة الحقوق المدنية، ولأنكم تتشاجرون بسبب المال الذي يقدمه التحرريون البيض فلنشكل ما يسمى بالمجلس المتحد لقيادة حركة الحقوق المدنية.

دعونا نشكل هذا المجلس ونجعل كل فرق حركة الحقوق المدنية تنضوي تحته، وسنستخدمه لجمع التمويل. ولكن دعوني أبين لكم شدة مكر الرجل الأبيض: فما إن شكلوا ذلك المجلس حتى انتخبوا ويتني يونغ رئيساً، ومن تراه كان الرئيس الآخر في اعتقادكم؟ لم يكن ستيف كوريير، ذلك الرجل الأبيض المليونير.

ومارتن لوثر كنغ يعرف أن ذلك هو ما حدث، وكل شخص من الستة الكبار في السود يعرف أن ذلك هو ما قد حدث.

ما إن تم تشكيل المجلس، والجل الأبيض على رأسه، حتى قام هذا بإغداق الوعود وقدم 800 ألف دولار لكي يقتسمها الستة الكبار فيما بينهم، وأخبرهم أنه بعد القيام بالمسيرة في واشنطن لهم 700 ألف دولار أخرى. والمجموع مليون ونصف مليون دولار، لكي يقتسمها القادة الذين كنتم تتبعونهم وتذهبون إلى السجون من أجلهم وتذرفون دموع التماسيح من أجلهم.

وعندما تم تنظيم الأوضاع، أمن لهم الرجل الأبيض أفضل الخبراء في العلاقات العامة، ووضع كافة وسائل الإعلام في طول البلاد وعرضها تحت تصرفهم، فأخذت تُبرز هؤلاء القادة الستة الكبار بوصفهم قادة المسيرة، مع أنهم في الأصل لم يكونوا مجرد مشاركين فيها!

وأول حركة قام بها البيض بعد الاستيلاء على المسيرة هي دعوة والتر روثر ـ وهو رجل أبيض ـ ودعوة قسيس وحاخام ومبشِّر عجوز أبيض، لقد دعوا العناصر البيضاء عينها التي وضعت كينيدي في السلطة ـ من الحركات العمالية والكاثوليك واليهود والبروتستانت التحرريين، وهذه الزمرة التي وضعت كينيدي في السلطة هي عينها التي انضمت إلى المسيرة في واشنطن.

إن الأمر يشبه أن تكون لديك قهوة شديدة السواد، أي شديدة القوة. فماذا تفعل؟ تقوم بمزجها ببعض الحليب، فتضعفها ولكنك إذا صببت فيها حليباً أكثر مما ينبغي فلن تعرف أن ما تشربه قهوة. فقد كانت ساخنة فأصبحت باردة، وكانت قوية فأصبحت ضعيفة وكانت توقظك في السابق وتنشطك ولكنها الآن تدفعك إلى النوم! وهذا ما فعلوه بالمسيرة إلى واشنطن: لقد انضموا إليها، وهم لم يدمجوها بل اخترقوها.

انضموا إليها وأصبحوا جزءاً منها واستولوا عليها، ففقدت ميزتها القتالية وتوقفت عن أن تكون غاضبة وتوقفت عن أن تكون حارّة، وتوقفت عن أن تكون غير مساومة. بل توقفت عن أن تكون مجرد مسيرة، وأصبحت نزهة أو سيركاً..

ولقد قمتم بسيرك كهذا ههنا في ديترويت وشاهدناه على التليفزيون وكان يقوده مهرجون سود. أنا أعلم أنكم لا تحبون سماع ما أقوله، ولكنني سأقوله على أي حال، لأنني أستطيع إثبات أقوالي. وإذا اعتقدتم أن ما أقوله غير صحيح فاحضروا مارتن لوثر كنغ وفيليب راندولف وجيمس فارمر والثلاثة الآخرين، ولتروا بأنفسكم إن كان باستطاعتهم إنكار ذلك أمام الميكرفون. جوائز الأوسكار لا، لقد كانت خيانة، كانت استيلاء.

وعندما جاء جايمس بالدوين من باريس لم يسمحوا له بالحديث، لأنه لم يكن بإمكانهم إلزامه بالنص. لقد سيطروا على المسيرة بشدة.

فأملوا على أولئك الزنوج الوقت الذي يمكنهم فيه دخول المدينة، وكيفية الوصول، وأماكن الوقوف، واليافطات التي سيحملونها، والأغاني التي سيغنونها، والخطب التي يمكنهم إلقاؤها، والخطب التي لا يمكنهم إلقاؤها. وبعد ذلك أخبرهم بأن عليهم الخروج من المدينة قبل مغيب الشمس. وقد غادر كل أعمام توم أولئك المدينة قبل غروب الشمس فعلاً.

لقد كانت المسيرة عبارة عن سيرك أو عرض تمثيلي يتفوق على كل ما تنتجه هوليود على الإطلاق. كانت فيلم السنة المميز، ومن الواجب إعطاء والتر روثر وأولئك الشياطين الثلاثة الآخرين - البيض - جائزة الأوسكار عن أحسن تمثيل لأنهم مثلوا دور محبي الزنوج وأقنعوا به عدداً كبيراً من الزنوج. وأما قادة الزنوج الستة فيجب أن يحصلوا هم أيضاً على جائزة الأوسكار، ولكن عن الأدوار الثانوية!

**ـ إما ورقة الاقتراع وإما رصاصة: كليفلاند 3 نيسان/أبريل 1964.**

إن السؤال المطروح اليوم، وكما أفهمه، هو ثورة الزنوج إلى أين نذهب من هنا؟ أو ماذا بعد؟

وبطريقتي المتواضعة في فهم هذا السؤال فإن الأمر يدفعنا إما إلى الاقتراع وإما إلى الرصاصة...

كلنا عانينا في البلد القمع السياسي على يد الرجل الأبيض، والاستغلال الإقتصادي على يد الرجل الأبيض والتفسخ الإجتماعي على يد الرجل الأبيض.

إذ أتحدث على هذا النحو فأنني لا أعني أننا ضد البيض، بل يعني أننا ضد الاستغلال وضد التفسخ الإجتماعي وضد القمع. وإذا أرادنا الرجل الأبيض ألا نكون ضده، فعليه التوقف عن قمعنا واستغلالنا سواء أكنا مسيحيين أم مسلمين أم قوميين أم لا إراديين أم ملحدين، فإن علينا أولاً أن نتعلم أن ننسى خلافاتنا.

وإذا اختلفنا فلنختلف في السر وحين نظهر على الملأ فيجب ألا يكون لدينا ما نختلف حوله على الإطلاق إلى أن ننهي خلافنا مع الرجل الأبيض. وإذا استطاع الرئيس الراحل كينيدي أن يلتقي بخروتشيف ويتبادلان القمح فإن ما بيننا ما هو أعظم مما كان بينهما.

**ـ الجمهوريون والديمقراطيون:**

أنا لست سياسياً ولا مجرد تلميذ في السياسة. أنا لست من أنصار الحزب الديمقراطي، ولا من أنصار الحزب الجمهوري، بل إنني لا أعتبر نفسي أميركياً.

فلو كنا أنا وأنتم أميركيين لما كانت ثمة أية مشكلة. أولئك المتحدرون من أوروبا الوسطى أو الشرقية الذين نزلوا لتوهم من السفينة زمن الهجرة إلى العالم الجديد أميركيون والمتحدرون من بولندا أميركيون. والمهاجرون الإيطاليون أميركيون. كل شيء يأتي من أوروبا كل شيء أزرق العينين، يغدو أميركياً.

وعلى الرغم من وجودنا العريق أنا وأنتم في هذه البلاد فإننا ما زلنا غير أميركيين بعد! حسناً أنا لا أؤمن بخداع النفس. لن أجلس أمام المائدة وأراقبك تأكل دون أن يكون ثمة شيء في صحني، ثم أدّعي أنني متغذٍ أو متعشٍ!

لا، أنا لست أميركياً. بل أنا واحد من 22 مليون أسود يشكلون ضحايا الأمركة. واحد من 22 مليون أسود من ضحايا الديمقراطية التي لا تعدو أن تكون نفقاً مقنعاً.

ولهذا لا أقف أمامكم هنا لأتحدث إليكم بوصفي أميركياً أو وطنياً أو محيياً للعلم أو شوفينياً مغالياً في حب الوطن.

لا، هذا ما لا يمكن أن أفعله. وإنما أتحدث إليكم كضحية من ضحايا هذا النظام الأميركي وإنني لأرى أميركا بعيني الضحية.

أنا لا أرى أي حلم أميركي، بل الحق أنني أرى كابوساً أميركياً! ها هم أولئك الضحايا الـ 22 مليون يستيقظون، وها هي عيونهم تتفتح فيرون ما كانوا في السابق ينظرون إليه فحسب، وها هم ينضجون سياسياً وهم يتبينون أن هناك اتجاهات سياسية جديدة

من المحيط الباسيفيكي إلى المحيط الأطلنطي. وهم يرون أنه كلما جرت انتخابات تقاربت أصوات المتنافسين بحيث دعت الحاجة إلى إعادة عد الأصوات، وهذا ما حدث في انتخابات الحاكمين في مناطق كثيرة من أميركا.

وحدث الشيء ذاته مع كينيدي ونيكسون عندما ترشحا لمنصب الرئيس.. فماذا يعني هذا؟

يعني أنه حين يكون البيض مقسومين إلى قسمين متساويين، وتكون لدى السود كتلة كبيرة من الأصوات الخاصة بهم، فإن السود هم الذين يقررون من سيجلس في البيت الأبيض ومن سيجلس في بيت الكلب...

في الإدارة الحالية هناك 275 ممثلاً عن الديمقراطيين في مجلس النواب و177 ممثلاً فقط عن الجمهوريين، وعليه فإن الديمقراطيين يسيطرون على ثلثي أصوات المجلس فلماذا لا يستطيعون تمرير قانون لمساعدتنا؟ وفي مجلس الشيوخ هناك 67 سيناتوراً من الحزب الديمقراطي و33 فقط من الحزب الجمهوري.

إن الديمقراطيين يستأثرون بالحكم، وأنتم من قدم لهم ذلك، فماذا أعطوكم في المقابل؟ لقد أمضوا أربع سنوات في الحكم، وها هم الآن يلتفون لكي يقدموا بضعة تشريعات للحريات المدنية.

إن ما أحاول أن أطبعه في أذهانكم أساساً هو التالي: أنا وأنتم في أميركا لا نواجه مؤامرة فصل عنصري، بل مؤامرة حكومية. وكل الذين يعملون على تعطيل قوانين إنهاء الفصل العنصري هم من مجلس الشيوخ والكونغرس ـ أي من الحكومة.

## ـ الحقوق المدنية وحقوق الإنسان:

إلام يؤدي هذا؟ أولاً نريد كسب أصدقاء إلى جانبنا، نريد حلفاء جدد. إن كفاح حركة الحقوق المدنية بكامله يحتاج إلى تأويل جديد، تأويل أوسع. نحن نحتاج إلى أن ننظر إلى الحقوق المدنية من زاوية أخرى، من الداخل كما من الخارج أيضاً. وبالنسبة إلى من ينتمون منا إلى فلسفة القوميين السود فإن الطريقة الوحيدة التي يمكننا من خلالها الانخراط بالكفاح من أجل الحقوق المدنية هي إعطاؤه تأويلاً جديداً، فالتأويل القديم يستثنينا ويبقينا خارجاً.

نحن بحاجة إلى أن نوسع الكفاح من أجل الحقوق المدنية ونرفعه إلى مستوى أعلى، إلى مستوى حقوق الإنسان، فعندما تكافحون من أجل الحقوق المدنية وحدها تحصرون أنفسكم في ضوابط الرجل الأبيض، وضمن الولاية القضائية للعم سام، فلا يستطيع أحد من العالم الخارجي التحدث بشأنكم ما دام كفاحكم في مستوى الحقوق المدنية، لأن الحقوق المدنية تنضوي تحت الشؤون الداخلية لهذا البلد، ولا يستطيع كل إخواننا في أفريقيا وإخواننا في روسيا وفي أميركا اللاتينية فتح أفواههم والتدخل في الشؤون الداخلية للولايات المتحدة.

لكن في الأمم المتحدة ما يسمى «العهد الدولي لحقوق الإنسان»، ولديها لجنة مختصة بحقوق الإنسان. ولعلكم تتساءلون لم عرضت كل الفظاعات التي ارتكبت في أفريقيا وفي هنغاريا وفي روسيا وفي أميركا اللاتينية على الأمم المتحدة، في حين

لم تعرض عليها مشكلة الزنوج على الإطلاق؟.

إن هذا لهو جزء من المؤامرة، ذلك أن أولئك التحرريين البيض المخادعين من ذوي العيون الزرق الذين يفترض أن يكونوا أصدقاءكم لم يخبرونا قط بأي شيء يتعلق بحقوق الإنسان. بل أبقوكم مقيدين بالحقوق المدنية.

عندما توسعون الكفاح من أجل الحقوق المدنية إلى مستوى الكفاح من أجل حقوق الإنسان، يمكنكم حينذاك أن تأخذوا قضية السود في هذا البلد وأن تعرضوا على الأمم المتحدة، ويمكنكم أن تأخذوها أمام الهيئة العامة، ويمكنكم أن تجروا العم سام إلى المحكمة الدولية.

## ـ الإسلام والدنيا:

أرغب في أن أذكر في النهاية بضعة أشياء تتعلق «بمنظمة المسجد الإسلامي» التي أسسناها مؤخراً في مدينة نيويورك. صحيح أننا مسلمون وأن ديننا هو الإسلام ولكننا لا نخلط أمورنا الدينية بسياستنا وأمورنا الإقتصادية ونشاطاتنا الإجتماعية والمدنية، لن نفعل ذلك كما لم نفعل سابقاً بل سنبقي أمورنا الدينية في مسجدنا، وننخرط بعد انتهاء الشعائر الدينية كمسلمين في النشاط السياسي وفي النشاطات الإقتصادية والإجتماعية والمدنية، وسنشترك في النشاط مع أي كان وفي أي مكان أو وقت كان وبأي وسيلة هدفها القضاء على الشرور السياسية والإقتصادية والإجتماعية التي تبتلي الناس في مجتمعاتنا.

## ـ القومية السوداء:

إن الفلسفة السياسية لقومية السود تعني أن على السود أن يسيطروا على السياسة والسياسيين في مجتمعاتهم، والفلسفة الإقتصادية لقومية السود هي فلسفة نقية وبسيطة، فهي تعني فقط أن على السود أن يسيطروا على إقتصاديات مجتمعاتهم. ونحن لا نستهدف في دعوتنا إلى قومية السود أن نجعل السود يعيدون تقييم البيض ـ فأنتم تعرفونهم من قبل ـ بل نهدف إلى جعل الرجال السود يعيدون تقييم أنفسهم.

لا تحاولوا تغيير أفكار الرجل الأبيض، فليس بإمكانكم ذلك، وانفضوا عنكم كل الكلام عن إنشاد الضمير الأخلاقي لأميركا لأن ضمير أميركا قد أفلس.

لقد خسرت أميركا ضميرها منذ زمن بعيد، إن العم سام لا يملك ضميراً، وهم لا يعرفون الأخلاق. إنهم لا يحاولون القضاء على الشرور لأنها شرور أو لأنها غير قانونية أو لأنها غير أخلاقية، وإنما يقضون على الشرور حين تهدد وجودهم فقط.

## ـ السلاح:

أخيراً لا آخراً، علي أن أقول شيئاً بخصوص الخلاف القائم على امتلاك المسدسات والبنادق، والشيء الوحيد الذي قلته في السابق هو أنه عندما تكون الحكومة عاجزة عن الدفاع عن حياة الزنوج وأملاكهم أو غير راغبة في ذلك، فسوف يكون على الزنوج أن يدافعوا عن أنفسهم.

إن البند الثاني في «التعديل الدستوري» يؤمن لي ولكم الحق في امتلاك بندقية أو مسدس. وهذا لا يعني أننا سنقوم بالحصول على الأسلحة وتشكيل كتائب لمطاردة البيض، رغم أن ذلك مبرر في حالتنا ولكن ذلك سيكون غير قانوني، ونحن لا نفعل شيئاً غير قانوني. وإذا كان الرجل الأبيض لا يرغب في أن يشتري الرجل الأسود بنادق ومسدسات، فعلى الحكومة أن تقوم بواجبها.

**ـ رسالة من جدة:**

في 13 نيسان/ أبريل 1964 غادر مالكوم أكس الولايات المتحدة في رحلة طويلة زار فيها مصر ولبنان والسعودية ونيجيريا وغانا والمغرب والجزائر. وفي أثناء هذه الرحلة قام بأداء فريضة الحج. وقد شكّلت هذه الرحلة علامة فارقة في تطوير أفكاره، وكثيراً ما كان يتحدث عنها وعما تعلمه منها. وفيما يلي مقتطفات من الرسالة التي كان قد أرسلها إلى زوجته من جدة.

**ـ جدة 20 نيسان/أبريل 1964:**

لم أشهد في حياتي ضيافة كريمة وروحاً غامرة بالأخوّة الحقة كاللتين شهدتهما من أناس من شتى الألوان والأعراق في هذه الأرض العريقة المقدسة، وطن إبراهيم ومحمد وكل أنبياء الكتب المقدسة الآخرين.

لقد كنت خلال الأسبوع الماضي مفتوناً وعاجزاً عن التعبير عما رأيته من كرم يعرضه الناس من حولي على اختلاف ألوانهم.

كان هناك عشرات الآلاف من الحجاج من جميع أنحاء العالم، وكانوا من شتى الألوان: من الشقر ذوي العيون الزرق، إلى الأفارقة السود البشرة. ولكنهم كانوا جميعاً يمارسون الطقوس الروحية ذاتها، وكانوا يكشفون عن روح من الوحدة والأخوة التي قادتني خبرتي في أميركا إلى الاعتقاد باستحالة وجودها بين البيض وغير البيض.

إن أميركا لفي حاجة إلى فهم الإسلام، لأن هذا هو الدين الوحيد الذي يمحو مشكلة العرق من مجتمعها.

أثناء رحلاتي في العالم الإسلامي التقيت وتحدثت، بل وأكلت مع أناس كانوا سيعتبرون بيضاً في أميركا. ولكن دين الإسلام في قلوبهم أزال البياض من عقولهم، فراحوا يمارسون أخوة حقيقية وصادقة مع الناس الآخرين أياً يكن لونهم...

إن الإسلام الحقيقي يزيل العنصرية، لأن الناس ـ من شتى الألوان والأعراق ـ الذين قبلوا مبادءه الدينية ويعبدون إلهاً واحد هو الله عز وجل يقبّلون أيضاً وتلقائياً واحدهم الآخر بوصفهم إخوة وأخوات بغض النظر عن اختلافهم في المظهر.

قد تصعقين حين تسمعين كلامي هذا، ولكنني كنت على الدوام رجلاً يحاول مواجهة الحقائق، وتقبُّل واقع الحياة كما تكشف عنه المعارف والخبرات الجديدة.

ولقد علمتني تجربة الحج هذه الشيء الكثير، وكل ساعة أقضيها في الأرض المقدسة تفتح عيني أكثر فأكثر. وإذا تمكن الإسلام من غرس روح الأخوة الحقة في قلوب البيض الذين

قابلتهم هنا في أرض الأنبياء، فمن المؤكد أن باستطاعته أن يمحو سرطان العنصرية من قلوب الأميركيين البيض.

## ـ خطابه في قاعة الأودوبون: نيويورك 20 كانون الأول/ ديسمبر 1964.

عندما تنظرون إلى تاريخنا النضالي، أعتقد أنكم ستتفقون معي على أننا جربنا أنماطاً مختلفة من النضال، وإن كل الطرق التي جربناها لم تأتنا بما كنا نناضل من أجله، فلو كان أي منها منتجاً لكنا تابعناه. ولربما جربنا طرقاً مختلفة أكثر مما جرب أي شعب آخر ولكنني أعتقد في الوقت ذاته، أننا جربنا طرقاً مختلفة خاطئة أكثر مما جرب أي شعب آخر، لأن أكثر الشعوب الأخرى حققت قدر أكبر من الحرية التي نملكها. فإن تولوا أبصاركم تروا شعوباً تحققت حريتها قبلنا، وتحظى باحترام واعتراف أسرع منا.

لقد حصلنا نحن على وعود ولكننا لم نحصل قط على أي شيء حقيقي، وذلك مرده أساساً إلى أنه ما زال علينا أن نتعلم الأخطوطة (التكتيك) أو الاستخطاطية (الإستراتيجية) أو الأسلوب المناسب لتحقيق الحرية على أرض الواقع.

وأعتقد أن أحد الأسباب التي أدت بشعبنا في هذا البلد إلى تجريب كل هذا العدد الكبير من الطرق هو أن الظروف قد تغيرت بتواتر سريع، فما كان نافعاً قبل عشر سنوات لم يكن نافعاً قبل سبع سنوات أو خمس سنوات أو ثلاث سنوات.

## ـ الناس والبرنامج:

سألني عدد من الأشخاص منذ فترة وجيزة، وبعد عودتي من أفريقيا ما هو برنامجك؟ وأنا إلى هذا اليوم لم أذكر وعن قصد، ما هو برنامجنا، لأنه سيأتي الوقت الذي سنكشف فيه عنه بحيث يفهمه كل شخص. إن السياسات تتغير، والبرامج تتغير، وفقاً لظروف الزمن، ولكن الأهداف لا تتغير أبداً.

إن أهدافنا هي التحرر الكامل والعدالة الكاملة والمساواة الكاملة، وسنحقق ذلك بكل الوسائل الضرورية، وهذا لا يتغير أبداً.

أنا لا يهمني انتماؤكم، فما زلتم تريدون الاعتراف والاحترام بوصفنا آدميين، ولكنكم غيرتم وسائل تحقق ذلك من وقت إلى آخر، والسبب هو الزمن والظروف التي تطرأ. وأحد تلك الظروف التي طرأت على هذه الأرض الآن، ولا نعلم عنه إلا القليل، هو علاقتنا بالكفاح التحريري للشعوب في كل العالم.

أنا شخصياً أعتقد أنك إذا أفهمت الناس ما يواجههم إفهاماً تاماً والأسباب الأساسية التي أدت إليه، وضعوا بأنفسهم برنامجاً خاصاً بهم. وعندما يضع الناس برنامجاً ينشأ التحرك.

أما عندما يضع القادة برنامجاً فإنك لن تجد أي تحرك، والوقت الوحيد الذي تراهم فيه هو الوقت الذي ينفجر فيه الناس، فإذ ذاك يقتحم القادة ويتوجهون للسيطرة على الأمور!

أنتم لا تستطيعون أن تذكروا لي قائداً واحداً تسبب بانفجار شعبي. لا، إن القادة يأتون لاحتواء الانفجار! وتجدهم يقولون: «لا تأخذوا الأمور بالخشونة، عليكم التصرف بذكاء». وهذا هو دورهم، إنهم موجودون كي يكبحوكم ويكبحوني ويكبحوا الكفاح ويبقوه في مسار محدد فلا يخرج عن السيطرة.. في حين أننا لا نريد لأي كان أن يمنعنا من الخروج عن السيطرة. فنحن نريد أن نخرج عن السيطرة، ونحن نريد أن نحطم أي شيء يقف في طريقنا حين لا يكون منتمياً إلى أهدافنا وكفاحنا.

**ـ أفريقيا:**

إذن أيها الإخوة والأخوات، الأمر الذي عليكم وعلي أن أفهمه هو الدور الذي يؤدى في القضايا الدولية اليوم بواسطة قارة أفريقيا أولاً، بواسطة شعوب تلك القارة ثانياً، وبواسطتنا نحن ثالثاً وأقصد نحن الذين لنا صلة بشعوب تلك القارة ولكننا ـ وبسبب التواء في تاريخنا ـ نجد أنفسنا هنا اليوم في النصف الغربي من الكرة الأرضية.

إن أفريقيا تقع جغرافياً واستخطاطياً بين الشرق والغرب وهي أنفس قطعة ملك من بين القطع الواقعة ضمن الصراع بين الشرق والغرب. فلا يمكنك الوصول إلى الشرق دون أن تمر بها، ولا يمكنك أن تأتي من الشرق إلى الغرب دون أن تمر بها، وهي قابعة هناك بين الأطراف كلهم، وتستكين في عش بين آسيا وأوروبا، وبإمكانها الوصول إلى أي منهما، كما أنه ليس بالإمكان نقل أي من المصادر الطبيعية التي تحتاجها أوروبا والتي تحصل عليها من آسيا

دون المرور عبر أفريقيا أو حول أفريقيا أو عبر قناة السويس التي تقع في رأس أفريقيا.

إن بإمكان أفريقيا قطع الخبز عن أوروبا، وبإمكانها أن تسلّم أوروبا إلى النوم بين ليلة وضحاها لأنها في موقع يؤهلها لأن تفعل ذلك، ولكنهم يريدون لي ولك أن نعتقد أن أفريقيا غابة لا قيمة لها ولا أثر، لأنهم يعلمون أنك إن علمت مدى قيمتها فستعلم لماذا يقتلون شعباً هناك. وهناك سبب آخر لأهمية القارة وهو الذهب الموجود فيها، إذ إن فيها واحداً من أكبر مقادير رواسب الذهب في العالم. وفيها الماس أيضاً، وأنا لا أقصد الماس الذي تتقلدونه في أصابعكم وأذانكم فقط بل الماس الصناعي، الماس الذي يحتاجونه لصناعة الآلات. وبدون الماس تتوقف صناعتهم.

ليس فقط الماس، بل الكوبلت أيضاً، والكوبلت هو أحد أهم المعادن النفيسة على الأرض اليوم، وأعتقد أن أفريقيا هي من الأماكن القليلة في العالم التي يوجد فيها وأنهم يستعملونه لمعالجة السرطان بالإضافة إلى أنهم يستعملونه في مجال الطاقة النووية التي سمعتم الكثير عنها.

ومن الناحية السياسية، فإن لأفريقيا قارة، وللشعوب الأفريقية سكاناً، أكبر تمثيل قاري في الأمم المتحدة. والأفارقة، سياسياً أيضاً هم في أفضل موضع استخطاطي وفي أقوى وضع كلما انعقد مؤتمر على المستوى الدولي.

إن القوة الوحيدة التي بإمكانها مساعدتكم ومساعدتي هي القوة

الدولية لا القوة المحلية، فلماذا علينا أن نبقى فاقدين لعقولنا ولا نتماهى مع تلك الكتلة القوية؟ . .

## ـ حوارات ومواقف قبل ثلاثة أشهر من اغتياله عن العنصرية ودولة السود:

*** ما هو الفرق بين عنصرية البيض وعنصرية السود؟**

ـ عادة ينتج العنصري الأسود من قبل العنصري الأبيض. وفي معظم الحالات نجد أن عنصرية السود، حين نتفحصها عن قرب، إنما هي رد فعل على عنصرية البيض. وأعتقد أن السود قد أظهروا نزاعات عنصرية أقل من أي شعب آخر منذ فجر التاريخ.

إذا استجبنا لعنصرية البيض برد فعل عنيف، فإن ذلك في نظري لن يكون عنصرية من قبل السود. فلو أتيت لتضع حبلاً حول عنقي وشنقتك بسبب ذلك، فإن ذلك بالنسبة إلي ليس عنصرية وإنما فعلك أنت هو العنصرية. إن رد فعلي ما هو إلا رد فعل إنسان يقوم بالدفاع عن نفسه وحماية نفسه.

وهذا ما لم يفعله شعبنا بعد وهناك قسم من شعبنا ـ من حملة الشهادات الأكاديمية العالمية على الأقل ـ لا يريدون أن يفعلوا ذلك ولكن أكثرنا ليسوا من ذلك المستوى!

*** ما هو في اعتقادك سبب التحيز العرقي في الولايات المتحدة؟**

ـ الجشع والجهل، بالإضافة إلى برنامج من التجهيل مصمم بمهارة ويترافق مع نظام الاستغلال والقمع الأميركي. إن سكان أميركا لو علموا جميعهم بالطريقة الصحيحة فسيصبح كثير من

البيض أقل عنصرية في مشاعرهم. وعندما أقول: تعليمهم بالطريقة الصحيحة فإنما أعني إعطاءهم الصورة الحقيقية عن تاريخ السود وعن إسهامات السود في الحضارة.

وعندما سيكون البيض أكثر احتراماً للسود كبشر سيبطل شعورهم بالتفوق جزئياً على الأقل. كما أن مشاعر الدونية لدى السود تستبدل بمعرفة متزنة بأنفسهم، وسوف يشعرون بإنسانيتهم أكثر ويتصرفون كبشر في مجتمع من البشر وعليه، فإن القضاء على العنصرية يتطلب التعليم المناسب، أما وجود الجامعات والمعاهد فهذا لا يعني وجود تعليم أو تربية، ذلك لأن الجامعات والمعاهد في نظام التعليم الأميركي تستخدم بمهارة من أجل التجهيل.

*** هل ثورة الزنوج ثورة عرقية؟**

ـ نحن نعيش في حقبة ثورية، وما ثورة الزنوج الأميركيين إلا جزء من الثورة ضد الاستعمار التي ميزت هذه الحقبة...

من الخطأ تصنيف ثورة الزنوج ببساطة على أنها نزاع عرقي بين السود والبيض، أو بوصفها مشكلة أميركية خالصة. فنحن نرى اليوم ثورة كونية للمضطَهَدين ضد المضطهِدين، والمستغِلِّين ضد المستغَلِّين. إن ثورة الزنوج ليست ثورة عرقية بل نحن نرغب في ممارسة الإخاء مع أي شخص يرغب في العيش بناءً عليه.

ولكن الرجل الأبيض ما انفك يبشر بمذهب فارغ من الإخاء لا يعدو أن يكون تقبل الزنوج السلبي لمصيره.

*** قبل أن تترك إليجا محمد وتذهب إلى مكة في عالم الإسلام الأصيل، كنت تؤمن بالانفصال الكامل بين البيض والزنوج، كنت معارضاً للاندماج العرقي والزواج المختلط فهل غيرت معتقداتك تلك؟**

ـ أنا أؤمن بأن على كل كائن بشري أن يُقدَّر بوصفه كائناً بشرياً لا بصفة أبيض أو أسود أو أسمر أو أحمر. وعندما تتعامل البشرية وكأنها عائلة واحدة فلن يكون الاندماج العرقي أو الزواج المختلط هو الموضوع بل يكون الأمر أمر زواج كائن بشري بكائن بشري آخر، أو كائن بشري يعيش مع كائن بشري آخر. مع هذا يمكنني القول إنني لا أعتقد أن وزر هذا الأمر يوضع على السود.

لأن الرجل الأبيض هو أول من أظهر عدائيته للاندماج والزواج المختلط وللخطوات الأخرى في طريق التوحد. لهذا فأنا كرجل أسود، وبالأخص كأميركي أسود، لا أرى أن عليّ أن أدافع عن أي موقف اتخذته في السابق، لأنه يظل رد فعل على المجتمع الذي أنتج هذا الأمر.

*** ولكنك لم تعد تؤمن بإقامة دولة للسود في أميركا الشمالية؟**

ـ لا، أنا أدعو إلى إقامة مجتمع يمكن أن يعيش الناس فيه كبشر وعلى أساس المساواة.

*** لقد كان هناك كلام، وأعتقد أنك أنت الذي قلته، أو قاله إليجا محمد عن معركة فاصلة ستجري في الولايات المتحدة بحلول العام 1984. وأنا أتساءل إذا كنت ما تزال تؤمن به؟ ولماذا ذلك الموعد بالتحديد؟**

ـ أعتقد أن الكثير مما علمه إليجا محمد لا يؤمن هو نفسه به، وأنا أقول ذلك وأستطيع أن أدافع عما أقوله بسهولة إذا ما جلست قبالته، ولكني أعتقد، فيما يتعلق بصراع فاصل بين الشرق والغرب، أن تحليلاً موضوعياً عن الذي يجري حالياً سيشير إلى نشوء نوع من الصراع النهائي الفاصل، وهو صراع بإمكانك أن تدعوه صراعاً عرقياً أو حتى صراعاً بين الأنظمة الإقتصادية الموجودة على هذا الكوكب التي تعتمد على محاور عرقية تقريباً.

أنا أؤمن فعلاً بأنه سيكون هناك صراع بين الشرق والغرب. وأنا أعتقد بأنه سيحدث في النهاية صدام بين المقموعين وأولئك الذين يريدون الحرية والعدالة والمساواة للجميع وأولئك الذين يريدون لأنظمة الاستغلال أن تستمر. أعتقد أنه سيحدث يوماً صدام من هذا النوع، ولكنني لا أعتقد أنه سيكون مرتكزاً إلى لون البشرة كما علَّم إليجا محمد.

## ـ عن تنظيم الناس:

*** هل تخطط لاستخدام الكراهية أداة لتنظيم الناس؟**

ـ أنا لا أسمح لك بأن تدعو ذلك كراهية فلنقل إنني سوف أخلق وعياً لدى الناس بما صنع بهم. وهذا الوعي سينتج غضباً عارماً، بشكله السلبي والإيجابي، ويمكن توجيه هذا الغضب بشكل بنّاء. لقد كان الخطأ الأكبر لدى الحركة أنها كانت تحاول تنظيم أناس نيام لتحقيق أهداف محددة. ولكن عليك أن توقظ الناس أولاً، ومن ثم تحصل على الفعل.

*** توقظهم على حقيقة استغلالهم؟**

ـ لا، نوقظهم على إنسانيتهم، وعلى قيمتهم الذاتية وتراثهم. إن الفرق الأكبر ما بين الاضطهادين المتوازيين لليهود والزنوج هو أن اليهودي لم يفقد مطلقاً اعتزازه بكونه يهودياً، ولم يتوقف أبداً عن أن يكون رجلاً، وكان يعرف أنه قدَّم مساهمة نفسية إلى العالم، وقد أعطاه إحساسه بقيمته شجاعة مكنته من رد العدوان ومكّنه من أن يتصرف ويفكر بإستقلالية، وهذا على النقيض من شعبنا وقادتنا.

*** هل تؤمن بالعمل السياسي؟ إذا رشحتك الجماعات اليسارية لمنصب عمدة المدينة فهل ستقبل؟**

ـ نعم وأنا أؤمن بالعمل وحسب، نقطة على السطر. وأي نوع من العمل سيكون ضرورياً. وعندما تسمعني أقول بكل الوسائل الضرورية فأنا أعني ذلك تماماً.

أن أقوم بأي نوع من العمل من أجل تصحيح الأوضاع الظالمة سواء أكان عملاً سياسياً أم إقتصادياً أم إجتماعياً أم جسدياً.

أنا أؤمن بكل ذلك ما دام موجهاً بذكاء ومصمماً للحصول على نتائج. ولكنني لا أؤمن بالانخراط في أي نوع من العمل السياسي أو غيره دون التوقف لتحليل احتمالات النجاح أو الإخفاق. وأعتقد أيضاً أن على الجماعات ألا تشير إلى نفسها بتصنيفات من قبيل يساريين أو يمينيين أو وسطيين بل أنا أعتقد أن عليهم أن يكونوا، وألا يدعوا الناس يضعون لهم ألقاباً وتصنيفات. . . إذ أن التصنيفات قد تدمرك أحياناً.

*** لقد أعربت عن رغبتك في ترشيح مرشحين من الثوريين السود لمناصب حكومية عامة، فهل سترشح نفسك أيضاً؟**

لا أعرف ذلك حالياً. ولكنني أعتقد أنني سأكون أكثر فاعلية في مهاجمة مؤسسة الحكم، فالمرء لا يستطيع فعل ذلك عندما يصبح في داخل المؤسسة.

*** هل تعتقد أن هناك حاجة إلى أحزاب مقتصرة على السود كحزب «الحرية» الموجود الآن في ميشيغان؟**

ـ نعم ففي بعض الحالات علينا أن نبتكر آليات جديدة للعمل، وفي حالات أخرى من الأحسن أن نسيطر على آليات موجودة فعلاً. وفي كلتا الحالتين سنكون منخرطين في كل مستويات العمل السياسي بدءاً من العام 1965.

وفي النقاش الأخير الذي جرى في الأمم المتحدة حول الكونغو قام ممثل الأمم الأفريقية بشجب تدخل الولايات المتحدة في الكونغو وربطوا بين دورها هناك وبين معاملتها للسود في الميسيسيبي.

*** قال أحد معلقي الصحف إنك أنت مسؤول جزئياً على الأقل عن اتخاذ الوفود الأفريقية لهذا الموقف.**

ـ أنا لم أدَّعِ أبداً المسؤولية ـ أو قل الفضل ـ عن الموقف الذي اتخذ من قبل الأمم الأفريقية. فالأمم الأفريقية ممثلة اليوم برجال دولة أذكياء، والأمر لم يعد مسألة وقت قبل أن يجدوا أن عليهم

التدخل بالنيابة عن 22 مليون أميركي أسود هم إخوان وأخوات.

إن ذلك ليعطي مثالاً جيداً على السبب الذي يدفعنا إلى تدويل قضيتنا. وها هي الأمم الأفريقية تحتج الآن وتربط قضية العنصرية في الميسيسيبي بقضية العنصرية في الكونغو، بقضية العنصرية في فيتنام الجنوبية. إن جميعها قضايا نابعة من العنصرية، وكل ذلك هو جزء من النظام العنصري الشرس الذي استخدمته القوة الغربية للاستمرار في استغلال الشعوب في أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية..

## ـ عن التعاون مع المجموعات الأخرى:

*** لقد قلت أن موقفك قد تغير بخصوص الكثير من القضايا في السنة الأخيرة، فماذا عن موقفك بصدد منظمات الحقوق المدنية القائمة؟**

ـ أنا أدعم أي اتجاه يؤدي إلى إحراز نتائج ولا أريد لأي منظمة ـ أكانت للحقوق المدنية أم لأي أمر آخر ـ أن تساوم على هيكل السلطة وتعتمد على عناصر محددة في هيكل السلطة من أجل تمويلها، لأن هذا الأمر يضعها تحت تأثير وسيطرة هيكل السلطة ذاته من جديد.

أنا أدعم الانخراط في أي عمل يؤدي إلى إحراز نتائج ذات معنى لجماهير شعبنا لا لمصلحة عدد قليل من الزنوج المنتقين في القيادة والذين يحصلون على الهيبة والفضل في حين تبقى مشاكل الجماهير دون حل.

*** إن الخلاف بين مالكوم أكس وقادة حركة الحقوق المدنية هو خلاف حول أخطبوطة العنف في مقابل أخطبوطة اللاعنف ـ أو هو كما يعبر مالكوم، خلاف حول الدفاع عن النفس في مقابل المازوخية. وهذا الخلاف هو ما يمنع الوحدة التي يشعر مالكوم أنها أحد المفاتيح الرئيسية في الكفاح.**

ـ ليس مرد ذلك إلى عدم وجود الرغبة في الوحدة، أو أن الوحدة مستحيلة، أو لأنهم لا يتفقون معي في الخفاء، بل إن السبب هو أن معظم المنظمات تعتمد على مال البيض وتخشى فقدانه! لقد أمضيت ما يقارب العام دون أن أهاجمهم، وكنت أقول «فلنجتمع، فلنفعل شيئاً ما» ولكنهم خائفون بشدة. وأعتقد أن عليّ التوجه إلى الناس أولاً، وأن أجعل القادة يلحقون بهم بعد ذلك. وهذا لا يعني أنني أستبعد التعاون بل سوف أحاول تقوية المجالات والنشاطات التي يمكن للمجموعات أن تعمل فيها معاً.

وإذا كنا ذاهبين إلى حلبة ملاكمة فليس على قبضتنا اليمنى أن تصبح قبضتنا اليسرى، وإنما علينا أن نستخدم رأساً مشتركاً إذا كنا نريد الفوز.

## ـ برقية إلى رئيس الحزب النازي الأميركي:

في تجمع حاشد لمنظمة «إتحاد الأفارقة الأميركيين» عقد في حي هارلم بتاريخ 24 كانون الأول/ديسمبر 1965، قال مالكوم إنه شاهد على التليفزيون في نشرة الأخبار أحد العنصريين البيض يدفع بالقسيس مارتن كنغ الابن ويوقعه أرضاً.

وقال مالكوم لقد سبب ذلك لي الألم. وأضاف أنه لو كان موجوداً هناك لهرع إلى مساعدة كنغ.


ثم قرأ على الملأ نص برقية أرسلها إلى جورج لينكن روكويل الرئيس النازي الأميركي، وفيما يلي نص البرقية: «أرسل إليكم هذه البرقية لأحذركم من أنني لم أعد مقيداً عن مقاتلة العنصريين البيض، فأنا لم أعد مقيداً من قبل حركة إليجا محمد للانفصاليين السود المسلمين.

وأرسلها إليكم أيضاً لأحذركم من أنه لو سبب تهيجكم العرقي الحالي ضد شعبنا في ألاباما أي أذى جسدي للقسيس مارتن كنغ الابن أو لأي أميركي أسود من الذين يسعون إلى التمتع بحقوقهم كبشر، فإنكم ستواجهون، أنتم وأصدقاؤكم من منظمة «كوكاوكس كلان» لأقصى الانتقام الجسدي من قبلنا، نحن الذين لا تقيدنا فلسفة اللاعنف ولا تجردنا من أسلحتنا الجسدية، والمؤمنون بممارسة حقنا في الدفاع عن النفس بكل الوسائل الضرورية».

**ـ من كلماته الأخيرة:**

أجرى مالكوم قبل اغتياله بثلاث أيام مقابلة مع صحيفة «نيويورك تايمز»، وقال فيها: «أشعر كأني رجل كان نائماً وتحت سيطرة شخص آخر، بأن ما أقوله وما أفكر به الآن عني أنا، وقبل ذلك كان ما أقوله وما أفكر به نابعاً من إليجا محمد وإرشاداته. أنا الآن، يا سيدي أفكر بعقلي أنا.

# الفهرس








مركز الشرق الأوسط الثقافى